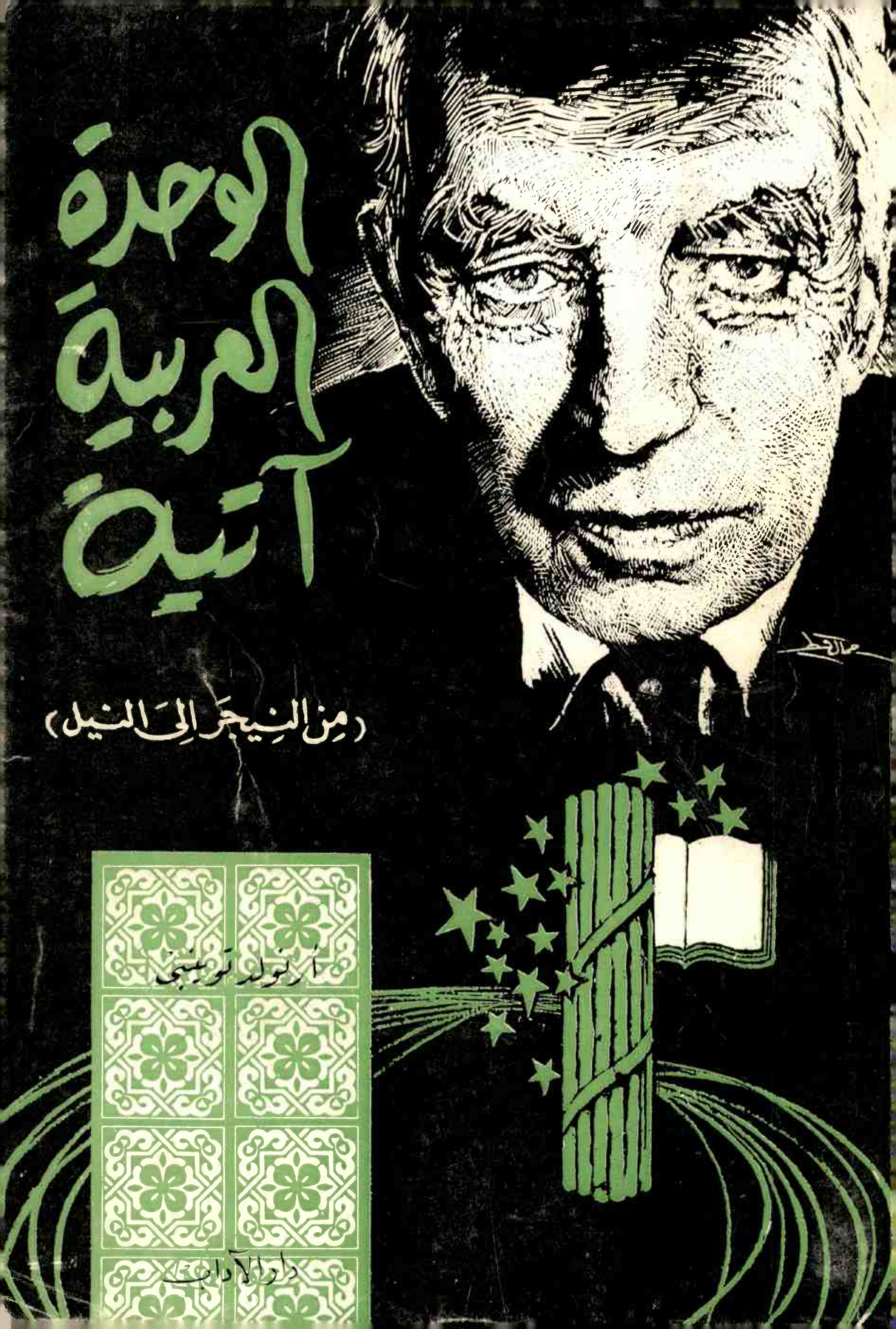


الوحدة العربية آتية
(من النيجر إلى النيل)
أرنولد توينبي
دار الآداب

خالد علي بورقيبة



الوحدة العربية آتية

خالد علي بورقيبة

أرنولد توينبي

الوحدة العربية آتية!

(من النيل الى النيجر)

نقله الى العربية
عمر الديراوي أبو حجلة

منشورات دار الآداب - بيروت

عنوان الكتاب بالأصل الانكليزي

Between Niger and Nile

by

Arnold J. Toynbee

الطبعة الثانية
كانون الثاني – يناير – ١٩٧٩

تمهيد

الوحدة العربية آتية

التاريخ يسير ، والعقل البشري يتنامى ، والعالم يصغُر كل يوم .. وكنتيجة لهذا ، تطلّ بشائر مجتمع إنساني واحد لا يكون فيه سيد ومسود ولا مستغِل ومستغَل . هذا هو ما يلوح على درب التاريخ المحتوم صُعُدا . لكن هناك في الدرب معوّقات كثيرة لا مناص من تخطّيها حتى إذا رفضت أن تنزاح من الطريق حكمت على نفسها بالدمار .

وقبل أن يتكون ذلك المجتمع الانساني الواحد لا بد أن تتبلور في العالم مجموعة من المجتمعات الكبيرة ، كلّ منها ندٌ للآخر ، وعلاقته مع قرينه علاقة اخوّة وتقبّل لا سيطرة ولا استغلال . وهذا ما شهد ملامحه القرن الحاضر ، فمن نُتف دولٍ في القرن التاسع عشر خرجت الوحدات القومية كمجتمعات كبيرة تسعى إلى رفع شأن أفرادها وترفيه حياتهم .

ووقعت اخطاء كثيرة ، إذ انحرف بعض هذه الوحدات القومية عن جادة الصواب ، لكن القرن العشرين أثبت لها ، بما لا يقبل الشك ، ان خدمة الانسانية أضمن لخدمة نفسها هي .. وزالت مجتمعات الانحراف ..

وبعد الحرب العالمية الثانيـــة ورث الانحرافَ مجتمعات جديدة كل ميزاتها تنحصر في غبـــاء القوة المادية ، ونحن نراها تفشل كل يوم في مناطحة التاريخ ، وهو يقصم ظهرها في اكثر من موطن . كما نلحظ ان التكتلات القـائمة على الانتهازية واضمار الشر للكتل الاخرى آخذة في التفسخ والاضمحلال .

وإذا كانت وحدات القرن التاسع عشر قد جاءت منحرفة في نظرتها إلى الانسانية ، فلم يعد هناك مجال لمثل هذا الانحراف في القرن العشرين . ذلك ان العقد الثاني من هـذا القرن شهد ثورةً كانت من العمق بحيث غيَّرت نظرة الانسان إلى نفسه ، ونسخت فكرة سادت طوال ما قبلها من التاريخ ، الا وهي فكرة استغلال الانسان لأخيه .

إذن فالوحدة العربية ، وأي وحدة مثلها في القرن العشرين ، لا يمكن أن تكون وحدة منحرفة في أساسها . وهذا بعض ما يهبها القوة ويسارع في بزوغ شمسها القريب .

في القرن التاسع عشر ظهرت الوحدة الألمانيـة والوحدة الايطالية ، وكان في طريق كل منهما عقبات كثار ، وقد ذللتها هذه وتلك في نصف قرن أو أزيد قليلاً ، ولم تكن الواحدة منهما تتمتع بحافز أفضل مما تتمتع به الوحدة العربية ، ولم يكن العصر العلمي آنذاك شأنه اليوم . ومن نافلة القول أن نأتي على التسارع الذي يبعثه العصر الحاضر في كل جهد يسعى اصحابه لنيل حياة أفضل ، والوحدة العربية هي التي توفر الحياة الأفضل لأبنائها .

كل هذا يدفعنا إلى ما يقرب الجزم في القول بأن الوحدة العربية لن تستغرق فترة زميلتيها ولن تنحرف مثلها . وعلى هذا الأساس تكون سنة ١٩٧٤ ،

(كما يرى المؤرخ ارنولد توينبي) هي الحد الأقصى لاشراق ذلك النور . والواقع ان العقبة الرئيسية في سبيل الوحدة ، وهي مصالح بعض الأفراد والأسر المستفيدة من التجزئة ، لم تشكّل في التاريخ سابقاً – وأعجز من أن تشكل الآن – عائقاً منيعاً يتعذر تحطيمه . ان قطيع الدويلات في إيطاليا والولايات في المانيا لم يصمُد أمام التيار الجارف ، كما تحطّم نفوذ فرنسا وسيطرة النمسا على بعض أجزاء البلدين . وإذا كان من يعترض على ذلك بوجود اسرائيل ، فإن الولايات البابوية ونفوذ البابا الزمني في إيطاليا كانا أعتى عـــداءً لوحدة ايطاليا بالنسبة لزمنهما . ومع ذلك حطم تيار الوحدة الايطالية كل تلك الشرور وحصَر نفدذها في رقعة ضيقة جردها من أية إمكانية بتشكيل خطر على البلاد . وما اسرائيل كرقعة من الارض إلا أوهى ساعداً من ولايات البابا . أمـا الصهيونية العالمية ومكائدها فلا تقلّ عنها الكاثوليكية وتنظيماتها الدقيقة في مختلف ارجـاء العالم .. لكن تيار الوحدة فلّ ساعدها .

وتبقى الامبريالية ومعاضدتها لاسرائيل ، متخذةً منها مخلب قط تظلّ تنهب البلدان العربية بفضل تهديدها به وتحريكه بين الفينة والأخرى ؛ وليست هذه الامبريالية في ميزان العصر الحاضر بأشد نكراً ممـا كانت عليه مصالح الدول الاوروبية المعادية لتينك الوحدتين . هذا إلى ان الوحدة العربية لهي في ذاتها من مسار التاريخ ، بينما الامبريالية ضد ذلك المسار ، ممـا يضمن لتلك الوحدة مساعفة وتأييداً حتمياً من أكثرية شعوب الأرض .

ان الوحدة العربية قادمة ، وقادمة قريباً ، رغم جميع العقبات .. فويل لمن تعميه مصلحته الموقتة من أبنائها عن الحق ، وويل أكثر لمن

يقف في طريقها ، معاداةً للخير ، من غير أبنائها ..

هذا مجمل ما يراه المؤرخ ارنولد توينبي في كتابه « الوحدة العربيةآتية » وما دفعنا إلى ترجمة الكتاب وإيراد بعض التعليقات عليه ، وقد آثرت أن اورد النصّ ، ثم أشير إلى مخالفته الرأي أحياناً ، وهـــذا حقّ مقدّس لا يجوز ان يُغمط للمؤلف ولا للمترجم .

المترجم

مقدمة

يَعرض هـــذا الكتاب بعض الانطباعات التي خلّفتها تلك الزيارات الثلاث التي قمت بها للاقطار الافريقية : الجمهورية العربيـــة المتحدة من الثاني حتى الثاني والعشرين من شهر ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩٦١ ، ومراكش بين السادس والثالث عشر من ابريل (نيسان) سنة ١٩٦٢ ، ونيجيريا والسودان والجمهورية العربية المتحدة والمملكة الليبيّة بين التاسع عشر من فبراير (شباط) والثاني والعشرين مـــن ابريل (نيسان) سنة ١٩٦٤ . ولقد أتاحت لي هذه الزيارات ، كما أتاحت لزوجتي ، التعرف المباشر على تلك الأقطار الافريقية . والكتابُ يتلمس أن يتناول قضية الادعاءات المتنافسة في الوقت الحاضر بين « الزنجيّة » و « العروبة » ؛ وهي قضية قد تلعب دوراً مهماً في الشؤون العالمية في المستقبل . ولقد أنشأت معظم المقالات المنشورة في هـــذا الكتاب في الأصل لنشرها في زاوية الأخبار من مجلة « اوبزيرفر » . وكان لزوجتي الفضل في إعـــداد فهارس الكتاب ، شأنها في مختلف كتبي الأخرى .

ا. ج. توينبي

محتويات الكتاب

فهرست الصور

الخرائط

هناك افريقتان ! [١]

افريقيا قارة مزدوجة

تبدو افريقيا حين ينظرها المرء على مصوّر جغرافي للكرة الأرضية قارةً واضحة المعالم متماسكة الأطراف . فهي منفصلة عن بقية اليابسة من جميع الجهات بالماء الملح ، وقد انقطع ذلك الحبل الدقيق الذي كان يصل ما بينها وبين آسيا ، بعد ان تم حفر قناة السويس . وهكذا فأفريقيا الآن جزيرة في حجم قاري[٢] يطيف بها البحر من جميع الأطراف .

إذا ما نظر المرء إلى هذه الصورة المبسّطة لتلك القارة ، ثم تذكر ان أقطارها جميعاً — عدا ليبريا — قد ظلت إلى فترة قريبة ، خاضعةً للحكم الأوروبي ، تبدو له « روح التعصب لافريقيا » ردّ فعلٍ سياسيّ حتمي لتلك المعاناة التي شملت افريقيا عموماً .

بيد أن هذه النظرة السطحية غير كافية البتة . أنعِم النظر في الخارطة من جديد ، ثم حاول أن تضع عليها المظاهر الانسانية البارزة . انك لن تكاد تعيّن الطرق البحرية ، والصحارى ، والهضاب ، ومناطق المستنقعات والغابات ، حتى تجد أنك قد اكتشفت حقيقة جديدة ، فالبحران ، الاحمر والمتوسط ، لا يعزلان شمال افريقيا عن اوروبا وآسيا ..

---

(١) مثنى افريقيا ، أو افريقية ، وخشية اللبس مع « افريقيتان » لمثنى المؤنث المنسوب .

(٢) هذه مساحة القارات وما فيها من المسطحات المائية الداخلية ، بالوف الأميال المربعة اوروبا ١٩٠٣ ، افريقيا ١١٨٠٦ ، آسيا ١٠٨٩١ ، امريكا الشمالية والوسطى ٩٣٥٥ ، اميركا الجنوبية ٦٨٥٥ ، استراليا ٣٣٠٣ ، أما الاتحاد السوفياتي وحده فهو ٨٠٦٤٥ الف ميل مربع .

على النقيض من ذلك ، انهما يُلحِمان هذه القارة إلى شقيقتيها المجاورتين .

وكذلك ستكتشف ان القارة التي تبدو كتلة متماسكة الأطراف لهي مصدوعة إلى شقين : انها افريقتان متميزتان ، تحجز واحدتها عن الأخرى تلك الصحراءُ الشاسعة التي يسمّونها الصحراء الكبرى ، وصحراءُ ليبيا ، وهضبة الحبشة من جانب ؛ ثم تأتي الغابات الاستوائية الغزيرة الأمطار في غرب افريقيا ومستنقعاتُ النيل الأعلى كحاجز ثانٍ جنوب الحاجز الأول من الجانب الآخر .

ويمكن القول ان ثلث افريقيا الشمالي لهو أوثق ارتباطاً بآسيا واوروبا ، وأقرب صلةً ، منه بثلثي القارة الجنوبيّين ، مع ان الجميع في قارة واحدة يُفترض أن تكون متماسكة لا تقبل التجزئة .

ولا يبدو هذا الانفصام التضاريسي في افريقيا مسألة سياسية حادّة في الشؤون الافريقية ، في الوقت الحاضر . ذلك ان سكان الافريقتين ، الثلث الشمالي والثلثين الجنوبيين ، لا يزالون تشدّهم إلى بعضهم قضية واحدة . ألا وهي قضية التحرر من مخلّفات حكامهم الاوروبيين[1] السابقين . ولا تزال هذه القضية حادة في الأقطار التي تضم أقليات اوروبية مستوطنة[2] بصورة خاصة .

ومهما كان الحال ، فنحن نجد في معظم الأقطار الواقعة على كلا جانبي الخط الفاصل بين الافريقتين ، ان الاوروبيين في طريقهم إلى الخروج . هذا ما يتضح لكل مراقب حصيف[3] . وحين يختفي هؤلاء من على المسرح الافريقي ، يومذاك سيجد الافريقيون ، الشماليون والجنوبيون ، انفسهم قبالة بعضهم البعض . في ذلك العهد – وهو قريب الآن – ربما

---

(١) وهي التفرقة العنصرية والجهل والتأخر الاقتصادي المريع وعدم وجود كوادر من التقنيين الاداريين الأكفاء ، ثم مجموعات العقد السياسية .

(٢) مثل روديسيا الجنوبية وجنوب افريقيا وانغولا وموزمبيق .

(٣) وهو ايضاً ما لا يريد عنصريو افريقيا ان يفهموه .

غدا وجود افريقتين مشكلة خطيرة ، ما لم تجرِ معالجة القضية بحكمة زائدة وبُعد نظر صائب ، وبخاصة في اقطار مثل : نيجريا[١] والسودان — اللتين تعانيان آثار وجود ذلك الحجاب الحاجز في القارة الواحدة .

وحتى في هذه الأيام ، فنحن نجد معاهد مخصصة للدراسات الافريقية في جامعات جنوبي نيجريا ، وقد يُسأل الزائر الغربي[٢] لهذه المعاهد عن رأيه في الدور الذي لعبته افريقيا في التاريخ الانساني . حينذاك لا يجد المسؤول من السهل عليه اعطاء رأي يرضى به محدّثه الزنجي[٣] الافريقي. انه قد يقول :

« حسناً ، ألم تقم مصر بدور قيادي في التاريخ منذ فجر الحضارة ؟ إذا لم تكن هي أول موطن ظهرت فيه حضارة الانسان في التاريخ القديم ، فهي لا شك الموطن الثاني . وإذا كان العراق قد سبق مصر ، فإنما سبقها ببضعة قرون على الأكثر » .

ان الصورة التي تقوم في ذهن الزائر الاوروبي للعالم وتاريخه ، إنما تعتبر مصر بلداً افريقياً . هذا أمر طبيعي ؛ لكنه ليس كما تبدو الأشياء للافريقيين القاطنين جنوب الغابات الاستوائية الماطرة .

والواقع ان الزائر الغربي الذي اعتبر مصر بلداً افريقياً عن حسن نيّة فيه ، وقدّر لها أنها ساهمت مساهمة افريقية رئيسية في التاريخ الانساني — انما يبدو في نظر الزنجي الافريقي متّهماً بتحبيذ « الفرضيّة الحاميّة »[٤].

---

(١) شجع الاستعمار نشوب حرب أهلية في نيجريا ، وقام انفصال حكومة بيافرا بفضل الأسلحة البرتغالية المورد والأمريكية الصنع ، وبفضل الامدادات الجوية الأمريكية الغزيرة .

(٢) يقصد الأوروبي .

(٣) Negro : ان زنجي هنا لا تتضمن أي مدلول للاحتقار كما هي الحال في امريكا الشمالية وإنما تعني مجرد الدلالة على العرق .

(٤) يحسن مراجعة كتاب « تاريخ افريقيا — جنوب الصحراء » تأليف دونالد ويدنر ، ترجمة الدكتور راشد البراوي ص ١٨ — ٢٠ .

وهي مقولة ترى ان حضارة افريقيا الزنجية مدينة بشيء ما إلى التأثيرات التي أشعّتها مصر وبلدان شمال افريقيا الاخرى . وليست هذه المقولة ، في نظر المثقفين من الافريقيين الزنوج الحريصين على عرقيّتهم[١]، إلا نوعاً من الكفر والزندقة . ذلك انها تخالف قاعدتين أساسيتين في ايديولوجية الزنجي الافريقي المعاصر . أما إحدى هاتين القاعدتين فهي ان افريقيا الزنجية لهي وحدها افريقيا الأصيلة . وأما الثانية فهي ان الحضارات الزنجية الافريقيّة هي ابداع مستقل تماماً عن غيره ، ومن خَلق الشعوب الزنجية الافريقية وحدها .. فإذا كان هنالك انتقال حضاري بين الافريقتين ، فهو لا شك من افريقيا الزنجية إلى مصر لا العكس من ذلك .

و « الفرضية الحامية » مقيتة في نظر الزنوج الافريقيين ، أما « الفرضية السامية »[٢] والاخرى « الهند – اوروبية » فهم يهملونها أصلاً ، ويفترضون أن فيهما من التفاهة والمقت ما لا يجيز لهم حتى مجرد ذكرهما .

ولست اذيع سراً حين أقول : في أفنية جامعات افريقيا الزنجية ، يجري التشديد على اساس استقلال زنجية افريقيا واصالتها ، كما يتم شحنه بالعاطفة . وتنحصر النتيجة المترتبة عن ذلك في مظهر اكاديمي في الوقت الحاضر ، لكنها تهدد بالتحول إلى مشكلة سياسية في كل من نيجريا والسودان عما قريب . هذا كما ان ما أعرفه يسمح لي بالقول ان الأمر على هذه الصورة في بعض المستعمرات الفرنسية السابقة في غرب افريقيا.

* *

تقع نيجريا الشمالية إلى الجنوب من الصحراء الكبرى ، لكنها شمال نطاق الغابات . ومع ان الغالبية العظمى من سكانها زنوج افريقيون ، فإن الدين السائد بينهم هو الاسلام ، كما ان الثقافة الاسلامية هي المسيطرة عندهم . والحق ان في هذا الاقليم قدراً كافياً من العناصر

(١) أي تعصبهم للزنجية .

(٢) راجع « الفرضية الحامية » في المصدر السابق .

الأسيوية. والشمال – افريقية ، سواء من حيث تكوينه العرقي أو الثقافي ، بحيث يولد توتراً بين شمال نيجريا وجنوبها ، حيث السكان زنوج محض من حيث العرق ، ومسيحيون غربيون من حيث الثقافة والمعتقد .

والأمر في السودان من هذا القبيل ؛ فهنا أيضاً نجد الشمال العربي في عرقه والمسلم في دينه يواجه الجنوب ، حيث يتركز العرق الزنجي وتسود المسيحية . غير أن نسبة القوة التقريبية في السودان لهي على النقيض من مناظرتها في نيجريا . ففي الأخيرة نرى الجنوب الوثني والمسيحي قد قطع شوطاً إلى الامام ، سابقاً بذلك الشمالَ الوثني والمسلم ، في طريق الدخول إلى صرح الحياة الحديثة . أما في السودان ، فالأمر بخلاف ذلك ، ان الشمال العربي المسلم هو الذي ظفر على الجنوب الوثني والمسيحي . ويمكن تفسير التغاير في ميزان القوى في البلدين بالرجوع إلى التجربة التاريخية لكل من نيجريا والسودان في الأزمنة الحديثة .

ولنبدأ بنيجريا :

ان نيجريا الاسلامية محافِظة ومتخلفة لأن الحكم البريطاني فيها قد لجأ في سياسته إلى اصطناع طريقة الحكم غير المباشرة ، مستخدماً النظام الفولاني [١] الذي وجده قائماً في البلاد . كانت معارضة أمراء الفولاني لفرض ادارة محميةٍ بريطانية [٢] على البلاد ، معارضةً تعوزها الحماسة . إنهم لم يقاوموا ذلك بعناد صلب . وهكذا وجد البريطانيون ان انتهاجهم خطة مواجهة أقلّ مقاومة يقضي بابقاء أمراء الفولاني في مناصبهم وتثبيتهم فيها من جديد ، ثم استخدامهم كأدوات لحكم البلاد .

---

(١) نظام الادارة القبلية بزعامة امراء هبطوا على نيجريا من جهة الشمال الغربي. وهم مسلمون، وقد استطاعوا السيطرة على شمال نيجريا خلال القرن التاسع عشر .

(٢) الواقع ان الفرق بين «المحمية» و«المستعمرة» ضئيل جداً في عرف الاستعمار البريطاني.. لكن نظام الحماية أقل تكلفة وأسهل قياداً .

هذا في نيجريا .

أما في السودان فقد جوبه البريطانيون بقوة اسلامية واسعة الانتشار في صورة الدعوة المهدية [١] . يومذاك ما كان خلفـــاء المهدي محمد احمد يرتضون ان يغدوا وكلاء قوة غير اسلامية في الحكم ، وما كان الفاتحون البريطانيون يفكرون في تقديم هذا الخيار لهم . لذا نجد البريطانيين يحطمون نظام المهدي أصلاً وفرعاً ؛ باسم حكم ثنائي مشترك بين مصر وبريطانيا ، وان أقاموا حكماً بريطانياً مباشراً في الواقع . ومن ثم أسسوا كليـــة « غوردون » [٢] لتقديم ثقافة عصرية لمثقفي شباب الجيل السوداني الناشىء .

وهكذا خطا السودان الشمالي المسلم إلى الأمام بينا ظل الشمال النيجري المسلم يعدّ الوقت .

ليس هذا فحسب ، بل إنه حتى تاريخ الجنوب غير المسلم يختلف في القطرين المعنيّين . ففي جنوب نيجريا نجد سكان المجتمعات المحلية ذوي ثقافة وحضارة فطرية خاصة بهم . وقبل موعد استقلال البلاد كانت البعثات التبشيرية [٣] المسيحية ، جالبةً معها الثقافة المعاصرة ، قد سلخت قرابة قرن كامل وهي ناشطة في العمل بين ظهرانيهم . لذا دخل جنوب نيجريا عهد الاستقلال وهو مزوّد بجيلين أو ثلاثة من المعلمين العصريّي الثقافة ، والأطبــاء ، والمحامين .. — كافين لأن يمنحوا البلاد بداية طيبة في الحياة الحديثة . ومغايراً لذلك ، ظلت مجتمعات جنوب السودان الوثنية أكثر المجتمعات بدائية في افريقيا الزنجية ، ثم حان موعد الاستقلال ولما يمض أكثر من ربع قرن على عمل البعثات التبشيرية في البلاد . نعم ، ان ثمة طبقة من المثقفين المسيحيين في جنوب السودان في الوقت الحاضر . لكنها لا

---

(١) الدعوة وتاريخها معروف ، لكن السمة الجديرة بالملاحظة هنا انهـــا كانت ألد أعداء الاستعمار البريطاني في أفريقيا أول الأمر ، ثم تغير الحال بعد ذلك .

(٢) هي جامعة الخرطوم الحالية وقد تغير اسمها بعد الاستقلال .

(٣) راجع كتاباً بهذا الاسم للدكتور عمر فروخ .

يمكن أن تُقارَن بالطبقة المثقفة في جنوب نيجريا بحال من الأحوال ، لا من حيث النسبة العددية إلى المجموع ، ولا من حيث درجة النضوج أيضاً . لقد أدرك الاستقلال [1] جنوبَ السودان والأقليم غير مستعد له . لذلك فإن هذا الاستقلال عنى أكثر مـا عنى سيادة الشمال العربي المسلم في القطر بأكمله .

هذا كما أن عدم التناظر في مستوى الحضارة في السودان ، بين شمال وجنوب منطقة المستنقعات في أعالي النيل ، كان ولا يزال عظيماً جداً . فحين فتح البريطانيون الجنوبَ وأخضعوه لادارة منظمة ، ادركوا أن من واجبهم حماية سكانه البدائيين من استغلال الغرباء عن المنطقة . وأدى بهم هذا التفكير إلى إغلاق الجنوب ومنْع تسرّب العناصر السودانيـة الشمالية اليه .. صحيح أن اغلاقه في وجه التجار الشماليين كان عملاً له ما يبرره [2] دون ريب — وفي مراحل تطور الجنوب المبكـــرة على الأقل — بيد أن البريطانيين أغلقوا الأقليم أيضاً في وجه البعثات الاسلامية ، في حين فتحوا الباب على مصراعيه لنشاطات البعثات التبشيرية المسيحية ! وهذا تمييز صارخ ضد دين الشمال ، ولمصلحة المعتقَد البريطاني . وهو يبدو الآن عملاً غير منصف ولا صائب ، اما عند اعادة النظر فيه ، فهو عمل غير حصيف سياسياً على الأقل . أما ترتبت عليه اثارة نقمة السودان [3] الشمالي بصورة حتمية ؟ بلى ، انه هو المسؤول الآن عن العلاقات غير السعيدة بين الجزء العربي المسلم والآخر الوثني والمسيحي الزنجي ، من القطر الواحد .

---

(١) استقل السودان سنة ١٩٥٤ .

(٢) هل كان تسهيل نهب الشركات البريطانية لثروة الاقليم تبريراً كافياً ؟

(٣) ان التغرض على الدين الاسلامي ايام الحكم البريطاني ليس هو السبب في اثارة النقمة ، بل دسائس المستعمرين لتجريد السودان من أغنى ثرواته الاقتصادية ثم الاستحواذ عليها، هي السبب المباشر . وليس هنالك نقمة في الواقع بل دفاع عن وحدة التراب وإبعاد للتدخل الخارجي.

ان أبناء شمال السودان هم السادة الآن في الجنوب ، كما أنهم سادة الشمال أيضاً ، وهكذا نراهم يحاولون التعويض عما فاتهم في العهد السابق. لذا نجدهم يحاولون تمثّل [1] السودانيين الجنوبيين وجعلهم شماليـــين في أسلوب حياتهم ، وهذا مــا لم يكن يُسمح لهم أن يفعلوه أيام الحكم البريطاني قبل الاستقلال .

اذن هناك ردّ فعل شمالي الآن . وهو أمر طبيعي كان ينبغي توقعه . لكنه خاطىء لا ريب في ذلك ، ومن الناحية السياسية والأخلاقية على السواء . فمهما كان الجنوب متأخراً ، فانه يظل يمكن القول أن فيـــه من القيادة المثقفة قدراً كافياً تماماً لمقاومة ذلك الاتجاه ؛ واذا ما قُدّر لهذه المقاومة [2] ان تنتشر ويتسع نطاقهـا ، فان نشاط هذه المقاومة سيجد في اتساع الأقليم وتوحّشه حليفاً مخيفاً يصعب تحدّيه . أما إخضاع تلك القيـــادة ، ثم السيطرة على الأقليم عن طريق القوة ، فلن يكون في مقدور الشمال دون ريب ، كما أن الأمر حينذاك لن يجد ما يبرره من ناحية خلقية . أليس للسودانيين الجنوبيين ، شأن الشماليين ، نفس الحق المعنوي [3] في اختيار طريقة العيش التي يودون أن يسلكوها ؟!

لا شك أن الشماليين سيردّون بأن السودان ، شماله وجنوبــه ، هو وحدة واحدة . غير أنه ليس وحدة في الواقع حتى الآن ؛ وإنما يُستطاع جعله وحدةً بالرضى المتبادل بين طرفيه ، وعن طريق الأخــذ

---

(١) لا نظن المؤلف الكبير متأكداً من هذا القول .

(٢) هنا، وفي عبارات أخرى حين يتحدث المؤلف عن جنوب السودان ، نلمح تحريضاً مبطناً على تأريث العداوات في ذلك القطر ، ويمكن أن يكون ذلك تكشفاً لا واعيــاً عن مطامح بريطانية للاستغلال ، وتعصب ديني مكبوت .

(٣) أترى الولايات المتحدة لاحظت مثل هذا الحق في فيتنام أو اعتبرته حكومة المؤلف في روديسيا وجنوب افريقيا وبقية مستعمراتها السابقة ؟!

والعطاء [1] مــن كل من الجانبين . وليس ينبغي ان يجبَر الجنوبيون على البقاء ضمن السودان ككلٍ ، إلا برضاهم وموافقتهم الحرة على ذلك ، وعلى أساس المساواة المطلقة باخوانهم الشماليين أيضاً .

* * *

ان مشكلة وجود « سودانَين » لهي مشكلة « أفريقتين » بذاتها في الواقع ، وإن جاءت صورة مصغرة منها ؛ ولذا فإن السودان يملك في يديه مصير افريقيا قاطبة ، كما يملك مصيره هو . فإذا استطاع النجاح في تأليف عنصرَي سكانه أنفسهم ، يكون بذلك قد انجز مهمة طليعية رائدة وبناءة تنسج على منوالها افريقيا بأكملها . أما إذا تحول الصدام فيه إلى صراع حادّ ومزمن ، فإن ذلك سيخلق توتراً بين الأفريقتين في جميع القارة . كما يغدو جنوب السودان ، عاجلاً أو آجلاً ، بؤرة تستقطب نقمة أفريقيا الزنجية اللاحقة على أفريقيا الشمالية . وإذا ما قدّر للأمور أن تسلك هذا الطريق ، فان صدع افريقيا إذ ذاك سيغدو عصيّاً على المعالجة .

ان من قدَر السودانيين [2] الشماليين ان يتحملوا عبئــاً ثقيلاً من المسؤولية .. فدعنا نأمل أن يكونوا كفؤاً للقيام بتلك المهمة .

---

(١) وهذا ممكن لولا تدخل الأصابع الاستعمارية الشريرة ،سواء عنطريق قطعان المبشرين أو المساعدات المادية المبذولة بغية ادامة عدم الاستقرار .

(٢) نحن نعتقد انهم أكفاء لذلك لولا تدخل الاستعمار البريطاني ، والتضليل التبشيري الأعمى في تعصبه ، والمساعدات التي تقدمها الحبشة بايعاز من اميركا وعون مادي من اسرائيل مركزه الشركات الاسرائيلية القائمة في الحبشة على حدود السودان .

مراكش تنطلق قُدماً

ان المدّ الحضاري في أوجه في مراكش[1] الآن . والمغاربة شعب نشيط سريع التقبّل كما أنهم محظوظون ببلد وهبته الطبيعة موارد مادية سخيّة للغاية . ففي السهول ، تملك البلاد وفرة من الأراضي الزراعية من الدرجة الاولى (حتى ليبدو ان اسبانيا هزيلة عند المقارنة بها ، حين يطير المرء بين باريس والرباط) ؛ وفي جبال مراكش وفرة من الغابات والمعادن . وكل هذه منح طبيعية قد يُنظر اليها بغيرة وحسد من قِبل الامم الأخرى التي تخطو عتبه عالم العصر الحديث ، مع مراكش . ذلك أنه يتضاعف عسر التغلّب على التخلف حين تزداد وطأته بوجود الفقر[2].

والحقيقة السابقة تدفع إلى التساؤل عن السبب الذي جعل بلداً ذات موارد غنية كمراكش تتأخر نسبياً في تحقيق ذاتها وادراك حقيقتها . والاجابة عن هذا السؤال ذات صلة بالجغرافيا . فمراكش ، شأن الجزر البريطانية واسكندينافيا ، إنما تقع على حاشية « العالم القديم » . ولما كان يبدو ان الحضارة قد ظهرت أول ما ظهرت في جنوب غربي آسيا[3] ومصر ، فانه من الطبيعي ان تكون قد احتاجت وقتاً أطول كي تقيم لنفسها كياناً ما في الحواشي القصيّة عن موطنها الأصلي .

---

(١) مساحتها دون موريتانيا ١٨٠٠٠٠ ميل مربع، وعدد سكانها ١١٫٩٩٠٠٠٠ وعاصمتها الرباط ويقطنها ٢٣٠٠٠٠ نسمة ، احصاء ١٩٦١ .

(٢) كما هي الحال في الهند التي أفقرها طول الاستعمار البريطاني من ١٦٠٣ - ١٩٤٨ ، وكذلك أندونيسيا والاستعمار الهولندي .

(٣) ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) .

والمراكشيون يطلقون على بلدهم اسم « المغرب »[1] في لغتهم العربية ، وذلك لمجرد تمييزه عن جارتيـــه الواقعتين في « الغرب » أيضاً ، لكن إلى شرقه ، وهما الجزائر وتونس . لقد كانت مراكشُ ، كبريطانيا في أيامها السالفات ، « ولاية قصيّة » في عهـد الرومان ، فاعتُبرت الحـد الأقصى للعالم المتحضّر آنذاك .

هــذا ما أحسست به وأنا أقف على آثار موقع مدينة « فوليوبوليس » الرومانية هناك . لقد بدت « فوليوبوليس » مدينة رائعة ؛ حتى في الآثار المهدمة . فمنازل أهليها الغابرين بأفنيتها وأعمدتها وفسيفسائها ، لهي نـدّ لقوس النصر ، والباسيليكا ، والأبنية العامة الفخمة الأخرى .

ترى من كانوا أرباب هذه البيوت الجميلة ؟

آه ! لقد كانت تخص كبار ملاك الأراضي في تلك الايام . ومن الهدب الذي كانت تقوم عليه « فوليوبوليس » ينظر المرء حتى اليوم إلى الحقول والجنائن ، الخصيبة كحقول فرنسا وجنائنها ، التي تمتد باتجـاه الجنوب والجنوب الغربي حوالي ٢٠٠ ميل تقريبـــاً قبل ان تتداخل في البرية وتتلاشى فيها .

أهذه هي المروج المنبسطة التي تفسّر قيام تلك البيوت ؟ هذا مـــا يُخَيّل للزائر الجاهل حين يفكر لنفسه . بيد أن تخيُّله سيتداعى على الفور لو طاف حول « فوليوبوليس » برفقة أحد الآثاريين الفرنسيين القائمين بالعمل هناك . فقد كانت « فوليوبوليس » في الوضع نفسه الذي كانت فيه أية مدينة رومانيــة في بريطانيا ، ضمن حدود السور الروماني[2] . كيف لا وإلى

---

(١) المغرب الأقصى .. والمغرب الأدنى ، هذا ما استعمله الجغرافيون والرحالة والمصنفون العرب عند الاشارة إلى أقطار شمال افريقية الثلاثة .

(٢) مجموعة من الحصون بناها الرومان في أواسط انكلترا لتكون حاجزاً بـــين ممتلكاتهم وقبائل السلت .

الجنوب منها بضعة أميال ، على طول النجد المحاذي لها من الأرض ، كان الحد الجنوبي الغربي للامبراطورية الرومانية معلّماً تماماً بسلسلة مماثلة من الحصون . وفيما وراء تلك الحصون ظلت السهول ارضاً عـذراء طوال القرون التي ازدهرت فيهـا « فوليوبوليس » الرومانية . كانت هذه السهول منطقة لا تنازَع فيها سيادة القبائل الرعوية البدائية . وكانت المدنيـة تتوقف خارج الحدود الرومانية العسكرية ، فليس هنالك أي أثر لنفوذ الثقافـة الرومانية في المنطقة التي تشمل مدينة مراكش القروسطية[1] المزدهرة ، ولا كازبلانكا الحديثة الصاخبة ، في الوقت الحاضر . إذن كانت بيوت « فوليوبوليس » الجميلةُ إنما تشيّد وينفَق عليها من ريع الأراضي الزراعية في منطقة ضيقة من الجوار القريب .

وحتى «فوليوبوليس» نفسها . .هناك من يعتقد ان السلطات الحربية الرومانية اعتبرتها نهاية قصوى لمجال « الحد العلمي »[2] الذي خـطّطته في الأصل . ذلك ان اغراض الرومـان في مراكش كانت أغراضاً سلبية . ألم يكن هدفهم الأصيل هو الاحتفاظ بأقل قـدر ممكن من الأرض المراكشية يخدم لوقاء اسبانيا الرومانية ضد إغارات البرابرة[3] المنطلقين من العدوة الافريقية وراء مضيق جبل طارق ؟ وكان وادي نهر شيبو ، الذي يجري باتجاه الغرب إلى المحيط الأطلسي ويصب بين « فوليوبوليس » والمضيق ، خطاً واحداً ملائماً لهذا الغرض .

ولربما كان تقدّم الرومان ما وراء مسيل النهر إلى فوليوبوليس قد تمّ بعد طلب من سكان « فيوليوبوليس » نفسها . فقبل ان تُضم المدينةُ إلى

---

(١) ما بعد الموحدين والمرابطين وحتى القرن السادس عشر .

(٢) الحد الرسمي الذي يطبق فيه القانون الروماني وتحميه الحصون .

(٣) البربر الذين عرفهم المسلمون عهد الفتح ثم نشروا الاسلام في اسبانيا بالهجرة اليها .

الامبراطورية الرومانية وتُلحَق بها ، كانت قد غدت جزيرة حضارية في بحر من البرابرة . كانت التأثيرات الفينيقية [١] قد حملت الحضارة إلى تلك المدينة، ثم عقبتها التأثيرات الاغريقية [٢] . ومن الجائز أن تكون عريضةً قدمتها « فوليوبوليس » إلى روما كي تتدخل لانقاذ الحضارة هي المغناطيس الذي جذب الرومان جنوباً حتى هذا القدر في مراكش ، وأكثر مما كانوا يريدون حقاً . هذا رغم ان « فوليوبوليس » قامت على حاشية أغنى الأراضي المراكشية .

كان وضع« فوليوبوليس » الرومانية مكشوفاً لدرجة خطيرة وداعياً إلى الحذر والحيطة ، فالثروات التي نمّتها المدينة في ظل ادارة الموظفين الماليين الرومان كانت اغراءً قائماً للبرابرة المجاورين . اما في نظر الامبراطورية الرومانية فقد كانت المنعة الحربية ترجح كفة المورد الاقتصادي في الاعتبار .

ولقد اجتيحت « فوليوبوليس » في احدى المرات ، لكنها استعيدت واعيد انشاؤها . أما في المرة التالية فقد انسحب منها الجيش الروماني ، كما كان عليه أن ينسحب من بريطانيا ، تاركاً اياها وحيدة لتصارع بقاءها . كان هذا تحدياً جديداً ، وفي مقابلته استطاع المغاربة المتحضرون[٣]، ان يحرزوا نجاحاً أكبر من معاصريهم البريطانيين المتحضرين . لقد استطاعوا ان يُبقوا اللغة اللاتينية والديانة المسيحية حيّتين طوال الخمسة قرون التالية ، ثم أعاد التاريخ نفسه من جديد ...

قبيل نهاية القرن الثامن من الفترة المسيحية ، لاحت في أفق « فوليوبوليس» الشرقي قوة متحضرة جديدة – ليست رومانية الآن . ومرة ثانية ، لم يرفض القادمون التماس انقاذ الحضارة . كان المنقذ الجديد الآن هو

---

(١) بفضل قرطجنة في تونس وقادس في اسبانيا والمستعمرات الفينيقية الأخرى في صقلية وجنوب فرنسا مثل تورنتو وماسيليا (مرسيليا) .

(٢) في المرحلة المتأخرة من عهد الاستعمار اليوناني لغرب البحر المتوسط ، وخاصة في Magna Graecia .

(٣) يقصد أهل فوليوبوليس آنذاك .

سيدي ادريس [١] ، أحد أحفاد عترة « محمـــد » ، الذي هاجر إلى « المغرب الأقصى » علّه يكون بمنجاة من متناول خصمه ، خليفـــة بغداد العباسي .

ولقد رحب أهل « فوليوبوليس » بسيدي إدريس بحرارة ، وأقام بين ظهرانيهم . وكان ولده [٢] هو الذي أسس مدينة فاس ؛ فكان ذلك نهاية مدينة « فوليوبوليس » وبداية عهد مدينة مراكش .

والحق ان انتشار الحضارة الذي اتجـــه من طرف مراكش الشمالي جنوباً لهو في الواقع من عمل الاسلام ، ودعاتـــه العرب ، من عهد ادريس فيما بعد .

انهم هم الذين « زرعوا » المدنية في المروج المنبسطة مـــا وراء فوليوبوليس ، تلك المروج العذراء التي تركهـا الرومان لم يمسّوها ؛ كما ان اندفاع الحضارة العربية الاسلامية لم يقع أسير حاجز جبال أطلس [٣]. وعلى يديهم زحفت المدنية جنوباً إلى السنغال ، ثم تخطت ذلك جنوباً إلى السودان الغربي . ثم على عهد جيلنا الحاضر أُدركت هـــذه الموجة الحضارية الاسلامية ، وتم تقويتها بالحضارة الغربية هناك . ان كلمـــة « تقويتها » لهي الكلمة المناسبة في هذا المقام ، إذ ان الشعب المراكشي قد تقبّل الحضارة الحديثة وهو الآن إنما يكيّفها ليجعلها حضارة يمتلكها

---

(١) هو ادريس بن عبد الله ، فر من موقعة « فخ » بين مكة والمدينـــة ، التي نشبت بين محمد بن سليمان بن علي قائد الخليفة موسى الهادي وبين العلويين الثائرين . وكان ادريس الرجـــل العلوي الثاني الذي نجا من المعركة فعبر مصر واستقر في مراكش . لكن الرشيد خشي التفاف البربر حول ادريس فأرسل سليمان بن جرير ليدس له السم وفعل .

(٢) هو ادريس الثاني . وكانت أمه حاملاً بـــه يوم وفاة أبيه . وهو المؤسس الحقيقي لدولة الأدارسة .

(٣) أي أن الحضارة الاسلامية اتجهت جنوباً إلى داخل مراكش. وفي العبارة اشارة بعيدة إلى ما قامت به جبال البرانس في جنوب فرنسا ، وجبال القفقاس في ارمينيا .

هو ، بعد ان نفض عن كاهله كامل السيطرة السياسية للبلد الغربي [١] الذي جلب له تلك الحضارة . وفي الرباط ، وفـــاس ، ومراكش يرى المرء الآن مدينة حديثة مزدهرة تقف جنب المدينة القديمة ؛ ويلاحظ أن أغلبية السكان والعمال في هذه المدن الجديدة ، كما في المدن القديمة ، هم الآن مراكشيون ، لا مستوطنون اوروبيون . أما في كازابلانكا [٢] فهناك مدينة جديدة فقط ، وهي أكبر حاضرة في مراكش الآن . انها مدينة يقطنها مليون انسان ، وقد قفزت في نصف القرن الاخير ، حتى ليمكنها بأحواض سفنها ومصانعها الحسنة التجهيز ان تصمد للمقارنة مع أي مدينة حديثة أخرى في العالم .

ان الاستعمار معاناة غير سارّة . هذا صحيح ، بيد أنه في حال معظم الأقطار ، بما في ذلك الاستثناءات النادرة كاليابان وتايلاند ، كان الاستعمار ثمناً للتدرّب ، كأجير ، في صنعة الحضارة . وقد مر الرومان أنفسهم بفترة من الخضوع للنظام الاستعماري الاترسكي [٣] ، ثم ان الرومان فالعرب فالفرنسيين ، فعلوا لمراكش ما قد فعله الاترسكيون للرومان ذات يوم ، وما فعله الرومان والنورمان [٤] لبريطانيا أيضاً . ويجد ضحايا الاستعمار من الصعب عليهم ان يعترفوا بأنهم هم أيضا كانوا من المنتفعين به ، بيد ان هذه هي الحقيقة . واليوم ، ها هو الاستعمار تجري تصفيته ، ومن طموح كل بلد تحرّر منه ان يغدو عضواً مستقلا ضمن مجتمع الامم الحديثة ، فهل

---

(١) استقلت مراكش سنة ١٩٥٦ بعد فرض حماية فرنسية دامت من ١٩١٢ -- ١٩٥٦ .

(٢) الدار البيضاء وعدد سكانها ٩٦٥،٠٠٠ (احصاء ١٩٦٢) .

(٣) الاترسكيون شعب لم يجزم المؤرخون في انهمن الشعوب الهنداوروبية كان يقطن اترووريا في ايطاليا وقد ظل زعماؤه يحكمون روما وسهل لاتيوم طوال العهد الملكي في روما ، حتى طرد بروتوس آخر ملوكهم تاركوينوس سنة ٥٠٩ ق.م وبدأ عهد الجمهورية في روما .

(٤) اشارة إلى وليم الفاتح ومعركة هاستنغز ١٠٦٦ ، ثم بدء تكون بريطانيـــا الحديثة بعد ذلك .

تُرانا جميعاً قادرين على اكتساب طريقة عيش مشتركة على نطاق العالم ؟ هل تستطيع الثقافة المشتركة القائمة خلق أُسرة واحدة من عامة الجنس البشري ؟ أبمقدورنا أن نطوّر هذا الشعور الأسَري إلى حد يسنّي له أن يقدم الأسس النفسية لتكوين حكومة عالمية ؟ وهل نستطيع أن ننشىء حكومة عالمية في الوقت المناسب ، فننقذ أنفسنا من اقتراف انتحار جماعي بأسلحتنا الذرية الجديدة ؟ هذه أسئلة تجابه كل شعب[1] من شعوب العالم الحاضر ، وكل « منا » يحاول أن يجد الاجابات عنها بأفضل طريقة متوفرة لديه . وفي هذه المحاولة المشتركة ، يبدو أن مراكش تقوم بقسطها بصورة حسنة ، إذ يمكن القول انها تقوم بعملية الانتقال بأقل قدر من الضغط والتوتر . ان أهلها نشيطون وقابلون للتكيّف ، وسهولها خصيبة ، ومناجمها وغاباتها غزيرة الانتاج . وهكذا يتضح الأمر : ان في يديها الادوات اللازمة ، وهي تستعملها فعلاً لانجاز مهمتها النبيلة .

(١) حقاً إنها تواجه الشعوب ، لكن معظم الحكومات لا تمثل مصالح شعوبها الحقيقية .. فهل تقلق لمصالح الانسانية ككل ؟ ان وجود الاستعمار الجديد وبقايا القديم لا ينم عن ذلك .

كانو

KANO

حين خطونا إلى حظير المؤذن على واحدة من مئذنتي المسجد في « كانو » تبدّت لنا المدينة مدينتين : واحدة داخل الأسوار يقطنها ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ، والأخرى ذات ١٩٠,٠٠٠ نسمة خارجها . تُرى أين سبق لي أن شاهدت مدينة من هذا الطراز ! واحدة ذات أسوار ضخمة من اللّبِن ، وحشود من الناس ، وحمير ، وأغنام ، ومعزى ناشطة في الحركة خلال طرقاتها الملتوية ومحلّة الأسواق فيها ؟ آه .. ان الحاضرة التي استدعتها « كانو » في ذهني لهي مدينة الرياض [١] ، عاصمة المملكة العربية السعودية . وليس من الغريب ان الجزيرة العربية قد أشعت نفوذها إلى افريقيا عبر السودان ، (وهو اسم جغرافي كان يستعمل قديماً في معناه العريض ، ليشمل كامل حزام الأرض الرعوية والفِلاحية ما بين الصحراء الليبيّة والصحراء الكبرى في الشمال ، ثم الحشائش الاستوائية وغابات افريقيا الوسطى في الجنوب) ؛ فمن السنغال [٢] إلى النيل ، ظل سكان السودان المسلم مثابرين على القيام بأداء فريضة الحج إلى مكّة ، وظل الافريقي الشديد الارتباط بأرضه يعود اليها حاملاً معه تأثير الجزيرة العربية .

على أن التأثير الأحدث للاسلام في شمال نيجريا لم يكن بفعل موجة

---

(١) مقر الملك والعاصمة الادارية ، وسكانها ١٥٠,٠٠٠ نسمة (١٩٦١) ثم مكة وهي العاصمة الاسمية وسكانها ٢٠٠,٠٠٠ نسمة (١٩٦١) ، أما مقر البعثات الدبلوماسية الأجنبية فهي جدة .

(٢) يقصد نهر السنغال .

من التسرب الثقافي الوافد من الجزيرة العربية ، كلا ، وإنما بفعل موجة من الفتح الحربي كان الغزاة فيها شعباً زنجياً رعوياً من الشمال الغربي ، هم « الفولاني » . عُد إلى القرن التاسع عشر ، في خلاله فرض هؤلاء الفولاني حكمهم وسيطرتهم على جميع شمال نيجريا عدا « بورنو »[١] ، الاقليم الأبعد إلى الشمال الشرقي من بقية الولايات في نيجريا الشمالية .

ويواجه البدو الرعاة الذين يقهرون شعباً مستقراً من الفلاحين والتجار في العادة أحد مصيرين : إما أن يُمتصوا ، أو يُطردوا قبل انقضاء وقت طويل . وكان أحد هذين المصيرين سيقدّر له أن يحدث مع امراء الفولاني في شمال نيجريا ، لولا أن تجمّد الوضع السياسي هناك عند بداية القرن الحاضر . وكان ذلك نتيجةً لتأسيس نظام محمية بريطانية فوق نظام الحكم الفولاني الجديد . هناك طُبّق نظام « Lugard » في الحكم غير المباشر ، وكان ما عناه ذلك النظام بصورة ضمنية تثبيتَ الحكم المحلي القائم ، بفضل السلطة البريطانية .. كان الحكم المحلي نظاماً من الطراز العتيق ، وكان الدين الوطني هو الاسلام ، وبذلك وُضع كابح مزدوج[٢] في وجه حقن شمالي نيجريا بالحضارة وادخالها إلى حظيرة الحياة الحديثة .

ان طريقة العيش الاسلامية لهي اسلوب حياةٍ عتيق واستيعابي معاً ، وهذا ما أدى إلى جعل المسلمين بطيئين في الاقرار بأن عليهم أن يتصالحوا مع العالم الحديث . وفي هذه الاثناء لم يكن المرتدون الدائبو التكاثر من الوثنية إلى النصرانية في جنوب نيجريا يجدون مثل هذه العوائق في طريقهم . كان جنوب نيجريا محجوزاً عن النظام الفولاني الرعوي البدوي بفضل الغابات وذبابة تسي تسي[٣] . فمواشي الفولاني وخيولهم تعجز عن اختراق الغابات ، وحتى لو استطاعوا أن يشقوا طريقهم اقتحاماً

(١) ولاية محاذية لبحيرة تشاد غرباً وهي مدوغوري في الوقت الحاضر.
(٢) أي أن الاسلام عائق عن الأخذ بالحضارة الحديثة كما يرى المؤلف .
(٣) حشرة تسبب مرض النوم ويتم أثناءه تسمم بطيء يؤدي إلى تحلل العضويات .

إلى هناك ، فإن الذبابة لن تبقي لهم تلك المواشي .

ومن جهة ثانية كان جنوب نيجريا مفتوح الأبواب لتلقي التأثيرات من وراء البحار ، إذ أنها تستطيع الوصول اليه عن طريق خلجانه ومصبات أنهاره[1] . وقد نتج مما سبق ، ان ظل مسلمو شمال نيجريا يظلعون وراء مسيحي جنوب البلاد في سباق الجماعتين للأخذ بالمدنية الحديثة ، تماماً مثلما حدث في شبه القارة الهندية .. حيث تخلف مسلمو باكستان عن هندوكية الهند . لقد خسر مسلمو شمال نيجريا نصف قرن من الزمن ، وليس من السهل تعويض مثل هذا السبق الخطير .

ان الاختلاف في شوط التطور بين الشمال والجنوب ، اثناء الحكم البريطاني في البلاد ، قد ولد نوعاً من التوتر في العلاقات بين جزئي نيجريا مذ نالت البلاد استقلالها . فالجنوب ينظر بعين الازدراء إلى التأخر النسبي الذي يراه في الشمال ، ولا يترفق في اظهار مشاعره بذلك . كما انه في نفس الوقت يخشى التفوق العددي[2] الهائل الذي يتمتع به الشمال . ويبدو صدق مخاوف الجنوب بهذا الصدد في الاخفاق المتتالي لإيجاد احصاء نيجري يقتنع به الجميع ويشهدون انه يقدم ارقاماً صحيحة عن تعداد المواطنين .

وقبال مخاوف الجنوب هذه يشعر الشمال بدوره خشية من الرقي النسبي للجنوب ، ذلك انه إذا كان الشمال طاغياً من حيث تعداد السكان ، فإن الجنوب طاغ نسبياً من جهة الصفوة المتعلمة فيه .

هذه هي المخاوف المتبادلة لدى الطرفين ، وهي التي تدفع كلا من شمال

---

(١) يقصد تشعبات نهر النيجر في الدلتا وهي ٦ مصبات . وليس هنالك نهر غيره . أما الخلجان فهما اثنان فقط : خليج هاركورت ، وخليج كالابار .

(٢) يبلغ عدد سكان نيجريا الاتحادية ٤٨ مليون (١٩٦٢) ، وقد أوردت مجلة « العربي » الكويتية رقماً للمسلمين في البلاد قدره ١٢ مليوناً .. وهذا غريب !!

البلاد وجنوبها إلى فصم عرى الوحدة النيجرية التي أقامتها بريطانيا ، دون النظر إلى المغارم التي سيدفعها كل من الطرفين ثمناً للانفصال . وأحد هذه المغارم هو فقدان نيجريا مركزها الحالي كالدولة الافريقية الزعيمة جنوب الصحراء الكبرى – وهو مركز تدين فيه لضخامة عدد سكانها [1] .

ومهما كانت أرقام الاحصاء النيجري الرسمية بعيدة عن الأرقام المضبوطة ، فالأكيد أن نيجريا تتمتع بوجود عدد من السكان فيها أكبر من أية دولة افريقية أخرى في ثلثي القارة الجنوبيين [2] . ولا شك في أن هذا الثمن السياسي للانفصال سيكون باهظاً ، غير أن الثمن الاقتصادي الذي سيدفعه الشمال في تلك الحال هو الأكثر فعّالية في الاعتبارات التي تبقيه ضمن الاتحاد الفدرالي النيجري .

حين تطل على مدينة « كانو » المسوّرة من الجنوب ، ترى مرتفعات قائمة وسط السهل المنبسط . انها مجموعة متصلة مما يبدو أهراماً على طرز عناقيد الاهرام في « نبط » [3] بشمال السودان . وحين تصلها تجد انها اهرام فعلاً ، لكنها من الأكياس المليئة بالفستق . ويجانب هذه الأكوام من الثروة الزراعية ، تطالعك أرصفة القُطر من حيث يُنقل الانتاج الزراعي لشمال نيجريا بالسكة الحديدية ثم يجري شحنه إلى السوق العالمي عَبْر موانىء جنوب نيجريا : « لاغوس » [4] و « بورت هاركورت ». فلو انفصل شمال نيجريا عن الاتحاد النيجري ، أيّ منفذ آخر تُراه سيجد لتسويق انتاجه يا ترى ؟ هذا ما يجعله يُفكر مرّتين حول نزعته في الخروج من الاتحاد . كما يجعل الجنوب بدوره يفكر مرّتين أيضاً ؛ إذ أن فستق

---

(١) راجع الصفحة السابقة .

(٢) أكبر دولتين في ثلثي افريقيا الجنوبيين هما جمهورية جنوب افريقيا ، ١٦ مليون (١٩٦٢) وجمهورية الكونغو (كينشاسا) ١٥ مليون (١٩٦٢) .

(٣) Napata ، عاصمة مملكة النوبة القديمة (اثيوبيا) .

(٤) عاصمة البلاد ، وسكانها ٤٠٠,٠٠٠ نسمة (١٩٦٢) .

الشمال وزيت نخيل الجنوب ، هما مصدر العملة الأجنبية التي تحتاج نيجريا بكاملها إلى ضمان توفيرها .

وإذا ظلت نيجريا متحدة ، كما هو الأمل والمنتظر لها ، هل سيستطيع الشمال اللحاق بالجنوب ؟ من المحتمل ان يتم ذلك ، فعلى الرغم من أن أقلية الفولاني في البلاد تبدو خصماً للتمدين الحديث ، فإن هؤلاء لا يعدون كونهم رداء خارجياً وقشرة رقيقة ؛ كما أن هذا الرداء قد أخذ يبلى وتبين خيوطه منذ زوال الحكم البريطاني عن البلاد . إن أغلبية سكان الشمال تتألف من تجار وفلاحين مستقرين ، وبمقدور تاجر « الهوسا » أن يتماسك ويحافظ على مركزه بين أشقائه الجنوبيين . ولا آتي بجديد حين أشير إلى أن هذه الأغلبية التي كانت مكبوحة في السابق ، آخذةٌ الآن في اطلاع زعماء الشمال الجدد . فالكثير من هؤلاء الزعماء قد بدأوا حياتهم كمعلمين — لا كمعلّمين في مدارس تحفيظ القرآن التقليدية ، وإنما كمعلمين في مدارس حديثة وكليات . وليس الهوسّي الذي تلقّى تعليماً حديثاً ، شأنه شأن فرد « اليوربا » و « الايبو » الذي درس في مدارس حديثة ، أقل كفاءة من غيره لأن يكون مواطناً في العالم الآخذ بالمدنية الحديثة .

هذا بينما أخذ امراء الفولاني يغدون حكاماً اسميين دون سلطة فعلية بأيديهم . ففي « كانو » ، في شباط (فبراير) ١٩٦٤ ، نُصّب أمير جديد ، وطوال الأسبوع المحدّد لاجراء حفلة التنصيب ، ظل الخيّالة يفدون على المدينة المسوّرة ، من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ليشتركوا في موكب الفرسان التقليدي ، على شرف ذلك الأمير . وكان هؤلاء الفرسان أشخاصاً جميلي المنظر ، وحين يجتمع الفان منهم يغدو الموكب الضخم لا شك منظراً جديراً بالرؤية . وحتى نحن في بريطانيا نهتم اهتماماً كبيراً في الحفاظ على أبهة الحفلات التقليدية ، مثل حفلة التتويج

وتسليم العلَم . على أن المتفرّج (المراقب) الأجنبي سيقع في خطأ كبير إذا خرج من مشاهدة الحفلة بانطباع مفاده أن ما رأى هو بداية ونهاية حياة بريطانيا في الأيام الحاضرة . إن قوة شمال نيجريا اليوم لا ينبغي أن تُقاس بكوكبات فرسانها من لابسي الزرد والممتطين خيولاً مطهمة سخية العِدد ، كلا ، وإنما تُقاس بحجم جبال الفستق المركومة ، والتي تنتظر خارج « كانو » ليتم تصديرها .

جنوب نيجريا
(نيجريا الجنوبية)

نيجريا الجنوبية موطن حار .. فهي تقع ضمن القطاع الغربي الافريقي من حزام الغابات الاستوائية الماطرة . أما بين الغابات والمحيط الأطلسي ، فتنتشر مستنقعات استوائية عظيمة . على ان نيجريا الجنوبية « دينمو » كبير للطاقة البشرية . كيف لا وأهلها ينتجون محاصيل زراعية يظل عليها الطلب في السوق العالمية كالكاكاو وزيت النخيل ؟! وتولد نساء جنوب نيجريا تاجرات بالفطرة . فكل امرأة تلقاها إنما تمتلك بسطة [1] في سوق محلية أو أخرى . وبعض هذه الأسواق كبيرة فعلاً . ها هي مدينة ابادان [2] « اليوربية » في المنطقة الغربية ؛ ان سكانها أكثر من سكان « ليدز » في بريطانيا ، بل لربما كانت المدينة في ضخامة « جلاسجو » الاسكتلندية . أما « اونيتشه » القائمة على النيجر الأدنى في المنطقة الغربية الوسطى ، فهي لا تنافس « ابادان » من حيث الحجم ، لكنها تبدو للزائر العابر متفوقة على أختها من حيث شدة النشاط التجاري فيهما .

وكأنما السوق المسقّفة الضخمة في « اونيتشه » غير كافية تماماً ، فهنالك سوق مكشوفة شاسعة المساحة بينها وبين ضفة نهر النيجر . ليس هذا فحسب بل ان على النهر نفسه ، وحتى الضفة تماماً ، حشداً من القوارب – البيوت ، يمتلكها الشماليون الذين يعيشون في قواربهم ويقومون بأشغالهم

---

(١) دكة تعرض عليها حوائج للبيع .

(٢) يبلغ سكانها ٦٠٠،٠٠٠ نسمة (١٩٦٢) .

التجارية في هذه السوق الكوزموبوليتانية العجيبة . ويبلغ عرض النيجر[1] عند « اونيتشه » مثل عرض النيل جنوب الخرطوم . ويتم في الوقت الحاضر بناء جسور على النهر جنوبي « اونيتشه » ، يشرف على العمل فيها ٢٤ رجلاً افرنسياً ، أخبرونا ان طول الجسر الذي يقيمونه الآن يبلغ ميلاً ونصف ميل . ولا عجب والحال هـذه في ان جغرافيّي الاغريق والرومان والعرب كانوا يعتقدون ان نهر النيجر لهو اتصال بالنيل نفسه في أعاليه .

وتغصّ مـدن نيجريا الجنوبية وقراها بالكنائس التي تمثل مختلف الطوائف المسيحية الغربية . فإلى جانب الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يجد المرء معظم الكنائس البروتستانتية البريطانية تثبت وجودها هناك . ومع ان هذه الكنائس قد أسستها البعثات التبشيرية الاوروبية ، فان ادارتها الآن في يد رجال الدين النيجريين . وهكذا ، وإلى حد بعيد ، تتم ادارة المدارس التبشيرية أيضاً .

والحق ان عدد المدارس العائدة لمختلف الطوائف المسيحية لهو مذهل للزائر الأجنبي . ففي ضواحي المدن ، حيث تتوفر هذه المدارس ، يجدها المرء منظومة ، واحدة لصق الأخرى ، بجانب الطرق الرئيسية ؛ وحـين يخلُص من واحدة من هذه الطرق ويَسلك درباً غير معبّدة تؤدي إلى منطقة الغابة ، هناك أيضاً يجد بعض هذه المدارس . والغابة النيجرية أشجارها ثمينة ، وهي كثيفة السكان ، ولا يفوق مستوى معـدل البيوت الزراعية هناك مثيلَه في نيجريا الشمالية فحسب ، بل يزيد عـن المعدل في مصر وتركيا أيضاً .

وعلاوة على المدارس التي أسسها اوروبيون ، والأخرى التي انشأتها

---

(١) طوله ٤٢٠٠ كيلومتر ، ومساحة حوضه ٢٫١٠٠٫٠٠٠ كم مربع ، ومنسوب مياهه ١٠ آلاف متر مكعب في الثانية .

الحكومة الاتحادية ، هناك مدارس خاصة أقامها النيجريون للتجـارة . فقد يتجمع عدد من القرى النيجرية معاً وتشترك في بناء مدرسة لذلك المجتمع المحلي . وها نحن أنفسنا نقصد مدرسة « اوكنغوو Okongwo » التذكارية الابتدائية — وهي مدرسة داخلية تتسع لحوالي ٣٠٠ طالب ، على حوالي عشرين ميلاً جنوب « اونيتشة » ، انشئت إحياء لذكرى مربٍّ نيجري مات في سن مبكرة أثناء زيارة له إلى الولايات المتحدة . وإنما كانت هذه المدرسة في برنامج جولتنا لأن أحد أنسبائنا يقـوم بالتدريس فيها .

ولقد وجدنا أنفسنا هناك في مجتمع كوزموبوليتاني إلى حد بعيد ، مثله مثل مجتمع « اونيتشه » ذاتها . فبينما كان أغلبية الأساتذة في هذه المدرسة نيجريين طبعاً ، كان مدير المدرسة هندياً مسيحياً من ولاية « كيرالا Kerala »[1] . أما الطبيب الذي يشرف على الناحية الصحية في المدرسة فهو باكستاني . هذا إلى عضو من أعضاء فريق السلام الأمريكي كان يدرّس في مدرسة ثانوية مجاورة حضر بدوره هناك .

وحين قمنا بجولتنا في الغـابة كان هدفنا أن نزور مدرسـة ثانوية للبنات فيها معلمة انكليزيـة وأخرى زنجية أمريكية من أعضاء فريق السلام . هنا كان أمامنا أنموذج صغير ، لكنه ربما كان متميزاً ، عن المجتمع العالمي في المستقبل .. ذلك المجتمع الآخذ في التكوّن في أيامنـا الحاضرة . هنا تتمثل عدة أجناس مختلفة ، وأديان شتى ، وثقافـات متنوعة ، لكنه يبدو أن السدود التقليدية بينها جميعاً قد انهارت بفضل الشعور المشترك في أن الجميع رفاق في الانسانية . إن العلاقات الشخصية هنا علاقات قلبية ودية ، وليست منغلقة على ذاتها . ان عبارة « حقوق

---

(١) ولاية هندية هي المركز الصناعي الاقوى في شرق الهند ، يبلغ عدد سكانها حوالي ٩ ملايين ، وحكومتها يسارية يسيطر عليها الحزب الشيوعي الهندي .

متساوية للرجال المتحضرين » نص لمبـــدأ يُعزى (النص) إلى « سيسل رودس [1] Cecil Rhodes ». ولو طبقت الأقلية البيضاء في جنوب افريقيا هذا المبدأ اليوم ، لبات مستقبل بلادهـــا يبدو أقل عتمة مما هو . ولحسن الحظ أن هذا المبدأ حقيقة واقعة في نيجريا الجنوبية . فالتعليم قد انتشر بصورة واسعة ، والتعليم يجلب الحضارة معه . وعلى قمة الهرم ، يجد المرء زيجات مختلطة يكون فيهـــا الزوج نيجريا بارزاً ، والزوجة اوروبية جديرة بذلك الزوج . ان هذه الزيجات حسنة في ذاتها ، كما انها حسنة أيضاً في كونهـــا دلائل مبشّرة عن مستقبل الجنس البشري . أليست اشارات إلى ان هـــذا الجنس قد بدأ يحيا على صورة تقربه من ان يكون عائلة واحدة ! هـــذا هو الخيار الوحيد المفتوح أمامه ضد الابادة والفناء في عصر ذري رهيب كعصرنا الحاضر .

وأراني اقرر الواقع حين اقول : ان لدى أهل نيجريا الجنوبية كل النشاط والكفاءة لأن يأخذوا مكانهم في العالم الحديث كشركاء مساوين للشعوب غير الافريقية التي ظلت متسلمة مركز القيادة مدة طويلة حتى الآن ؛ والحياة الحديثة هي أمل لجميع البشر ، بما فيهم تلك الأقلية من الجنس البشري التي أوجدت هذا العالم الحديث نفسه . وما النيجريون إلا مثل باقي الشعوب : يخطئون ، كما انهم يحرزون نجاحـــات . ولا ريب انهم سيقعون في اخطاء اخرى – ربمـــا كانت اخطاء خطيرة – في طريق انتقالهم الصعب من نمط حياة قبلية إلى حياة كوزموبوليتية . لكنه مهما كان الحال ، فإنه يُغبطنا أن نستبشر بمستقبلهم كما بمقدورهم أن يستبشروا وهم يخططون لذلك المستقبل المأمول .

---

(١) أشهر المغامرين ثم الحكام الاوربيين في شرق افريقيا ، وباسمه سميت روديسيا هناك .

النبط [1]

NAPATA

السودان شاسع متنوع ، فالجزيرة القائمة بين النيلين الأبيض والأزرق ، اللذين يلتقيان في قلنسوة « خرطوم » الفيل ، فيها الآن أميال وأميال من حقول القطن المروية . والبراري الشاسعة في « كردفـــان » ونجودُ « دارفور » لهي أرض ذات مستقبل موعود . وفي المديريات الجنوبيـة الثلاث مستنقعات لامتناهية من الحلفا ، لا بد أن يتم تجفيفها وفلحها يوم تتضاعف[2] أفواه البشر في هذا العالم أو تغدو ثلاثة أمثالها . أما المديرية الشمالية فلم يبق فيهـا الكثير من الثروة المادية ، فاستعاضت عن ذلك بوفرة في الثروة التاريخية .

في الجزء الشمالي من السودان ، يتلوى مجرى نهر النيل مثل حرف S المنقلب على قفاه ∽ . وفي اقصى الجنوب الشرقي لهذا المنعطف من مجرى النيل الطويل تقوم « ام درمان » ، مواجهة « خرطوم » النيل ، حيث يلتقي النيلان . أما في أقصى الشمال الغربي فيقع « وادي حلفا » ، على التخوم المصرية . ولقد احتل المصريون القدماء[3] هذه المنطقة من حوض

---

(١) مدينة مندثرة في النوبة كانت على مقربة من الشلال الرابع في النيل .

(٢) يقدر علماء السكان ان تعداد البشر سنة ٢٠٠٠ م سيكون ضعف مـــا هو في الوقت الحاضر وهو الآن ٣٥١٦ مليونا .

(٣) ابتدأت « الدولة القديمة » بـ « مينيس » الذي وحد « مصر العليا و السفلى » في دولة واحدة،وانتهت حوالي ٢٣٠٠ ق.م .. وهي دولة فراعنة الاهرام . والاسرات من ١ الى ١٠ .

مجرى النيل على مراحل . ففي عهـد الدولة المتوسطة [١] ساروا في النهر صعدا ، جنوب « اسوان » ، إلى نقطة تمثّل أعلى حرف S فيما لو أوقفت هذه الـ S على قدميها . ولا تزال القلعة الضخمة التي بنوها في هذا المكان شاهداً على شدة المقاومة التي جابهوها . حتى إذا انهارت الدولة المتوسطة وتبعثرت اجزاءً ، ضاعت هذه المكاسب المصرية العسيرة فترة من الزمن .

ولما أعاد بناة الدولة الحديثة[٢] توحيد مصر سياسياً ، عاود المصريون زحفهم في النهر صعُدا من جديد ، وفي هذه المرة استطاعت جيوشهم احتلال كامل امتداد حرف الـ S من النهر ، من طرف إلى الطرف المقابل . وخيراً من هذا انهم استطاعوا تمصير حياة السكان المحليين تمصيراً كاملاً . ينبيك عن ذلك انه عندما انهارت الدولة الحديثة في القرن الحادي عشر قبل الميلاد وتبعثرت اشلاءً ، ظلت الحضارة المصرية حيّة قائمة جنوب « اسوان » كما في شمالها أيضاً .

عند حدود مصر الحالية على طول انعطاف الـ S شمال « اسوان » تحدّت تلك المملكة المستقلة – المصرية في أساس حضارتها – مختلف الغزاة المتتابعين الذين فتحوا مصر نفسها. فلقد اخفق الاشوريون والفرس والمكدونيون[٣] جميعاً في مد رقعة فتوحاتهم إلى ما دون موقع الشلال الأول . وحتى الرومان لم يتعدوا أبعد من صخرة « ابريم [٤] Ibrim » بين « أسوان » و« وادي حلفا ». وهكذا ظلّ « العالم المصري [٥]» طوال ما يناهز اربعة عشر قرناً ، من

---

(١) ٢٣٠٠ – ٢٠٠٠ ق.م في ظل الاسرتين ١١، ١٢ ثم عهد الفوضى ثم جاء الهكسوس وشكلوا الأمرات ١٥ ، ١٦ ، ١٧

(٢) حوالي ١٦٠٠ الى ١٠٥٠ ق.م

(٣) استولى الاشوريون على مصر زمن اسرحدون ٦٥٦ ق.م اما الفرس فتم لهم ذلك على يد قمبيز ٥٢٥ ق.م ، واما المكدونيون فعلى يدي الاسكندر ٣٣٢ ق.م .

(٤) هو قصر ابريم في الوقت الحاضر .

(٥) عالم الحضارة المصرية .

القرن الحادي عشر قبل الميلاد حتى الرابع بعده ، ممثلا سياسياً بمملكة اثيوبيا المستقلة (وهي غير اثيوبيا الحاضرة ، وإنما السودان الحاضر) لا بأرض مصر التي أخضعها الغزاة . وطوال النصف الأول من تاريخ مملكة اثيوبيا الطويل كانت عاصمتها تقوم عند خاصرة الـ S ، في مدينة « نبط Napata » التي سبق لها ان كانت عاصمة امبراطورية دولة مصر الحديثة ُصعُد نهر النيل .. لقد ظللت انتظر زيارة هذا الموقع التاريخي الهام لسنوات عديدة ، وها هو انتظاري لم يخب الآن .

قامت طائرتنا من « الخرطوم » وسارت على طول مجرى النيل حتى التقائه بنهر « عطبرة » ، ثم قطعت الصحراء لتتابع طيرانها فوق النيل عند خاصرة الـ S هذه من جديد . ها هو النيل دوننا مرة ثانية : انه يجانبنا من الشمال الشرقي . وهناك ، ونحن ندور فوقه ، كان جبل « بركال Barkal » العظيم ، جبل معزول منفرد أقرب ما يكون إلى شكل البوابة الضخمة في أحد المعابد المصرية العملاقة . لقد عرفتُ شكله الآسر في الصور الفوتوغرافية ، أما الان فها أنا أنظره بعيني رأسي . ولا غرابة في أن هذا الجبل قد أسر خيال الفراعنة المصريين في عهد الدولة الحديثة ، كما خلب لب ملوك اثيوبيا بعدهم . وفي أيام دولة مصر الحديثة ، ُحوّلتْ « نبطُ » إلى « طِيبةٍ » جديدة ، وسادت فيها عبادة الإله الطيبي [1] « آمون » إلى درجة لم تساوِها عبادته في أي مكان آخر سوى « طيبة » نفسها . وكان الملكُ الاثيوبي « ِترهاقه Tirhakah » الذي نازع الأشوريين احتلال مصر وسيادتها أولَ من نحتَ قمةً من هذا الجبل العظيم تمثالاً عملاقياً لشخصه الكريم ، ثم قلده اثنان من خلفائه في ذلك تخليداً لذكرهما . والحق ان هذه التماثيل الهائلة المنحوتة في الصخر ُتقزم تمثال « رمسيس الثاني » الضخم في معبد « أبو سمبل » ، وكيما تجد لها

(١) نسبة الى طيبة ، العاصمة المصرية القديمة .

نظيراً عليك ان تتجه إلى الشمال الشرقي حتى تبهرك أصنام « بوذا » الضخمة في « باميان Bamian » القائمة على الجانب الشمالي الشرقي من جبال « هندكوش » .

***

قبل ان تقطع طائرتنا النيل ثانية وتهبط على المدرج في « مرويMerawi » كانت جميع رقعة مملكة اثيوبيا في « نبط » قد أسفرت لنا عن وجهها كخارطة مساعدة . فعنقود الاهرامات في « نوري Nuri » والعنقود الآخر خلف جبل « بركال » ، والمجموعة الموجودة في « كرو Kurro » والاهرامات الصغيرة الحزينة في « زومه Zuma » – وكلها مجرد اثلام من الرمال يغلّفها الردم والركام – كانت قد صافحت مناظرنا أثناء الوقت الذي استغرقناه قبل هبوطنا إلى الأرض . لقد زرناها جميعاً قبل أن تنتهي رحلتنا الطويلة ! ذات اليومين . كذلك زرنا معبد « ترهاقه » في « مروي » وهيكله المنحوت في الصخر في أحشاء « بركال » ، كما هبطنا في الأضرحة الملكية في « كرو » ، فوجدناها نظيرة لأضرحة نبلاء « طيبه » المصريين في الصحراء الغربية . كان جميلاً أن نلقي نظرة على أعمال الملوك الاثيوبيين ؛ لكن نُصُب الملوك إنما تقوم آساسها على كدح شعوبهم ، والحجّ إلى مواقع الآثار التاريخية القديمة فرصة نادرة لرؤية معالم الأرض والحقول التي كد فيها أبناء تلك الشعوب .

هل تغيرت معالم الأرض على ضفتي النيل عند « نبط » خلال ثلاثة آلاف عام ؟ ان المعالم هنا تعتمد على نشاط الانسان ؛ فهو الذي يرفع الماء من النهر ويخصِب الأرض على كل من الضفتين . أما فيما وراء الحد الذي يبلغه الريّ ، فإن الأرض لا تزال امتداداً مقفراً إلا من الرمل والحجارة . ومن الواضح انه لا نقص في هذه الأرض من حيث عناصرها الكيماوية ؛ فلا شك انها تحوي جميع العناصر الضرورية لاخراج حياة نباتية غنيّة ؛ يبدو ذلك جليّاً في سخاء المنطقة الخضراء المسقيّة هناك .

والآن ، هل تنوش المنطقة الخضراء الحالية طرفَ الصحراء إلى عمق أكثر مما كانت عليه في أيام « ترهاقة » ؟ إن الماء يُرفع الآن بمضخات تديرها قوة البترول ، بينما ظل حتى وقت يمكن لأبناء هذا الجيل أن يتذكروه يُرفع بالمجهود العضلي للثيران ، أو بواسطة دواليب الماء ، التي تسخّر النهر نفسه للقيام بمجهود الثور . كما أن التكنولوجيا الحديثة تملك الوسيلة الكافية لسقي أرض الصحراء حتى يتم تجفيف آخر قطرة من الماء في قاع النهر . على أنه ، من يعلم مـــا إذا كان التوسع الحاضر في الزراعة حول « نبط » لهو أعظم قدراً مما كان عليه حاله يوم كانت المنطقة هي القاعدة الاقتصادية للولاية المصريـة ، ثم للمملكة الاثيوبية بعد انحسار النفوذ المصري ؟

وايا كان صحيحاً ، فإنه يظل بوسع المرء أن يجزم بأن المحاصيل الرئيسية لم تتغير . ها هي أشجار البرتقال والمانجو مغتربة في هـــذه الرقعة ، وأكثر منها توحّشاً أشجار الكرمـــة . بيد ان هذه الأشجار الغريبة الديار ليست حديثة عهد أبداً ، فقد جيء بها إلى « نبط » من الصين والهند وبلاد الاغريق منذ اضمحلال مملكة اثيوبيا واندثارها . أما أشجار نخيل البلح ونبتات القمح ، فلا شك انها كانت هنا مذ فلح الانسان ثلماً على ضفتي نهر النيل .

صحيح انني كنت مهيّأ لمشاهدة بساتـين النخيل .. إلا أني لم اكن اتوقع رؤيـة حقول القمح المروية التي تزخر بالسنابل بصورة اكثف من أي حقل يسقيه مطر اوروبا أو شمال امريكا . تُرى أين رأيت حقول قمح أخضر داكن إلى هذا القدر كما اجد الآن في نبط ، وحقولاً متلاصقة مثل هذه الحقول ؟ آه ، نعم ، انه في حقول قمح « آشور »[1] بعيداً فيما وراء « دجلة » . ان المسافة بين آشور (العراق) واثيوبيا كانت مسافة

(١) هنا يقصد « السواد » في العراق الحاضر .

طويلة جداً للجيوش التي سارت على اقدامها أو ركبت في عربات تجرها الثيران ، أو مركبات تجرها الخيول . هـذا صحيح . ومع ذلك فإن الجنود الذين تغذوا بخبز قمح هذه الحقول الخضراء الداكنة في طرفي العالم المتقابلين .. ازعجوا أنفسهم ليقتتلوا على أرض وادي النيل في صراع على سيادة العـــالم المتحضر آنذاك . لقد التحموا في الدلتا . وهناك قُهر الأثيوبيون الضئال الأجسام على يدي الآشوريين الضخام . ثم ان الاشوريين زحفوا صوب الجنوب ودمروا « طيبة » ، لكنهم لم يطأوا أرض « نبط » البتة . لقد ظل الاثيوبيون سادة في وطنهم .

كانت مدينة « نبط » موقعاً لمّا نتفرج عليه بين المواقع الموجودة في المنطقة . ذلك ان هذه المدينة لمّا ينقب عنهـا الآثاريون أو يكشفوها . وهم اكثر وثوقاً بموقع مرو Meroe ، التي عقبت « نبط » وكانت تقوم في موقع « شندي Shendi » الحاضرة لا موقع « مروي Merawi » الحالية ، أي أقرب كثيراً إلى الطرف الجنوبي الشرقي من الـ S المعهودة . ولقد تم نقل عاصمة اثيوبيا صعد النهر من « نبط » إلى « مرو Meroe » في القرن الرابع قبل الميلاد . وقد يتساءل المرء قائلاً : أي سحرٍ وانجذاب كان لموقع في قلب الصحراء هو اكثر بعداً عن قلب العالم المتحضر ؟ والجواب سهل يسير ، فالاكوام الماثلة في « شندي » تشير إلى أن صناعة الحديد في « مرو » كانت مصدراً أهم للقوة من حقول القمح في « نبط » . كما انه ليس من المستبعد أن يكون القرن الرابع قبل الميلاد ، قد شهد امتداد اثيوبيا حول مجرى النهر صعدا ، في منطقة « الجزيرة » — حيث يمكن الاعتماد على سقوط الأمطار في الزراعة . ومن شأن هذا ان يوفر نطاقاً أوسع للزراعة وغـــلالاً أكثر مما يمكن إحرازه عن طريق السقي ، قبـــل عصر الآلة .

ومهما كان السبب ، فقد هوت « نبط » وارتفعت « مرو » . وفي

غضون القرن الرابع الميلادي ، انسدل الحجاب على مصنّف تاريخ الحضارة المصرية في ملحقها الاثيوبي [1] . وحين يرتفع الستار ثانية ، يكون المنظر قد تغيّر : فالقاطنون في منطقة الـ S « نوبيون » لا « كوشيّون » ، وثقافتهم الآن مسيحية مونوفستية [2] ، وليست ثقافة مصر القديمة . وهكذا ظل شمال السودان بلداً مسيحياً منذ القرن السادس الميلادي وطول الثمانمائة عام التالية ، حتى حوّله تسرب القبائل العربية إلى بلد مسلم في القرن الرابع عشر . وقصة هؤلاء العرب المسلمين قصة منفصلة تماماً عن قصة « نبط » الاثيوبية ـ المصرية .

---

(١) يقصد المملكة الاثيوبية في النوبة .

(٢) أي من الفئات التي تقول بطبيعة واحدة للسيد المسيح بدلا من المذهب الملكاني (الامبراطوري البيزنطي) القائل بطبيعتين .

السدّ

THE SADD

السدّ هو الحاجز : وسدّ البحر هو القلعـــة المنيعة المسيطرة على « الدردنيل » ، والتي تحجب « استانبول » عن متناول الأساطيل المعادية في البحر المتوسط . أمـــا السدّ الذي أسافر عبره الآن فهو سدّ من المستنقعات . إنـــه واحد من مجموعة العوائق الطبيعية – المستنقعات ، والغابات ، والصحارى – التي تعزل افريقيا الزنجية عن أفريقيا الشمالية ، ومن بين هـــذه العوائق الثلاثة تكون المستنقعات أعسرها للاجتياز والعبور . فالصحراء يمكن عبورها على ظهر بعـير ، والغابات يتسنى اجتثاثها بالأدوات الحديدية التي عرفت افريقيا الزنجية صناعتها منذ عهد طويل ؛ لكن أي اداة أو مطية ركوب بمقدورها ان تصارع مستنقعات النيل الأعلى العملاقة ؟

لو أن الانسان استطاع استئناس فرس الماء والتمساح أو علّم نفسه السير على طوالات [1] تصل القاع الصخري دون أعماق الوحل ، اذن لتسنّى له ان يقهر سدّ « بحر الجبل » . غير أن الانسان أخفق في كليهما . وهكذا ما زال « بحر الجبل » خارج نطاق سيادة البشر حتى هذه اللحظة . إنه لا يزال حرَماً وملاذاً لأفراس المـــاء ، والتماسيح ، والاسماك ، والطيور .

وليست كل الطيور بقادرة على الانتفاع بحَرمها هذا ، فالطائر الخفيف

(١) عكازات طويلة من الخشب .

وحده هو الذي يمكنه ان يحط على التاج الزغبي لنبات البردي ، أما الطائر الكبير فلن يجد موطئاً يستقر فيه أخمصاه إلى أن يلمح واحدة من تلك الشجرات المتفرّدة التي أنفذت جذورها بأعجوبة في هذا العالم الذي لا أرض ثابتة فيه . على كل شجرة كان يرى المرء أكثر من طائر قد حطّ ، علّه يتمتع بقليل من الراحة على أغصانها .

وإذا كان السدّ غير مضياف للانسان فانه جنة عدن الكريمة لأفراس الماء وطيور السنونو . فبعد ان تلتهم هذه الطيور ملء بطونها من الحشرات يظل هناك حشرات كافية لتعذيب الجنس البشري بأكمله . وبعد ان تلتهم أفراس الماء شبع أجوافها من البرديّ ، وأزهار المكحّلة الحدقية الياقوتية [١] يظل هناك من هذه النباتات ما لو أمكن حشّه ونقله وتحويله إلى ورق ، لوفّر لجريدة « نيويورك تايمز » في عددها الأحدي [٢] طلحيات تسدّ حاجتها لمليون سنة على الأقل .

المكحّلة الحدقية والبردي : وغذاء فرس الماء محصور في الخيار بينهما ، هما تجسيدان لسخاء الطبيعة في هذه الديار . وما دامت هذه الحيوانات قانعة بحياة بسيطة ، فإنها لن تجد نفسها مهددة بمشاكل المالتوسية [٣] على الاطلاق . بمقدور أفراس الماء أن تزيد اعدادها ، وتضاعفها ، كما تشاء ، وكذلك بمقدورها أن ترث السدّ ، وحتى لو كان نسلها بعدد قصلات البرديّ ، فإنها لن تجوع البتّة إلى الابد . ذلك انها اثناء ما تكون تمضغ نبتة بردي واحدة ، تكون نبتة اخرى قد طلعت لتعوّض عنها .

---

(١) زهرة جميلة من الياقوتيات .

(٢) الذي يصدر يوم الأحد من الاسبوع .

(٣) نظرية مالتوس (١٧٦٦ - ١٨٣٤) في ان ازدياد انتاج الغذاء في العالم يسير حسب متوالية عددية بينما يسير تكاثر البشر حسب متوالية هندسية .. فالجوع محتوم في نظره والحرب هي السبيل للخلاص !!

وتشبّ المكحلة الحدقية بوفرة عظيمة اثناء ما تكون كبكوباتها[١] سائرة في مياه النهر . وفيما هي تتفرع تجد عساليجها تحيك ما يشبه الحصُر . حتى إذا تنامت كوكبة واحدة بحيث تتحمل ثقل مجموعة من البردي ، فإن هذه سرعان ما تنبثق فوقها وتشدّ حصيرة المكحّلة الحدقية بصورة أوثق . وكتلة هذه النباتات المتشابكة لهي في حقيقتها كلمةُ « السدّ » بالمضمون النيليّ لهذه الكلمة . فمثلَ الجليد القطبي ، يستطيع السدّ أن يحاصر سفينة ويحبسها في محلها . وقد حبس سفينتنا طوال ثلاث ساعات في الليلة الفائتة .

ويبلغ ارتفاع نبات البردي من مستوى الماء إلى رأس اوراقه ضعف قامة المواطن في منطقة وجوده ، (وأهل هذا الجزء من النيل معروفون بطول قاماتهم في العالم) . فمن قمة الطابق الثالث من القارب – البيت ، الذي نركبه ، نستطيع أن ننظر إلى الافق على مستوى رؤوس اوراق البردي . ان قبة السماء تتدنى إلى سطح الماء حولنا في هذا العالم ، تماماً كما تتدنى في مستنقعات « لنكولن شاير »[٢] .

لقد جاء جدّي إلى لندن من مزرعة في منطقة المستنقعات في مدى الرؤية من بوسطن ستمب ، وهو البرج العالي لكنيسة القديس « بوتولف » في مدينة « بوسطن » بانكلترا . أما والدي وأنا فقد خرجنا إلى الحياة في لندن ، ومع هذا فإن المستنقعات لا تزال تستحوذ عليّ وأجد لها في نفسي موقعاً . وهذه المستنقعات النيليّة ليست غريبة عني . هذا مع اني اعترف انها تفوق مستنقعاتنا الانكليزية بدرجة هائلة .

ان عمّ أبي ، الذي ربّاني ، كثيراً ما كان يحكي لي كيف ان الرجل في « هكنغتون » لم يكن يخرج أبداً دون أن يحمل معه نبّوتاً للقفز ، علّه يتسنى له أن يجتاز العوائق في المستنقعات . لكن .. تُرى ماذا يسع النبّوت

(١) الكبكوبة كتلة متجمعة ومتشابكة من الجذور والنبات.

(٢) في بريطانيا .

ان يساعد الرجل الذي وجـــد نفسه مهجوراً في مستنقعات المنطقة الاستوائية ؟! ان سبعين حذاءً مدى كل منها سبعة أميال ستظل عاجزة عن تمكين رجل من أن يقفز إلى النجاء ، من السدّ إلى الحجارة الصلبة في الصحراء .

واتساع المستنقعات النيليّة هائل حقاً . فمن « جوبا Juba » عنـد الطرف الجنوبي لبحر الجبل إلى « ملكال Malakal » عند منفذه الشمالي تكون رحلة الباخرة بطول عبور سفينة « كوين ماري » المحيطَ الأطلسي . وستقول أيها القارىء الكريم : « ما أشد بطء هذه الباخره ! لقـــد قستُ المسافة على الخارطة ، فوجدتها من « جوبا » إلى « ملكال »[1] أقل من ٤٠٠ ميل ، أي أن الغراب يطيرها بكاملها » .

هذا صحيح ، لكن قاربنا ، التاقوق ، لا يستطيع اختراق السدّ في خط مستقيم . إن عليه ان يعرّج طريقـــه ويلتوي بها حسب ما يأذن له السدّ . والطول الحقيقي الذي نقطعه ليس أقل من ٤٠٠ ميل ، انه ٦٠٠ ميل . ذلك أن المسار عبر غابة البرديّ يتلوى ويدور وكأنه حيّة بحرية . ففي أول يوم من رحلتنا كان الجبل الصغير الذي يطلّ على جوبا يظل يلوح أمامنا وكأنه يرقص ، فنراه إلى يميننا تارة وإلى يسارنا تارة أخرى . انك لا تستطيـع ان تعرف أين ستجد ذلك الجبل في الأفق ، حين تنظر من فوق رؤوس البرديّ الكث . هل كان الجبل يتذبذب كالرقّاص أو كان مسارنا في الماء هو الذي ينعطف يا ترى ؟ هذه قضية تحتاج « بطليموساً »[2] يناقش فيها « كوبرنيكوساً »[3]

---

(١) تقع عند التقاء نهر سوباط بالنيل الابيض .

(٢) عالم الجغرافيا الاسكندري الذي سطع نجمه (١٢٧ – ١٥٦ ب م) وهو صاحب نظرية « الارض المبسوطة » الثابتة .

(٣) العالم الفلكي البولندي (١٤٧٣ – ١٥٤٣ب م) في عصر النهضة الاوروبية ، وهو مشهور برأيه في كروية الارض ودورتها حول الشمس .

حتى يتم الحكم فيها لصالح « كوبرنيكوس » بمجرد بلوغ أول انعطاف على شكل زاوية قائمة . ولا يستطيع المرء في مثل حالنا أن يخطىء الالتواءات ؛ فالتعرف اليها عملية بحرية بالغة الأهمية .

وتقول . . « حسناً ، اذن هي ٦٠٠ ميل ، فما هي الـ ٦٠٠ ميل حتى تقارَن بعرض المحيط الأطلنطي ؟ » حاول أنت أيها « الكومودور !» ذو القبعة العالية والذي تمخر الاطلنطي في باخرة عظيمة ، لمجرد المبادلة ، أن تقود « التاقوق » في هذه الـ ٦٠٠ ميل من مياه السدّ . قُل لي أية باخرة تسير على خط منتظم شرعت في عبور الاطلنطي بشَكٍّ (عقد) من أربعة قوارب – منزل ، كل واحد منهـا بحجمها هي : اثنان منها مربوطان بها كل من جانب ، واثنان عليها أن تدفعها قدّامها ؟ هل سمعتَ عن عابرة للمحيط كانت مهـدّدة بخطر أن تطبق على صفحتيها ضفتا المحيط فتعصرها عصراً ! أدريتَ عن عابرة للمحيط تحدّت رياح السماء فأقلعت وسرعةُ الريح قدمان لا أكثر ! في الفصل الماطـر تهب الرياح فوق السدّ المكشوف بنفس العنف الذي تُعول فيه فوق لجة المحيط . فإذا قارنّا قيادة التاقوق ههنا بقيادة « كوين ماري » هناك ، فإن الثانية لن تكون أكثر من لعب أطفال . فالمحيط ليس قطعة متمردة مخيفة من الطبيعة كما هي الحال في السدّ .

* * *

منذ الليلة الأخيرة (وهي ليلتنا الأولى بعـد مغادرتنا جوبا) ، لم نمرّ إلا بمحلـّة ضئيلة واحدة فيها ثلاثة بيوت أو أربعة . ولقد ظللنا طوال الخمس والاربعين ساعة التي انقضت نسير عبر عالم غير عالَم الانسان ، وإنما هو دنيا أفراس الماء . وأظن القارىء الكريم يقف إلى جانبي حين أقول إن مضيّ يوم كامل دون حادث ما لهو يوم طويل مملّ في حياة الرجل كما هو في حياة الطفولة . وكنا في اليوم الأول من رحلتنا قد مررنا بأربع جزر يقطنها بشر على كل حال . كانت جزراً بالمعنى الحرفي للكلمة ؛ فهي

رقعات جافة من الأرض في محيط من المستنقعات ، مثلها مثل الجزر التي أبرزت رؤوسها فوق مياه « الطوفان » حين استقرت ُفلك « نوح » على ذروة « جبل ارارات[1] » . هـذه هي المراسي في « السدّ » . وفي هذه « المراسي » يكون قدوم ومغادرة السفينة من وقت لآخر لهو الحدث البارز في حياة روتينية مملّة بدونه . ان جميع العالم يتجمّع ليحتفي بقدوم السفينة عند طرف الماء .

وهنا يشهد المتفرّج منظر انسان قبل السقوط[2] ، وإنسان ما بعد اقتراف الخطيئة . . كلاهما يتدافعان ، لكنهما يتقبّل الواحد منهما وجود الآخر . لقد جاء « السقوط »[3] إلى جنوب السودان مع مجيء الاسلام والمسيحية . في هذه الأرض نصف العذراء للتبشير ، يتنافس الدينان اللذان بشّرت بهما اليهودية ، لكنهما يشتركان في اسطورة واحدة : فالديانتان تبذلان جهداً كبيراً في « غواية الانسان البريء » كي يستر « ُعريه » . وبسبب من هذا الجهد َيرى المرء في محطات الرسو السودانية الجنوبية هذه بعضَ الذكور مسربلين في جلابيّات شمال السودان المسلم البيضاء من العنق حتى أصابع القدمين ، كما يلمح نفراً من الاناث يـأتزِرن بتنورات غربية مسيحية التفصيل .

على ان هؤلاء « البشر الخُطاة » لا زالوا أقلية ضئيلة رغم جهود الاسلام والمسيحية ، المضنية في « إغواء » الجميع . ان جميع الصبيان « الصغار » عراةٌ كما قذفتهم أمهم الطبيعة ، ومن الحكمة تماماً في مثل هذا المناخ ان يكون العري المجرد هو أكثر اللباس عقلانية ومنطقاً . لقد قلتُ

---

(١) جبل في اقصى شرق تركيا، وجنوب يريفان في ارمينية ادعى منقب امريكي للآثار انه وجد آثار فلك نوح على سفحه ، وعلو الجبل ٥١٦٨ متراً.

(٢) اشارة الى عري « آدم » في جنة عدن .

(٣) يعني ستر العورة بالملابس.

« الصبيان الصغار » ، لكنّ ساقَي « الولد الصغير » من « الدنكا »[1] اللتين في طول ساقي المُهر ، ترفعانه إلى قامة الرجل البالغ ، سواء كان هذا من أهل شمال السودان ، أو من « النورديين »[2] في اوروبا . أما طول رجل « الدنكا » البالغ فانه يسترعي انتباهنا بحق ، إذ أنه يرتفع طولَ رأس واحدة عن رؤوس الأوروبيين العاديين .

وأنت حين تنظر إلى أحد « الدنكا » البالغين وتتملّى من جمال منظره ، تتحقق من ان الملابس إنما اخترعها انسان ما قبل السقوط لمجرد التسلية ، لا من أجل المنفعة ولا من قبيل الحشمة المفْرِطة . فالملابس عديمة الفائدة في هذا المناخ . أما من حيث الاحتشام فان ملابس رجل « الدنكا » لا توفر له ذلك . ارسم لنفسك شخصَ ذكرٍ منهم : تصوّرْه حوالى ٦ أقدام و ٦ بوصات طولاً ، وذو جسد أسود لمّاع . واجعله يقف على ساق أشبه ما تكون بطُوالة من الخشب ، فيما ساقه الأخرى مجذوبة إلى أعلى ومستقرة على الساق القائمة ، كهيئة اللقلاق . ثم ضع على رأسه المقطوط الشعر زينةً دع ريشاتها تنتصب . ولا تنس ان تزين ذراعيه بعضديات[3] نحاسية ثقيلة صفراء ، وكاحلَيْه بخلاخيل نحاسية لطيفة . أما حول خصره فدعه يلبس سيوراً فاتحة اللون ترتفع إلى نقطة بين ترقوتيه ، ولا تهبط إلى ما دون ردفيه . ثم أعطه قوساً في يده ، أو اجعل له حربتين في يد وترساً خشبياً في الأخرى . هذه هي ملابسه . أما باقي جسده فهو كما كسته الطبيعة . أليس هذا منظراً رائعاً ؟!

ان لمحة سريعة يظفر بها المؤرخ عن انسان ما قبل السقوط لهي

---

(١) قبائل زنجية بدائية تقطن منطقة السد هي وقبائل الشلوك .

(٢) الاسكندنافيين القدامى الذين هبطوا على شمال وغرب اوروبا ما بين القرن السابع والتاسع للميلاد .

(٣) العضدية سوار حول العضد .

ثمينة جداً في نظره ، فحتى لو صرفنا النظر عن عقبة السدّ الكأداء ، يظل رجل « الدنكا » الوثني عاجزاً عن الصمود في براءته لمدة طويلة بعد الآن . أنظر إلى اولئك الشخوص الثلاثة من أبناء « الدنكا » ، أولئك الذين يقفون قبالتنا ، كل منهم على ساق واحــدة ، ويستقر طرف قوسه على الأرض . انهم ينحازون جانباً ، وقد يكونون يتأملون في هذه السفينة ويفكـّرون في الحشد المجتمع عند حافة النهر . ألا ترى نظراتهم تنضح بالدهشة والعجَب ! ما الذي يدور في رؤوسهم الآن !؟ تُراهم يدركون أن عهد البراءة الذي ينعمون به الآن قد قارب نهايته ؟ وهل لديهم قدر من الفكر السياسي يا تُرى ؟ ما هي مشاعرهم تجـاه رجال الشرطة الشماليين الذين في زيّ رجال « الجوركا » [1] ، فيما هم يصدرون الأوامر إلى المجتمعين حولهم ؟ هل سيحمل ابناؤهم أسماء مواطنين سودانيين جنوبيين مسيحيين ؟ وهل ستكسب حفيداتهم اقواتهن كضاربات على الآلة الكاتبة ، بينما يقود حفدتهم الجرارات الزراعية وهم يرتدون سراويل عريضة زرقاء ، بعد أن يكون تجفيف أرض السدّ قد تم ، وأصبح السد منطقة مفلوحة تساعد في اطعام سكان هذا العـالم الذي يكون قد تضاعف أكثر من مرة واحدة في ذلك العهد ؟

ليست هذه التساؤلات في غير محلها ، ولا المطامح المتضمّنة فيها مجرد أوهام في الخيال . ففي الوقت الحاضر هناك بعض رجـال « الدنكا » و « الشلوك » الذين لم يحتاجوا أكثر من جيلين اثنين انقلبوا خلالهما إلى أفراد من أبناء الحياة الحديثة . وقد شارك واحد من هؤلاء في تأليف كتاب حديث عن قضية السودان الجنوبي ، ثم طُبع الكتاب في الآونة الأخيرة ، وعُمّد [2] صاحبه باسم « وليم » . وهو يقيم الآن في بريطانيا

---

(١) الملحقون بالجيش البريطاني المحلي في احدى المستعمرات ، وفي العادة ان يكونوا سمر البشرة كالهنود أو سوداً كالزنوج الافريقيين .

(٢) تنصر .

كمهاجر متخذاً « وليم دين » اسماً رسمياً له . ولو كنت في موضعه لما اتخذت هذا الاسم ، بل حوّلته إلى « هيروورد Hereward » ذلك ان المستنقعات الانكليزية ، وهو ضئيلة إذا ما قورنت بالسدّ ، قد أثبتت من قبل أنها حاجز منيع ضد التسرب الأجنبي . إذ مكّنت « هيروورد » من خلق حركة مقاومة عنيدة في وجه تقدم « وليم الفاتح »[1] على بقية أجزاء بريطانيا . وبمقدور « هيروورد الدنكي » ان يخلق مقاومة أكبر من مقاومة سميّه التاريخي بكثير . ألا يتوفر له صمود ادغـــال برديّ السدّ العجيب ! فيا أيها السودانيون الشماليون : أصيخوا السمع ، ولا تكونوا سبباً في غربة جيرانكم الجنوبيين عنكم . واعلموا انكم إذا استثرتموهم ، ومن ثم اضطررتموهم إلى القيام بحركة مقاومةٍ عامة في طول البلاد وعرضها ، فان « السدّ » سيقف إلى جانبهم ، وعند ذاك من تراه يستطيع أن يصارع السدّ ؟ عليكم ان تتعلموا من أخطاء الشعوب الأخرى . فاسلكوا سبيل الحكمة ورحابة التفكير قبل أن يفوت الأوان .

(١) وليم النورماندي فاتح بريطانيا سنة ١٠٦٦ م .

أربعة آلاف عام في اربع ساعات

ها قد بزغ فجر اليوم الرابع من رحلتنا النهرية عبر مستنقعات النيل الأعلى الهائلة وما نزال في ذلك العالم المعزول الذي ألِفناه طوال الأيام الثلاثة الماضية . كان عالمنا عالم طوفان نوح قبل ان يَغيض الماء . يا له من دنيا لما تسُدْها الحياة البشرية بعدُ . انها دنيا ما زالت المجتمعات البشرية التي دبّرت أمرها فيها واستقرّت على أرضها ، تعيش في العصر الحجري بصورة ملحوظة .

هذا هو العالم الذي نتفرج عليه الآن : عالم المستنقعات والسدّ والسمك ومستنقعات النيل موطن مثالي للسمك ، أما للطيور التي تتغذى بالحشرات فان كتل جذور البرديّ المتشابكة لا تشكل عائقاً كبيراً . ولقد مرت سفينتنا اليومَ في مياه صيد السمك ، فرأينا ثمة ألوفاً مؤلفة من البجع والبلاشين البيضاء وآكلات الحيّات من الطيور . وبدا لنا ان هذه الطيور جميعاً لا تخاف من الانسان . فمرّة بعد مرة كانت طيور البجع تظل واقفة في أمكنتها والسفينة تكاد تجرفها أمامها ، ثم تطير فوق رؤوسنا لتحطّ قدّامنا على مسافة مائة ياردة لا أكثر . ولم يمض وقت طويل حتى وجدنا أنفسنا نسوق رفاً هائلاً من الطيور صوب الشمال فيما بين جداري البرديّ العاليين للنيل الأبيض .

ولا شك ان طيور السنونو الكثيرة التي تنعم هنا بوجبات سخيّة من الحشرات ستهاجر الى اوروبا في أية لحظة ، حين تبدأ أمطار أعالي النيل في الهطول ويكون شتاء اوروبا القارس قد انصرم . كانت هذه

هذه الطيور محبّة للنُقلة ، وقد ظلت كذلك منذ برزتْ فصيلتها إلى الوجود . أما الانسان فقد شَلَّت المستنقعات حركته في هذه الرقعة ، وظل مشلولاً حتى الوقت القريب . فقبل نجاح هذا القرن في « القضاء على المسافات » ، بفضل تطبيق التكنولوجيا الحديثة في وسائل المواصلات ، كان القاطنون في مستنقعات النيل معزولين عن بقية الجنس البشري . أليس هناك المـــاء والبرديّ والطين والتماسيح ؟ أما الآن ، وفي فترة جيلنا الحاضر ، فقد تم الغاء ذلك الحاجز الطويل الأمد من طريق الاتصال بين البشر . وهكذا بات على الشعوب النيلية - « الدنكا » و « الشلوك » و « النوَر Nuer » وغيرهم - ان تعيش في نفس العالم الذي يعيش فيـه البشر الآخرون .

***

قبيل حلول الظلام من ذلك اليوم نفسه كنا نطير فوق محطة « مناغيل Managhil » من شبكة ريّ « الجزيرة » في السودان . وهكذا .. عبرنا في نهار واحد من دنيا العصر الحجري إلى عالم القرن العشرين . ان أمامنا الآن في « الجزيرة » مليوني فدانٍ من الأرض الخصيبة ، ترويها ميـاه السقي وتنتج قطناً طويل التيلة[1] تتهالك عليه السوق العالمية الكبيرة . ها هو « سد سنار Sennar » ، والقنوات ، ومحطة التجارب الزراعية ، والعمل الجماعي في خدمة الناس ، وهي كلها منجزات خاصة بحضـارة اليوم الحاضر .

ان وراء هذه المنجزات خمسة آلاف عام من الحضارة المتراكمة بعد ان اطلّ فجرها في العراق ومصر . وحتى في شمال السودان حيث تقع هذه « الجزيرة » فان عمر الحضاره اربعة آلاف عام . إلى هذا الموقع جلبها المصريون في عهد الدولة المتوسطة بُعيد سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد . وخلفت « الدولة الحديثة » سابقتَهـــا ، وفي عهد هذه الدولة استعاد

---

(١) من ١٠٦ إلى ٢٠٥ بوصة .

المصريون منطقة سيادتهم في شمال السودان كما وسّعوا رقعتها جنوباً .
ومن بعد ذلك ازدهرت « مملكة نبط » التي كان قد تم تمصيرها ، في كل من « نبط » و « مرو Meroe » ، وقُدّر لها ان تدوم الفَ عام جديد .

ثم تغيرت الأوضاع في البلاد وغدا شمال السودان موطناً مسيحياً ؛ وعلى هذه الحال انقضت من عمره ثمانية قرون . حتى إذا طلعت في الأفق تباشير القرن الرابع عشر من الفترة المسيحية تحول ذلك الجزء من العالم موطناً عربياً مسلماً [١] . ودارت عجلة التاريخ . ثم توقفت عند سنة ١٨٩٨ . وفي هذه السنة بات السودان خاضعاً لحكم ثنائي مصري — بريطاني ، استمر نيّفاً ونصف قرن من الزمن . اما اليوم فها هو دولة مستقلة وإحدى المائة دولة التي استقلت بعد الحرب العالمية الثانية .

والواقع أن الحضارة في شمال السودان ظلت تسير قُدماً طوال هذه الآلاف الأربعة من السنين ، كما ان التاريخ فيه ظل زاخراً بالأحداث . أما في المنطقة التي تطوقها المستنقعات في الجنوب فقد جَمُد التاريخ وتوقف . هذا على الرغم من كون الشمال والجنوب جارَين أدنيين !! أليس الجنوب جار الباب ؟ بلى ، غير أنه لم يكن هنالك باب ينفتح على الجنوب ، لا من جاره الأدنى ولا من أي جزء متحضر في العالم . وقد ظل الحال كذلك حتى جاءت التكنولوجيا الحديثة فاخترعت السفينة البخارية في الماء والطائرة المحلقة في الأجواء . وهكذا ، فجأة وجدت مجتمعات جنوب السودان نفسها على صلة مباشرة وارتباطات سياسية مع شعبٍ تفصلها عنه أربعة آلاف عام من الحضارة والتفكير .

---

(١) بدأت محاولات النفوذ إلى السودان بعد فتح مصر ، زمن عثمان ، على يدي عمرو بن العاص ، ثم نشطت على يدي عبد الله بن ابي السرح . . لكن التسرب العربي إلى المنطقة تأخر عن ذلك كثيراً .

ولست اقرر قاعدة جديدة حين أقول : ان من غير السهل على أي جيل معاصر من الجنس البشري ان يوفّق ما بينه وبين الحضارة القائمة في هذه الأيام . ذلك ان تقدُّم التقنيّة يسير بوتيرة مجنونة ، فهو يفرض على الانسانية خطوات متلاحقةً في التغير الاجتماعي بحيث يعسر حتى على الأمم التي اخترعت هذه التقنيّة ان تلحق بها . مثلُ هذا ما جرى مع سودانيّ « الجزيرة » في وقت من الأوقات : لم يكن من السهل على اولئك الفلاحين الذين ألِفوا زراعة كفافهم من القوت ان يتحولوا إلى زراعة « محصول نقديّ »[1] في أرضٍ مسقيّة . غير أن التغيّر اضطرهم إلى ذلك . وكانت النتيجة لصالحهم : إذ ارتقت حياتهم وزادوا من ثروتهم . إلا أن ثمن ذلك الازدهار كان هو الانصياع للنظام والتقييد . وكان لا بد من ذلك فالمشروعات الزراعية التي تتمّ بعد تخطيط مسبّق لها ، إنما تتطلب مراعاة صارمة لجدول معيّن وتوقيت محدود .

ذلك في الشمال .

أما في الجنوب فان السودانيين المساكين لم يصلوا إلى مرحلة زراعة أقواتهم بعدُ . ان الحد الأقصى الذي مضوا اليه في سلّم الحضارة لا يعدو اضافةَ مهنة الرعي إلى مهنتهم التقليدية : قنْص الحيوانات وصيد السمك . وإذا كانت الشعوب الأخرى تجد عسراً كبيراً في اللحاق بخطى تقدّم التقنية اليوم ، فإن التخلّف الزمني الذي يعاني منه السودانيون الجنوبيون يجعل حالهم أقرب إلى المأساة . وحتى عند مقارنتهم إلى اخوانهم في الشمال تظل قضية الجنوب قضيّةً خاصة تمام الخصوص ، إذ أن الفارق بين الجماعتين شاسع لا يُطاق .

***

حين يرتبط شعب متقدم نسبياً ارتباطاً سياسياً بشعب آخر متخلّف

(١) القطن ، الذي يزرعه الفلاحون لبيع محصوله .

تخلفاً كبيراً ، تغدو مسئولية الشعب المتقدم [1] في الأخذ بيد رفيقه متناسبةً مع اتساع الفجوة الثقافية التي تفصل ذينك القطاعين في تلك الدولة [2] . في تلك الحال يكون القطاع الأرقى هو المسيطر الحقيقي إذا قارناه بزميله المتخلف . لذا فإن أفراد القطاع الأخير يقعون تحت رحمة مواطنيهم المتقدمين . وهذا وضعٌ تتبدى فيه الحاجة إلى شهامة ونبل . كيف لا وهو موقف يتطلب من جانب الجناح الأقوى صبراً لا ينفد ، وتسامحاً عظيماً ، وكرماً أعظم ! ليس هذا فحسب ، بل انه يتطلب ادراكاً عريضاً وتعاطفاً اكيداً أيضاً .

ان هذه طلبات شاقة على الطبيعة البشرية ؛ ومع ذلك فلا مندوحة من الاقرار بأن إخفاقنا في الارتفاع إلى مستوى المواقف التي وضَعَنا التاريخُ فيها ، يقودنا إلى المغامرة باستجلاب النكبات على أنفسنا وجيراننا معاً . ان اخفاق أهل شمال السودان في حل مشكلة علاقاتهم مع اخوانهم الجنوبيين قد لا يولّد نتائج كارثة لجزءي السودان فحسب ، بل لافريقيا بأكملها أيضاً .

على ان مشكلة قيادة الشعوب المتخلفة حتى تدخل باب الحياة الحديثة ليست مقصورة على السودان ولا افريقيا . فالمشكلة قائمة في امريكا اللاتينية أيضاً . ولنضرب على ذلك مثلاً بالمكسيك . هناك واجه المكسيكيون قضية مماثلة ، وقد عالجوها ، واستطاع المتقدمون في تلك البلاد أن يتوصلوا إلى طرق ناجحة في التعامل مع مواطنيهم المتخلفين ، مع انهم ليسوا أرقى من السودانيين الجنوبيين بكثير . ولقد قامت السلطات

---

(١) يحسن توجيه كلام المؤلف هذا إلى عنصريي جنوب افريقيا وروديسيا والبرتغاليين في انغولا وموزمبيق ،وكل هذه اقطار افريقية. كما ينطبق ذلك على المجتمع العنصري في الولايات المتحدة .

(٢) خلفت بلجيكا الكونغو وليس فيه إلا رجل واحد يحمل شهادة جامعية هو باتريس لومومبا . ومع ذلك فقد تآمر عليه الاستعمار العالمي الجديد وتخلص منه على يدي تشومبي ، السجين في الجزائر الآن .

المكسيكية بدراسة عميقة للطرق والوسائل الكفيلة بالتغلب على الصدمة التي تتولد في نفوس هؤلاء المتخلفين[1] ، من جراء امتلاكهم في غضون حياتهم ، القصيرة نسبياً ، تقدماً سلخت البشرية الوفاً كثيرة من السنين في انجازه . هناك استدعت الحكومة علماء الأجناس المكسيكيين ليتعاونوا مع رجال السياسة الاداريين والمهندسين المدنيين ، وكلّفتهم جميعـــاً أن يتدارسوا القضية من جوانبها المختلفة .

من طبيعة الضعيف أن يشك في القوي ؛ وهذه عقبة في سبيل انشاء علاقات طيبة بينهما . وهل افضلُ من علماء الانسان أو اقدر منهم للتغلب على مخاوف الجماعات المتخلفة وكسب ثقتهم ! انهم اكفأ من مختلف ممثلي الحضارة الحديثة في هذه المهمة الشاقة . فليس بمقدورهم أن يفهموا عواطف الجماعات البدائية ، فحسب ، بل أن يتعاطفوا مـــع أصحابها ويقودوا خطاهم ، خطوة بعد أخرى ، على طول ذلك الدرب الشاق الذي يتوجب عـلى مثلهم أن يقطعوه . ومما يزيد في مشقته أن عليهم اللحاق بروّاد هــذه الحضارة الشامخة في وقت قصير . ولو كنت في موقف الحكومة السودانية لأرسلت بعض علماء الانسان والموظفين في الخدمة العامة السودانيين إلى « مكسيكو » وطلبت اليهم أن يدرسوا ما قام به « مجلس الثقافـــة الهندية » هناك . ولربما أثبتت هذه الخبرة الامريكية اللاتينية قيمة عملية عظيمة في افريقيا الآن .

---

(١) بقية من الهنود الحمر .

هرر

HARAR

يوم جبل الله طينة[١] اثيوبيا لم يقنعه أن يشكّل منهـا هضبة واحدة ، فبنى ثنتين ، وشقّ بينهما وادياً عميقـاً يفصل الواحدة عن الأخرى . هنـاك تقوم تانك الهضبتان ، تدير كل واحدة منهما ظهرها للاخرى ، جُرف يواجه جرفاً ، واسلام يجابـه مسيحية ، و « هرر » قبالة « أديس ابابا » . ويتجه وادي الهضبة المسيحية صوب الشمال ؛ أما وادي الهضبة الاسلامية فينحاز من الشرق إلى الشمال فالشرق مرة ثانية . وتشكّل الهضبتان الآن بـلداً واحداً ودولة واحدة ، أما في الأيام الغابرة فقد نشبت الحرب بينهما أكثر من مرة واحدة . ولقـد نجحت هضبة المسلمين في قهر رفيقتها المسيحية في القرن السادس عشر ، لكن الأيام تغيّرت بعـد ثلاثة أرباع قرن ، واستطاع الامبراطور المسيحي « مانيليك » أن يقهر خصمه المسلم ، حاكم هرر .

وقـد وضع « مانيليك » هـذا انموذجاً حراً للعلاقات المسيحية — الاسلامية ، ساعة انتصاره . لقد ثبّت أمير « هرر » المسلم المهزوم في امارته ؛ وجعله حاكماً محلياً تحت اشراف « راس ماكونين » ابن عم الامبراطور والرجل الذي كان يده اليمنى في تصريف الأمور . هذا هو

---

(١) اثيوبيا هنا هي دولة الحبشة الحالية لا « مملكة اثيوبيا » التي استعملها المؤلف سابقـاً كمرادف « للنوبة » ، وفي حدود السودان الحاضر .

« راس ماكونين » الذي تنتسب إليـــه الأسرة الحاكمة في اثيوبيا في الوقت الحاضر ، بل انه والد الامبراطور الحالي « هايل سلاسي » ، الذي يمكن المرءَ ان يشاهد الدار التي سكنها والده في « هرر » ، ويرى كيف علّمه المبشرون الفرنسيون الكاثوليك في تلك البلدة .

وفي « هرر » شيد « منليك » و « راس ماكونين » كثيراً من الكنائس ، لكنهما لم يحوّلا المسجد الجامع في المدينة إلى كنيسة ، كما فعل الأسبان في « جامع قرطبة » [1] الشهير ، وردّ عليهم الاتراك في حال كاتدرائية « أيا صوفيا » [2] في القسطنطينية . ان شيئاً من ذلك لم يحدث في اثيوبيا .

وبعـــد الحاق « هرر » باثيوبيا نزح إلى أطرافها كثير من فلاّحي « الامهرة » الذين كانوا يقطنون في المناطق المجاورة ، ووجدوا فيهـــا متسعاً كافياً من الأرض دون ان يضيّقوا على فلاحي « الغالة » المسلمين . وتقوم الآن علاقات ودية في مدينة « هرر » وأقليمها ، بين المسلمين والمسيحيين في المدينة ، وبين الأمهرة واهل هرر والغالة جميعاً في الاقليم . وحين تلقى مسلماً مثقفاً من « هرر » في « اديس ابابا » تجد انه منسجم تماماً مع رفاقه الأمهريين المسيحيين . والحق ، ان اثيوبيا بلد قد كُتب له النجاح في بناء مجتمع واحد يضم العناصر المختلفة من سكانه . هـــذا إذا استثنينا القبائل الصومالية الرعوية في شبه صحراء « اوغادن » ، حيث تنحدر نجود « هرر » تدريجياً إلى الجنوب الشرقي .

وأديس ابابا [3] مدينة حديثة ، عصرية ، وضخمة . وكان الامبراطور « منليك » هو الذي اوجد نواة هذه المدينة من العدم ، ثم جرى تحويلها وتوسيعها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . وهناك مدينة حديثة في « هرر »

---

(١) سنة ١٠٧١ م .

(٢) سنة ١٤٥٣ م عند فتح القسطنطينية .

(٣) سكانها نصف مليون نسمة (١٩٦٢) .

ايضاً ، لكنها على مقياس اصغر من رفيقتها العاصمة . وتقوم الهـــرر الحديثة خارج أسوار هرر التاريخية المسلمة ، التي هي شائقة بقدر مــا هي مدينة أثرية قديمة .

وقبيل بروز اديس ابابا و «نيروبي»[1] حديثاً ، كانت « هرر » هي المدينة الوحيدة الجديرة باسم مدينة في شرقي افريقيا مـــا بين مدينة « غندار (جندار) » الاثيوبية إلى الشمال من بحيرة « تانا Tana » ، ومدينـــة « زنزيبار »[2] العربية التي تقوم على جزيرة قبالة ساحل افريقيا الشرقي . ومع ان التطورات الحديثة قد جردت « هرر » من تفرّدها فلا زال لديها كثير من المناطق الخلفية الخصيبة والجميلة .

قِف عند أي من بوابات سور المدينة الخمس ، وراقب الغادين والرائحين من مكانك ؛ هناك ترى تنوعاً مدهشاً في فئات الناس : فلاحين غالةً وأمهريين ، رعاة أغنام وساقة جمالٍ صوماليين ، والهرريين أنفسهم — وهم فئة تجارية مدنية لهم لغة خاصة بهم يحكونها داخل الأسوار فقط ، وهي لغة ضيّقة معزولة من اللغات الاثيوبية . ومدينة « هرر » هي البؤرة التي تتجمّع فيها هذه الأصناف المتنوعة من فئات البشر ويقومون بنشاطهم التجاري فيها دون أي سوء تفاهم بينهم . انهم من أعراق مختلفـــة ، لكنهم جميعاً يشتركون في قدود جميلة وتقاطيع رقيقة ، والثياب الزاهية المرحة التي تزيد زهواً لكونها على بشراتهم السمراء الداكنة .

ما هو مستقبل هذه المدينة العتيقة ؟ سيظل لها مستقبل مزدهر طالما استمرت النجود المحيطة بالمنطقة ناشطة في توفير الغذاء للقاطنين ، وطالما ظل القاطنون دائبين في فلاحة هذه النجود كما يفعلون في الوقت الحاضر . وقد قدنا سيارتنا مسافة على طول الطريق الموصل بين « هرر » و « جيجيغا

---

(١) عاصمة كينيا وسكانها ٣٥٠,٠٠٠ نسمة (١٩٦٥) .
(٢) سكانها ٧٥,٠٠٠ نسمة (١٩٦٥) .

Jijiga » ، فذكّـرتنا سفوح الهضاب المجدّرة بمعالم الأرض في إيطاليا . والزراعة في الحبشة ذات مستقبل مضمون ، فالبـلاد محظوظة في ان لديها موارد زراعية عظيمة لم يجرِ تطويرها والانتفاع بها بعدُ . ولا شك أن محاصيلها الزراعية ستكون مطلوبة إلى السوق العالميـة يوم يتضاعف سكان كوكبنا الارضي أو يغدون ثلاثة أمثالهم .

وفي ضوء هذه الحقيقة تبرز أهمية الكلية الزراعية في « العالميّـة Alemaya » ، المطلة على الطريق المفضية إلى هضبة « هرر » من « ديرداوا Dire Dawa » ، وهي مركز السكة الحديدية والمطار في السهول المنخفضة الجافة عند حضيض هضبة « هرر » . وتقوم هذه الكلية بجهود اساسي في البحث العلمي ، كما تقوم بمثيله في التدريس العملي . انها تدرس تركيب التربة الكيماوي في جميـع مناطق اثيوبيا ، وتستقصي الحياة النباتيـة والحيوانية هنـاك . هذا علاوة على انها تجري التجارب المخبرية اللازمة لاكتشاف أفضل المحاصيل ، وانسب فصائل المواشي لمختلف أنواع التربة والمناخات التي توجد في اثيوبيا . وستظل اثيوبيا لمدة طويلة قطراً زراعياً ورعوياً بصورة أولية ، وامكانياتها الزراعية عظيمة جداً . ومن الواضح أن تلك الكلية ذات دور بالغ الأهمية تلعبه في تطوير اثيوبيا .

هنا في « العالميّة » يسير العمل البنّـاء في هدوء . أما في « اوجادن Ogaden » ، في الطرف الأقصى من هضبة « هرر » ، فهناك نشبت حرب بين اثيوبيا والصومال [1] : اثيوبيا تريد حماية حدودها الاقليمية كما هي قائمة الآن ؛ والصومال يطالب باوجادن التي يقطنها صوماليون ، كجزء

---

(١) تستحوذ الحبشة على قطاع كبير من ارض يقطنها أقوام ليس لهم في حكمها نصيب ، وإنما يساسون بالاكراه ، وبنفس من التعصب الديني المقيت ، وبسياسة التجهيل والادماج . ومن هؤلاء الصوماليون في اوغادن وأهل اريتريا المسلمون. ولذلك فاننا نخالف المؤلف رأيه في الاستقرار الظاهري في البلاد، ونتنبأ ان يختلف الحال بعد وفاة الامبراطور الحالي وتنبه الأحباش المسيحيين أنفسهم إلى حقوقهم المهضومة .

من ارضه القوميـة . لذا ينشب الصراع ، ويكون من شأنه أن يلتهم موارد ماليـة ضخمة لا يتسنى لأي من الدولتين توفيرها بيسر . كذلك فإنه يغري الدولتين في المساومة على استقلالهما من جراء قبول الأسلحة من الدول الأجنبية . وهـذا في الواقع صراع مؤسف ، لا للخصمين المتنازعين فحسب ، بل لافريقيا كقارة واحـدة ؛ وستكون النكبة عامة فيما لو استمر طويلاً . أما الطريق الوحيد للتوفيق بـين المطالب المتعارضة التي ينشأ منها هـذا الصراع كما يبدو لي ، فهو تقرب اثيوبيا والصومال من بعضهما في صورة شكل ما من أشكال الاتحاد . دعنـا نأمل أن يتم الوصول إلى شيء من هذا القبيل . إذ يا لها مأساة ان تجد نزاعات الحدود التي أحالت اوروبا ساحة قتـال هائلة في الماضي ، أية مثيلات أخريات لها في افريقيا ساعة بزوغ فجر الاستقلال في هـذه القـارة !

الطريق الى جمة

THE ROAD TO JIMMA

أثناء طريقنا من « أديس ابابا » صوب الجنوب الغربي ، رَقِينا خط تجمع مياه منخفض بين جبلين ، ووجدنا أنفسنا نسير بسرعة فـــوق منبسط من الأرض البركانية الغنية ، بينا مضت الطريق أمامنا في خط مستقيم على امتداد البصر . كانت هذه الأرض المستوية كالمنضدة نسخة « طبعة ») من حجم أكبر لمنبسَط « شوا Shoa » في شمال شرق« اديس ابابا» كا أنها جزء من « شوا Shoa » الآن ؛ لكنها قبل قرن من الزمن كانت مجرد برية قفر ، ينتشر فيها عدد قليل من الأسر الرعوية من الغالة الوثنيين . لكن .. حتى « اديس ابابا » نفسها ، عاصمة اثيوبيا الآن ، كانت لا وجود لها قبل قرن . بل إن الموقع الذي تقوم فيه كان يقـــع خارج الحدود التاريخية لـِ « شوا Shoa » ، بـــل في الواقع ، خارج حدود الحبشة (Abyssinia) نفسها ، كا يمكن تسمية ذلك العنقود من القصبات المسيحية التي كانت تنحصر فيها الامبراطورية الاثيوبية قبـل عهد الامبراطور « مانيليك » .

لقد انقذ « مانيليك » اثيوبيا من الوقوع فريسة من الفرائس الكثيرة للاستعمار الاوروبي في افريقيـــا ، وذلك بقيامه هو بدور نشيط في انتهاب افريقيا ذاتها . فاثناء حكمه كأمبراطور ، الذي بدأ في الثمانينات من القرن التاسع عشر ، وسّع « مانيليك » حدود امبراطوريته أكثر

من ضعف رقعتها الاصلية ، كما حصل على اعتراف الدول الاستعمارية الاوروبية المجاورة بالحدود القصية التي رفرف عليها علمه الجديد .

كيف أنجز « مانيليك » كل هذا ؟

لقد انجزه جزئياً بفضل موهبته الفذّة في انتخاب قادة اكفاء والقدرة على الاحتفاظ بولائهم لشخصه ، وجزئياً من جهة اخرى لحسن حظه في وراثة موطن يتمتع بالضخامة من حيث المساحة وعدد السكان ، كما يوفر لامبراطوره وسائل تمكنه من تثبيت سيطرته في الأقاليم المجاورة له . وكان موطن هذا الامبراطور هي « شوا Shoa » ، التي نعبر جزءها الأكبر ، والاكثر خصوبة ، في سيرنا جنوباً غرباً الآن ؛ وهي المنبسط الذي أشرت اليه من قبل .

كانت « شوا الجديدة » قد ضُمت إلى « شوا القديمة » قبل ارتقاء « مانيليك » العرش ، وكان قد سبق لها أن غدت مسيحية يسكنها الأمهريون عن طريق عملية طويلة من التسرّب السلمي . فالخارجون على القانون من اهل « شوا القديمة » وأهالي الحواضر القديمة في « الحبشة Abyssinia » ، اشتغلوا جنوداً عند زعماء الغالة المحليّين . ثم لحق بهؤلاء الرواد الطريدين مستوطنون فلاّحون مسالمون ؛ ومع مرور الزمن غدت « شوا الجديدة » أمهرية مسيحية قبل أن يبسط « مانيليك » سيطرته عليها بصورة رسمية . وحالما غدت « شوا الكبرى » هذه بين يديه ، توفرت« لمانيليك »الوسائل الكفيلة بتوسيع سيطرته شمالاً على الولايات التاريخية الاخرى من ولايات الحبشة : « جوجام » ، « بغمدار » ، « تغري » وجنوباً وجنوباً شرقياً على اراض لا يقطنها امهريون .

وكان هذا استمراراً لعملية ظلت جارية لأكثر من ١٢٠٠ سنة من قبل . فالساميون الاوّلون الذين استقروا في هضبة الحبشة إنما حبسوا أنفسهم داخل طرفها الشمالي . وهناك تقترب الهضبة أعظم اقتراب لها

من البحر الاحمر ، الذي عبره هؤلاء الوافدون من الهضبة الشقيقة على شاطئه الآخر في بلاد العرب ، أعني هضبة اليمن. ومن هذه البقعة التي اتخذها الوافدون موطىء قدم لهم في نجود شرق افريقيا ، اخذ الناطقون بلغات تغري والأمهرية – والذين تحولوا إلى النصرانية منذ القرن الرابع بعد الميلاد – يتقدمون في طريقهم تدريجياً شطر الجنوب صوب مناطق اكثر صحيّة.

والطرف الشمالي لهضبة الحبشة صلب ، وجاف ، ومقفر. وحين يعبر المسافر ذلك الطرف إلى الجنوب ، فانه يكون سائراً في الطريق لملاقاة الرياح الموسمية القادمة من المحيط الهندي ؛ وكلما تقدم جنوباً زادت الخضرة النباتية التي تكسو وجه الأرض.

ومع ان « الامطار الخفيفة » كانت لمّا تبدأ وقت زيارتنا لتلك المنطقة فقد تجلى تماماً ان « شوا الجديدة » اكثر خضرة من « شوا القديمة » إلى الشمال من « اديس ابابا ». ولقد تابعنا السير قُدماً على طول الطريق المستقيم عبر سهل مستوٍ تماماً. ولا يمكن أن يكون ذلك السهل مستوياً حقاً بالقدر الذي يظهر للناظر اليه ، فحين بدأت معالم الأرض تتوضح لنا أخيراً ، رأينا أنفسنا نجتاز بيّارات للموز لا بد انها تقوم في مستوى ارتفاع ادنى بكثير من مستوى « أديس أبابا » البالغ ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. كان طراز الاكواخ المدوّرة ، أيضاً ، آخذاً في التغير ، فسطوح هذه الاكواخ المغطاة بالحصُر ، والتي يسمونها « تقول Tukul » – لهي اكثر انخفاضاً إلى الأرض مما كنا نراه قبل وصولنا اليها. كنا قد تركنا الرواد الامهريين والغالة المتنصّرين من خلفنا ، وشرعنا نجتاز أراضي « القراغي Guroghé » ، وهم قوم ذوو عقلية تجارية يتكلمون لغة ساميّة خاصة بهم.

وزاد تكشّف معالم الأرض في هذا الدرب كما أخذت الطريق تلتوي

وتنعطف . وفجأة وجدنا أنفسنا نجابه اخدوداً هائلاً ارتفعَ قبالته في الجانب المقابل جدار عال من الجبال الزرقاء ، وزوجٌ من مترهورنز Matterhorns مصغـّرة تنقـّط المسافة المتوسطة . كانت الطريق الآن تنعطف متعرجة ومنحدرة إلى أسفل وأسفل فأسفل ، وقد أسلمت التربةُ السوداء مواقعها لصخور مبعثرة ، واستحال النبات أدغالاً شبه صحراوية مثل تلك التي اجتازتها طريقنا قبل بضعة أيام ، في الأرض المنخفضة بين « اديس ابابا » و « هرر » .

هنا كانت قردة البابون تنطّ مجتـازة الطريق ، او تقعي في عُرشها فوق أغصان الأشجار . واستمرت الطريق في التلوي والانعطاف ، وأخذنا نلحظ ارتفاع درجة الحرارة ، ولاح لنا من بعد نهر كبير في المنخفض . وحين بلغناه اخيراً وعبرناه فوق جسر عالٍ رأيناه من هناك يتدفـّع في طريقه بين شاطئين من الصخور البازلتية البديعة المنظر . هذا هو نهر « اومو Omo » الذي يجري في اتجـاه الجنوب حتى يخرج من تخوم اثيوبيـــا لينصبّ في بحيرة « رودلف Rudolph » .

كان ارتقاء ضفة النهر الغربية أعجب وأعسر من الهبوط اليه خارج « شوا الجديدة ». وكثرت منعطفات الطريق وزاد عددها ، وحين وجدنا أنفسنا آخر الأمر مرتفعين جداً ، سارت الطريق على هدب حادّ كشفرتي سكـّين ، بين رؤوس الأودية التي بدت تهدد بمحوها من جراء قرضها فيها على الدوام . وأخيراً بلغنا نجداً مستوياً ثانياً يتجه جنوباً غرباً بانخفاض ، وكان كلما زاد انخفاضه في ذلك الاتجاه زادت خُضرته : أولاً في درجة خضرة « الرفييرا الفرنسية » ، ثم كخضرة « انكلترا » ، وأخيراً في خضرة « ايرلندة » عند مشارف مدينة « جمة » حين اطلالنا عليها .

* * *

كنا الآن قـد دخلنا أرض ولاية « كفـّا Kaffa » مذ عبرنا الجسر فوق « نهر اومو » ، اذ أن هذا النهر هو الفاصل بين « شوا الكبرى » وبين

« كفـّا » ، أو على الأصح إن ضفتي الاخدود العجيبتين اللتين شقهما النهر في الصخور هما اللتان تفعلان ذلك . وأهل « كفـّا » من الغالة ، لكنهم غالة مسلمون ، لا مسيحيون شأن غـالة « شوا الجديدة » الذين هم من الوثنيين المتحوّلين . ويعود السبب في كونهم مسلمين إلى ان ذلك الدين كان قد انتشر ورسّخ أقدامه في « كفـّا » قبل أن يضمها الامبراطور « مانيليك » ويلحقها بأمبراطوريته الاثيوبية بوقت طويل . ويقال ان « كفـّا » هذه هي التي وهبت شجيرة البنّ اسمَها : « قهوة » ، وهي لا تزال شجيرة بريّة هنـــا على كل حال . ويجمع حبوب هذه الشجيرة البرية يستطيع أهل « كفـّا » أن يكسبوا قوتهـــم بقليل من الجهـــد . يتم استنبات شجيرات البن في « كفـّا » في مزارع حديثة اليوم ، ويزعم الكثيرون ان هذا البنّ هو أجود أصنافه في العالم .

واثناء ما كنت واقفاً على الجسر في « جِمّة » ، كانت المروج على جانبي الغدير القريب زمردية الخضرة ، وكان المطر يشخب ، والضفادع في نقيقها العـــالي تشكـّل جوقة مبهجة . أطبِق جفنك وانسَ اللون الأبنوسي لهـذه الوجوه الجميلة القسمات من افراد الغالة : بذلك تستطيع ان تتصور انك في « كري Kerry » أو « تبراري Tipperary » .

لقد خدم « مانيليك » بلاده اثيوبيا من ثلاثة وجوه حين وسّع حدودها القديمة ، فهو قد وفـّر لها استقلالها السياسي ؛ كما أضاف حواشي خصيبة إلى قلبهـا الحبشي الصلب ؛ وكذلك وفر للسكان الأمهريين المكتظين من أهل الحبشة الاصيلين عوالم جديدة يتمددون فيها وينتشرون . وهذا ما نشِط له الامهريون حقـاً . فقد انصبّت جموعهم الآن في معظم الأقاليم الجديدة التي تم الحاقها بالحبشة . وكان نزوحهم على شكل حركة جماعيّة مثل تلك الحركة التي قام بها الرومان حـــين تمددوا في مختلف مناطق إيطاليـــا في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد ، وكانتشار الأتراك في

اوروبا في القرن الرابع عشر من الفترة المسيحية ، أو ما فعله الامريكيون في ارجاء قارتهم اثناء القرن التاسع عشر بعد ذلك .

وقد تم انتشار الامهريين في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين بأقل قدر من المضايقة والصعوبة للسكان الأقدمين في هذه الأقاليم نصف المأهولة . هناك كان ، ولا يزال ، متسع لجميع الوافدين الجدد . وقد اختلط مهاجرو الأمهريين بالأقوام التي وجدوها في مرتاداتهم الجديدة ، وتعلموا لغـــاتهم . وعلى العكس من المألوف في تلك الحال ، صارت الأمهرية هي اللغة الأدبية الراقية لجميع الفئات التي تقطن الامبراطورية الاثيوبية . وإذا أردتَ أن تستقرىء شيئاً نبوئياً عن مستقبل اثيوبيا ، فاقصد الجنوب ان هذه الأرض الممرعة التي تنال أول نصيب مـــن الأمطار الموسمية هي أرض الميعاد لأثيوبيا الحاضرة .

لالي بيلا

LALIBELA

ما تلك الكنيسة الكبيرة القائمة في قرية صغيرة مقعية على الرفّ بين جبل واخدود : أهي « دبرا ليبانوس Debra Libànos » موطن طائفة الرهبنة الاثيوبية الأصيل ؟ هذا ما تشير اليه الخارطة التي نحملها . وحسب هذه الخارطة لا بد أن تكون الطائرة التي تقلّنا فوق « دبرا ليبانوس » ، في طريقها من « أديس بابا » إلى المدرج الجوي جنوب « لالي بيلا » . وما تلك القُنّة[1] amba ذات السطحين[2] التي نلمحها إلى يميننا : أهي « مجدلة Magdála » حيث انتحر الامبراطور « ثيودور » حين طرقت قوّات « نابيير » عليه أبواب موقعه ؟ قد تكون « مجدلة » ، غير أن هناك المئات والألوف من مثل هذه القنّة في اثيوبيا .

لكن ما هي « القنّة » في هذه البلاد ؟

القُنّة في اثيوبيا جبل شامخ مستوٍ في قمته كسطح المنضدة ، بينا تنحدر الهُوّات من كل جانب فيه ؛ وفي الذروة يتوفر الماء وتوجد تربة بركانية خصيبة تسمح بزرع المحاصيل . وبالتالي يغدو في ميسور المرء أن

---

(١) لم نجد كلمة معينة مقابل amba فآثرنا قنـة وان اختلف المعنى مكتفين بالشرح التفصيلي اللاحق .

(٢) الدبلودكس Double - deck حيوان خرافي منقرض من فصيلة الديناصورات كان ضخماً مدرعاً وله في رأسه الواحد دماغان . وعجز عن تكييف نفسه في البيئة فاندثر .

يعيش على القنّة ويبقى هناك من ميلاده حتى مماته ، دون أن يجدُ نفسه مضطراً إلى الهبوط من عرينه ، ما لم يكن فضولياً يهمّه التفرج على دنيا الآخرين .

لكن لماذا كانت اثيوبيا مرصعة بهذه القُنن ؟

لأن الخالق شاء للبازلت المنصهر أن ينزّ من تحت الصخور الأقدم ثم ينتشر فوق النصف الجنوبي الشرقي لهضبة الحبشة [1] Abyssinia وكأنه زينة من القشدة على كعكة محلاّة . والواقع أن هذا النصف من الهضبة كان في أصله قنّة هائلة واحدة . ولا بدّ ان عبور تلك القنة ، بين طرفيها ، في ذلك الزمان كان سهلاً على البشَر قدر ما هو سهل أن تسير نملة على « شُقّة » من القماش مدهونة بالزيت . ومع هذا فقد عبرها الناس . وحيث نحتت أقدام البشر [2] معبراً ضئيلاً على سطح الصخور ، جاءت الأمطار الموسمية السنوية فكسحت ذلك التجويف ، عاماً بعد آخر ، وألوفاً تلو ألوف من السنين ، حتى بات التجويف البسيط اخدوداً رائعاً يلمع في قاعه الغائر نهر ينحصر ماؤه بين ضفتين شديدتي الانحدار .

يا لحَظّ مصر السعيد ان الأمطار عملت بجدّ عظيم ودأب متواصل لتحوّل معابر المشاة في اثيوبيا إلى وديان وأخاديد ! إذ كيف يتسنى للزراعة في مصر ان تزدهر لولا الهديّة السنوية التي تتلقاها البلاد من رسوبات الحتّ البركانية في اثيوبيا ؟

على أن المرء لا بد وان يتساءل : هل كان في تقسيم عوامل الطبيعة

---

(١) استعملنا اثيوبيا للدلالة على البلاد في حدودها الحالية ، أما الحبشة فهي الهضبة الأصيلة وقلب البلاد قبل أن تتوسع الدولة إلى ما هي عليه الآن .

(٢) لقد تم التكون الجيولوجي قبل ظهور البشر في المنطقة ، ولربما كان المؤلف يعني العصر المتأخر ، وأما قبل الانسان فكانت المعابر بفعل الرياح والحيوانات .

فالهضبة المجزأة الواحدة في الحبشة إلى عشرة آلاف قنّة منعزلات ، خدمة البلاد ؟ أكان ذلك حظاً سعيداً جادت به الطبيعة على تلك الهضبة المجزأة ؟ نعم ، ولا . فقد جـاء ذلك في صالح استقلال اثيوبيا . اذ ان كل قنّة لهي قلعة طبيعية زوّدتها الطبيعة ذاتها بالماء والزاد . وهكذا كان كل وادٍ يعزل قنةً ما عن رفيقاتها إنما يحبس سكان تلك القنة عن الاتصال ببقية العالم . وبالتـالي ، كنتيجة لهذا التشكّل العجيب ، ظلت البلاد مستقلة منيعة حتى يومنا الحاضر ، كما كان « الفضاء الخارجي » حتى الوقت القريب .

والواقع ان اثيوبيـا حتى فجر « عصر الطيران » لم تبق معزولة عن بقية العالم فحسب ، بل ظلت مجزّأة إلى عدة « اثيوبيات » وعوالم خاصة بالـكاد يستطيع أهلوها الاتصال فيما بينهم .

قد تكون أقرب قنّة لساكن قنّةٍ أخرى على مسافة دقيقتين بالطائرة لكنها ربما احتاجت إلى يوم وليلة كاملين من السير على الاقدام لذلك الرجل ، أو لبغله الذي يمتطيه . ألا يكون عليه ان يهبط من قنّته إلى الوادي ثم يصعّد من جديد إلى القنّة المقصودة !

نحن في « عصر الطيران » الآن ، أما في أثيوبيا فان « عصر الطيران » هذا لمّا يطرد السير على الأقدام ، كما أنـه لم يزحزح قوائم البغال عن مكانتها . انهم لا يزالون في حاجة اليها هناك . وبمقدور الطائرة ان تحلّق فوق القنّة المستوية ، وتعبر الوديان الغائرة .. هذا صحيح .. لكن أنّى لها المدارج التي تهبط فيها أو تقلع منها ؟ ان العثور على بقعة تصلح لأن تكون مدرجاً للطائرات لهي مشكلة تورث الصداع المزمن في رؤوس المهندسين الاثيوبيين .

* * *

لقد عبرت طائراتنا مسيل نهر « تاكازي Takazzè » قبـل قليل ،

ونحن نلمح من الجو منبع النهر تقريبـــاً ، إلا أن الأخدود لا يزال ينحدر بضعة آلاف قدم إلى الأسفل . هل يمكن ان يكون هذا الماء السحيق الذي ألمحه في الغور الآن هو نفسه الماءَ الذي رأيته قبل اسبوع في السودان وهو يسيح في شبه صحراء مستوية ليتصل بالنيل على أنه ماء نهر عطبرة ؟ يبدو أنه هو .

« نحن فوق لالي بيلا » ، هذا ما يقوله قائد طائرتنا في مكبر الصوت . اذن فنحن على التأكيد نحلـّق في صورة دائرية فوق كنائس « لالي ـ بيلا» المنحوتة في الصخور ، والتي تتوّج تـلاً يمكن اعتبـــاره عاليـاً بحق لولا وجود « أمبا مريم » سامقة مطلـّة عليه . ها هي « كنيسة المخلـّص » وهناك « كنيسة الثالوث » ، وتلك « كنيسة القديس جورج » ، وبعدها « كنيسة السيدة » . اننا ندور في الجـو مرتين فوق الموقع ، ونشدّ أحزمة المقاعد ، وسنهبط أرض المدرج في غضون دقيقتين . أما لو حاولنا العودة على الأرض ، من المدرج إلى الكنائس المنحوتة في « لالي بيلا » ، فاننا سنحتاج أكثر من ساعتين من الزمن .

ها هي بغال اهل « لالي بيلا » تنتظرنا للركوب ، وها هم المواطنون مستبشرون برزق جديد . كيف لا ، ونقلُ السواح إلى تلك الكنائس ثم العودة بهم إلى « لالي بيلا » يشكـّل المورد الرئيسي لصناعة الصيرفة في المدينة ! ان بلدية « لالي بيلا » تُصدر أوراق يانصيب رسميّ في كل مرة تكون فيها طائرة تقلّ سوّاحاً على وشك الوصول ، ويكسب الساحبون المحظوظون كامل الرسوم التي يدفعها السوّاح ، أما مردود بيع التذاكر فهو يكفي لنفقات الادارة البلدية النشيطة !

وحين نهبط من الطائرة ونركب البغال ، يتم انتقالنا من « صنعة »[1]

---

(١) صنعة : يقصد الشيء الدخيل المصطنع والمجلوب إلى غير موطنه الأصيل .

العـــالم الحديث إلى اثيوبيا الأصيلة . فالطائرة شيء مجلوب . وكذلك « اديس ابابا » القصبة الغاصمة التي بدأت منها الطائرة رحلتها . ان مطار « اديس ابابا » الآسر ، وشوارعه العريضة المفروشة بالاسفلت ، وبناياته العامة الفخمة .. تليق بأي عاصمة في المائة بلد « النامية » في العالم . وأنت تستطيع الوصول إلى « اديس ابابا » بطريق الجو ، وتقضي عاماً هناك في فندق ، ثم تغادر البلاد ، جواً أيضاً ، دون أن تجـري أي اتصال حقيقي مع « اثيوبيا » نفسها . لكننا الآن نجري اتصالاً حياً مع البلاد فيما البغل ينقل خطواته هبوطـاً إلى أول منخَفض في درب البغال الموصل من المدرج إلى « لالي بيلا » . اننا نركب بغالنا الآن عبر ريفٍ متآكل ، سطحُه متموج وكأنه سطح بحر هائج .

***

« آبابا » ، « حسناً ، رفيق قديم » هذا ما يخاطبني به صاحب البغل في ودّ . انه يخمّن لنفسه عمري ، ويتنبأ ان ركوب البغل ، هذا ، سوف يقضقض عظامي . وهذا ما حصل فعلا . فقد كنت منهاراً من التعب حين اوصلني البغل إلى الساحة المكشوفة وسط « لالي بيلا » بعد زيارة الكنائس . وهذه الساحة غريبة المظهر في هذا المكان . انها ساحة تحدق بها أشجار الزيتون البريّ الضخمة ، وجميـع اهل « لالي بيلا » من الذكور يجتمعون الآن في ظل تلك الأشجـار . لِمَ يفعلون ذلك يا ترى ؟ بالأمس اشتعلت النار في أحد بيوت المدينة ، فهل هي المصادفة أو التخريب ؟ هذا ما يجري بحثه في الاجتماع العام تحت اشجار الزيتون .

وهنـــالك كاهن يجلس في مقعد القضاء بينما يقـــوم كاهن آخر بوظيفة النائب العام . آه ، هذا الاجتماع من الرجـــال اللابسين حللاً (توجا) بيضاء كما كان يفعل الرومان القدماء : اين سبق لي ان رأيته يا ترى ؟ آه ! رأيته في صورة فوتوغرافية لبازار حبشيّ يومَ السوق ..

ولقد رأيته في جريدة « إلستريتد لندن نيوز Illustrated London News » في أيام الطفولة . وانطبعت تلك الصورة في ذهني عميقة يومذاك ، وها أنا الآن أرى نسختها الأصلية على الطبيعة بعد ستّين سنة من ذلك التاريخ .

***

هل ألقى الأمهريين ؟ [١] لا أدري ، أنا لم أقابلهم حتى الآن ، إلا في موكب أطفال كانوا في طريقهم إلى المدرسة في « اديس ابابا » . أما هنا في « لالي بيـــلا » فها أنا بين ظهرانيهم ، وأقابلهم في بيئتهم التقليدية ذاتها .

كان جميع صغار « لالي بيـلا » يتحلّقون حولنا ونحن نقوم بذلك المجهود المضني في الطريق من كنيسة إلى أخرى . وحـين ترجّلت عن بغلي كنت أظن أن الحركات الاكروباتيكية التي تعـيّن علي القيام بها ذلك اليوم قد انتهت ريثما أعود إلى ركوب البغل في العودة إلى مدرج الطائرة على الأقل . غير ان زيارة الكنائس كانت تمريناً اكروباتيكيـاً في حد ذاتها . كان الحشد المرافق لنا كبيراً ، وكانت الشمس حارة ، والممرات شديدة الانحدار ، بل غائرة على صورة هُوى [٢] في بعض المحلات ؛ بيد أن الزيارة كانت قمينة بالجهد . لكن لقاء الأمهريين ، والتفرج على الكنائس أشياء لا تتسنى دون مجهود جسدي عسير على من هـو في الخامسة والسبعين من سنيه [٣] .

لقد رأيت الهياكل الصخرية والأضرحة في « ايللورا » بالهند ، ولا

---

(١) الامهريون : أهل هضبة الحبشة أصلاً ، وهم مسيحيون (ارثوذكس يعاقبة) أقباط . وسيتحدث عنهم المؤلف طويلاً فيا بعد .
(٢) هوى : او هوات جمع هوة .
(٣) اشارة إلى عمر المؤلف نفسه .

يمكن اعتبار هذه الكنائس الحبشية المنحوتة في الحجر نِداً لتلك الهياكل ، لا من حيث الضخامة ولا الزخرفة في النحت ، لكنها في بساطتها وقعت في نفسي أكثر من طراز الفن الهندي السخيّ التزاويق . انها آثار ونُصُب نبيلة لكنيسة الحبشة قبل انشقاق « خلقدونية »[1] ، يوم كانت كنيسةَ النوبة ومصر وسوريا وارمينيا وجنوب غربي الهند أيضاً . في تلك الأيام كانت كنيسة اثيوبيا تشمل ربع رقعة العالم المسيحي آنذاك . القِ الأمهريين يا ارنولد[2] ، القَهم وأنت تستطيع ذلك . فبعد أن ترجلنا عن بغالنا في المدرج ثم أقلعت بنا الطائرة من جديد ، فارقنا « عالم الحبشة » مرة ثانية .

(١) خلقدونية : مجمع خلقدونية في آسيا الصغرى الذي تبلور فيه انشقاق المسيحية إلى كنيسة شرقية لا تقبل عبادة الصور ، وغربية تفعل ذلك .
(٢) آرنولد : المؤلف نفسه .

دبرا ليبانوس

DEBRA LIBANOS

« آه يا مستر « بورتر »[١] ماذا أعمل ؟ ركبتُ القطار إلى « بيرمنغهام » فأخذني إلى « كرو » » ! واليومَ ركبنا نحن الطائرة إلى « القاهرة » ، فأوصلتنا إلى « اثينا » . .

في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعـين كانت السماء زرقاء صافية في « اسمرة Asmara » ، وظلت كذلك أثناء طيراننا فـوق « سواكن Sawakin » — وهي مدينة — جزيرة خاصة ، يحيط بها ذراع بحري من النهر الاحمر . وكذلك استمرت تلك السماء ونحن نطير فوق وريثة « سواكن » الحديثة ، مدينة « بور سودان Port Sudan » . ومن الجو لاح لي ثلم مستقيم في الرمل الأصفر يعيّن طريق السكة الحديدية النافذ إلى داخل البلاد . وحين انحرفت الطائرة إلى اليسار ، استطعت ان استوعب في نظرة بانورامية شاملة كامل منعطف الـ S المقلوبة من مجرى نهر النيل من « شندي Shendi » الى « ابو حمد Abu - Hamad » و « مروي Merawi » إلى « دنقلة Dongola » .

كنت شاهدت نتفاً من هذه المجموعة أثناء زيارتي « مروي » في طائرة محليّة حلّقت بنا على ارتفاع قليل منذ شهر تقريباً . وها هو النيل الآن

---

(١) تقال للتعجب والتشكي من سوء التنظيم ، ومدينة كرو في غير اتجاه بيرمنغهام .

يجانبنا مرة ثانية . في هذه النقطة ، حيث يعرُض النهر ، تقوم الجمهورية العربية المتحدة ببناء السد العالي ؛ وهنــا مطلّة على الشلال الأول تقوم قبة ضريح « آغا خان »[1] . وتفرد حقول صعيد مصر نفسها تحتنا الآن على صورة خريطة كبيرة ، وعندما تقذف طائرتنا نفسها فوق عرض النيل عند « الأقصر » يُخيّل إليّ انني أميّز مسلاّت هيكل « حتشبسوت »[2] على قاعدته مصفوفة بين التلال الغربية .

اننا على ارتفاع ٣٦٠٠٠ قدم في الجو ، ومع هذا فإن الرؤية جيــدة جداً . إذن ، فإن السفر في طيارة نفاثة (جت) لم يكن مخيّبــاً ولا فاشلاً هذه المرة . وفي هذا الارتفاع ، لا بد أن يكون الوقت مناسباً لنبدأ تثبيت أحزمة مقاعدنا ؛ غير انه ، في هذه اللحظة ، يصلنا من الجو صوت خشن . لا ، ليس من الجو ، لأنه : في لحظة قصيرة ، قد انقلب ذلك الجو الصاحي والسماء الصافية التي رافقتنا من أسمرة — إلى جو عاصف . إذن من القاهرة ندّ ذلك الصوت .

ونسمع :

« هناك عاصفة غبار ورياح عالية . ان مدى الرؤية الجيدة لا يتجاوز عندنا مئــة متر » .

وما هي مئة متر للهبوط بطائرة جت ؟ هل تكفي ؟

« اننا سنهبط في بيروت بدلاً من القاهرة » هذا ما يقوله قائــد

---

(١) اغاخان : أوصى ذلك الزعيم أن يدفن هناك ، وقامت زوجته البيجوم اغاخان بتنفيذ الوصية بعد وفاته .

(٢) حتشبسوت : الملكة المصرية القديمة ، صاحبة المسلة المشهورة وزوجة واخت الفرعون تحتمس الثالث الذي ظفر على أعدائه في موقعة مجدو (بفلسطين) سنة ١٤٧٩ ق. م.

طائرتنا في « أثينا » [١] ربما تتابع الطائرة التي كنا فيها رحلتها إلى « مدريد » [٢] ، ثم تقلنا ثانية في رحلة عودتها من هناك . لكن هذا شرط غير مضمون الوفاء ، فالعاصفة هي السيد المتحكم بمصيرنا في الوقت الحاضر ، إذا عنّ لها ان تنتهي في القاهرة في هذه الاثناء تسنى للطائرة ان تنقلنا إلى هناك في الساعات الأولى من الصباح ؛ أما إذا استمرت العاصفة في الهبوب ، فان الطائرة قد تقلنا إلى ما وراء القاهرة جنوباً ، من يدري إلى أي مدى ؟ رجوعاً إلى « أسمرة » ؟ أو أبعد الى « اديس ابابا » ؟ أو أقصى إلى « نيروبي » ؟ ان طائرة « جت » قد تتصرف بسماجة مثل تصرفات جواد جون جلبن Gohn Gilbin [٣] .

وأياً تقلّب علينا الحال فانه أفضل لنا أننا طرنا وضيّعنا الهدف من ان نكون قد آثرنا العافية وبقينا في موضعنا . وهذا ما جرى معنا قبل اسبوع من هذا اليوم : اثناء ما كنا في الطريق إلى مطار « اديس ابابا » لنستقل الطائرة إلى « جندار Gondar » [٣] أبلغنا المسؤولون ان الرحلة قد أُلغيت . وقيل لنا يومذاك ان مطار « جندار » قد غمرته المياه . هذا ما أفادت به السلطات الرسمية ، وهو ما دفعني جهلي إلى تصديقه ، إذ تبدو « جندار » على الخارطة وكأنها محادّة لبحيرة « تانا » فيمكن ان يكون المطار مقاماً في منطقة مستنقعات .

ولم يكن قبل هبوطنا في المطار ذاته بعد أربعة ايام ، ان اكتشفتُ ان « جندار » تقوم على مرتفع من الأرض حتى ان مياه

---

(١) عاصمة بلاد اليونان ، سكانها مليونا نسمة .

(٢) عاصمة اسبانيا ، سكانها ٢،١٥٠،٠٠٠ نسمة .

(٣) بطل الأسطورة الانكليزية المشهورة ، والتي يتصرف فيها جواده ضد رغبات صاحبه وعلى صورة توقع سيده في ورطة تلو أخرى .

(٤) بعضهم يكتبها جوندار .

بحيرة « تانا » بالكاد تلمع في الأفق من هناك . يومذاك كان مدرج المطار جافاً كالعظم . وقيل لي إنه كان كذلك (من قبلُ) يوم أُلغيت رحلة طائرتنا العتيدة . لم تكن الأمطار الخفيفة هي التي ألغت الرحلة ، وإنما كانت الحرب الاثيوبية – الصومالية هي السبب . لقد انكشف ان الطائرة قد أُمرت بنقل جنود اثيوبيين إلى « أوغادن Ogaden » .

ولما لم يكن هنـــاك أية وسيلة أخرى للوصول إلى « جندار » قبل موعد الرحلة الجوية التالية في البرنامج إلى هناك ، فان أصدقاءنا الكرام في جامعة « اديس ابابا » نظموا لنا رحـلة جميلة أثناء ما كنا ننتظر . وقلنا لأنفسنا : إذا تعذر علينـــا السفر إلى « جندار » بطريق الجو ، فان بمقدورنا السفر براً إلى وادي النيل الأزرق .

وهكذا شرعنا من « أديس ابابا » في تسلق سلسلة الهضاب التي تكوّن خط المياه بين حوض « أواش Awash » وحوض النيل الأزرق ، ثم وجّهنا شطر الشمال الغربي . كنا الآن نجتاز هضبةً غير متماوجة قد تكون أقل خصباً من الهضبة الجنوبية التي اجتزناها في طريقنا إلى « جمـــّة Jimma » ، لكنها غنية بقطعان الماعز والأغنام . وقد تلوّت الطريق عبر الهضبـة بين نتوءات صخرية بارزة ، ثم فتح واد عميق شدقيه بصورة مفاجئة . وجانبتْ طريق فرعية باتجاهه ، رأينا في اولها إشارةً تقول « دبرا – ليبانوس على مسافة اربعة كيلومترات » وقال المشرف على الرحلة : « سوف نزور « دبرا ليبانوس » في طريق عودتنا ، وافضلُ وقت لزيارتها حين يكون الرهبان يرتلون في الجوقة . فهم يشتغلون في الحقول من السادسة صباحاً حتى الواحدة بعد الظهر ، ويرتلون من الواحدة إلى الثالثة والنصف ، ثم يتناولون الوجبة الوحيدة التي يسمح بها قانون رهبنتهم في تلك الساعة . وهي محددة بأقل ما يمكنه الابقاء على أجسادهم في صحة جيدة ، ومن أجل أن يجعلوا طعامهم غير شهيّ ولا لذيذ يضيفون اليه عُشبة مُرّة

يلتقطونها من الحقول . أما بعد تناول الطعـام فانهم ينصرفون إلى نوع آخر من المجهود العضلي . دعنا نتفرّج عليهم وهم يرتلون بعد الظهـر ، ان منظرهم آسر فعلاً » .

***

وفاقاً لما ارتآه المشرف على الرحلة تابعنا طريقنا إلى وادي النيـل الأزرق . وليس الوادي الذي تقع فيـه « دبرا ليبانوس » إلا وادياً رافداً ، مع انه يمكن اعتباره مثيراً للحسّ وجديراً بالاعتبـار في أي بلد آخر . وقادتنا الطريق إلى طرف انتهت عنده الهضبة وتثاءبت الأرض فاغرةً فاها . وفي أعماق حلقوم الأرض ، لمعت مياه النيل الأزرق في الأدنى من بعيد . واستطعنا أن نرى طريقنا متعرجة ملتوية سفلاً إلى القاع ، ثم متعرجة منعطفة صعُد حاشية « جوجام Gojam » باديـةً عبر شق الوادي إلى طرف « شوا Shoa » .

كان الوقت قد حان للرجوع إذا شئنا الاستمتاع بترتيل الرهبان ، لكن معوّقاتٍ الآن كانت تعترضنا في الطريق . فقد كان العمال يعيدون بناء الطريق التي تعبر الوادي من طرف إلى طرف ، ولما كانوا قد بدأوا من جهة « جوجام » فقد أكملوها الآن تقريباً إلى جهة « شوا » . هنا تحت غُرّة هضبة « شوا » ، سلكنا طريقنا الخيطيّ في رحلة قدومنا خلال حشدٍ من البولدوزرات [١] والقلاّبات [٢] . أما في رحلة عودتنا فقد عانينا الكثير من ركام الصخور التي كوّمت في عرض الطريق أثنـاء

---

(١) جرافة تعمل لتسوية الأرض في الطريق وأراضي البناء. وقد استعمل قاموس « المورد» هذه الكلمة في محاولة لتعريبها .

(٢) سيارات الشحن للرمل والتراب ومواد البناء ، ويجري تفريغها اوتوماتيكياً من جراء ارتفاع هيكل الحمل بفعل ضغط الهواء في اسطوانات متداخلة في قاعه .

قيامنا برحلتنا القصيرة ، ونحن لاهون في الجانب الآخر . وحين أشار مراقبو العمال اشارة الوقوف كان هنـاك قطر لا نهائي من سيارات الشحن يُفرغ حمولته من الصخور ، فوق طريق سبق ان غدت متعذرة العبور . وكان مراقبو العمال سيبقوننا ننتظر الفراغ من العمل في السادسة مساءً ، وربما اضطرونا إلى المبيت في الخارج ، لولا أن المشرف المحترم كلّمهم بلهجة رجلٍ في يده سلطة ما وذو حيثية كبيرة . وتحت الالحاح العاجل من ذلك الرجل حُوّلت البولدوزرات إلى تسويـة ذاك الركام الصخري المتنافر ، وازاحة الأحجار من النصف الذي لم يتم تخريبـه (لتعميره) بعدُ ، بحيث يتيسّر شريط صالح للمرور إلى « دبرا ليبانوس » و « اديس ابابا » . على أن هذه التسوية « الملحّة » ضيّعت من وقتنا ساعة كاملة ، وفي الوقت الذي وصلنا فيه المنعطف ، كان الرهبان من قبلُ قد خرجوا من الكنيسة ، وهم يأكلون « وجبتهم الاسبلوطية »[1] آنذاك .

***

ان « دبرا ليبانوس » أو « جبل لبنان »[2] ، ليس جبلاً في الواقع على الرغم من اطلاق ذلك الاسم عليه ؛ انه مجرد هدب أو رفّ صخري على صفحة وادي ، دونه صخور وفوقه صخور أيضاً . أمـا الكنيسة الكبيرة التي ازورها الآن فهي تلك التي لمحتها من الجو في الطريق من « اديس ابابا » إلى « لالي بيلا » . وهي كنيسة ضخمة بالفعل ، لكنه

---

(١) أي الخشنة ، شأن وجبة العدس الاجبارية التي حتمها المشرع ليكورغوس على موائد اسبارطة في تاريخ الاغريق القديم .

(٢) لا نعرف تفسير هذا التوافق في الاسم، لكنه ينفي رد كلمة « لبنان » إلى معنى البياض كناية عن الثلج ، فليس في دبرا ليبانوس أية ثلوج ولا بياض .

ليس هذا ما يضفي على « دبرا ليبانوس » قداستها . ان عمر هذه الكنيسة عامان لا أكثر ، وليست مبنية على الطراز الاثيوبي التقليدي ، كما أنها ذات أقلام وخطوط تكاد تكون نسخة من « منبر برومبتون » ، ويصح أن تكون هيكلا لأي طائفة مسيحية غربية [١] في أي مدينة في غرب اوروبا . ومع هذا تظل « دبرا ليبانوس » مقدسة بالرغم من هذا المظهر المستورَد الكبير .

والواقع ان عجز الكنيسة الجديدة عن التقليل من قداسة « دبرا ليبانوس » لهو حجّة على عمق جذور قداسة هذه المدينة . خذني أنا مثلاً على ذلك : لقد نالت « دبرا ليبانوس » لديّ نفس المرتبة من القداسة التي تحظى بها أقدس ثلاث بقع مسيحية زرتها في حياتي . انها في نفس مرتبة « بيت المقدس » ، و « آفيلا Avilla » ، و « آسيسي Assissi » . وكما أن آفيلا « قدْس » مصغّرة لا بد أنها نُقلت من فلسطين [٢] إلى « قشتالة » على اجنحة الملائكة ، فان « دبرا ليبانوس » صورة منقولة بامانة عن الصومعة التي تطل على « آسيسي » على صفحة « مونت ساباسيو » الجنوبية الغربية . هناك نفس العنقود الكثيف من الأشجار الذي يستر عُري الصخرة . أما الشجرة الأضخم في « دبرا ليبانوس » فهي شجرة زيتون برية عملاقة ، وان كان المظهر المميز للغابات في المنطقة هو التنوع فيها .

وتروي الاسطورة ان القديس « تقلا هايموني » قد اختفى موقتاً بين

---

(١) أي ليست مرتبطة بكنيسة القسطنطينية الارثوذكسية، بل بكنيسة روما الكاثوليكية وما انشق عنها من كنائس قومية بعد الاصلاح الديني المعروف .

(٢) يعني من بيت المقدس ، فآفيلا صورة طبق الأصل لكنيسة « الجثانية » في « وادي جهنم » على الطريق بين القدس وقرية سلوان . وفي أرض هذه الكنيسة يقال ان المسيح قد دفن ، كما ان في باحتها زيتونة قديمة تؤخذ نتف منها للتبرك والنذور .

هذه الأجمات بعد أن عـــاش المرحلة الأخيرة من عمره كناسك هناك . يومذاك انسحب القديس من هذا العالم بعد أن صنع تاريخـاً ، إذ كان قد سبق له وأقنع ممثلاً للأسرة الحاكمة في البـــلاد ، ذا مستندات غير مثبوتة ، ان يخلـّي مكانه لصالح أحد أحفاد الملك سليمان[١] الشرعيين . لكن القديس « تقلا هايموني » بقي مستحوذاً على قلوب المسيحيين الأحباش طوال هذه الثمانمائة عام كزاهد ناسك لا كصانع ملوك . ولقـد استشعرتُ وجوده على هذه الصورة في الكنيسة الصغيرة القائمة على البقعة التي يقال انه عاش فيها . وهنالك قبور بين أشجار الزيتون البريّـة . وبعض أصحاب هذه القبور مذكورة اسماؤهم على الشواهد ، ومعظمهم مجهولون ، لكنهم جميعاً يشتركون في الرغبـــة في أن يُدفنوا في حمى ذلك القديس علـّهم ينالون بعض قداسته وبركته . زُر « دبرا ليبانوس » إذا استطعت ، وستنـــال مكافأتك هناك ، سواء كنت مسيحياً أو اغناطوسياً[٢] .

---

(١) النبي سليمان الذي بنى الهيكل في القدس ، وكان ملكاً على مملكة يهوذا مـــا بين ٩٣٠ - ٩٩٠ ق م. ويزعم اباطرة الحبشة انهم ينتسبون إلى ولد غير شرعي له من بلقيس. هذا مع ان التاريخ يكاد يجزم ان بلقيس التي قابلت سليمان كانت اميرة عربية من شمال الحجاز.

(٢) اللاأدري ، أي من يعتقد بأن وجود الله وطبيعته وأصل الكون - كل هـــذه امور لا سبيل إلى معرفتها .

من جندار الى اكسوم

From Gondar to Axum

هناك شرم كبير بين « جندار » و « اكسوم » ، فهنا تقع الفجوة الطبيعية بين « هضبة جوجام وبغمدار Begemeder » و « هضبة تغري Tigré » . انها الخليج الجيولوجي ، إذا صح التعبير ، الذي يفصل « تغري » عن المنبسط البركاني الخصب الذي تشترك فيه الهضبة الواقعة جنوب الخليج مع هضبة « شـــوا » القائمة في الجنوب الشرقي من الانعطاف الكبير للنيل الأزرق . وهنا أيضاً يقوم الخليج اللغوي ، إذا صح التعبير مرة ثانية ، الذي ينطبق على رفيقه الجيولوجي إلى حـد كبير . ذلك ان « بغمدار » و «جوجام » تشتركان مع « شوا » في التكلم باللغة الأمهرية التي تتكلمها أغلبية المسيحيين الاثيوبيين الناطقين بالساميّة . اما « تغري »والقسم المحاذي لها من « اريتريا » فيتكلم أهلها اللغة التغرينيّة والتغرية على الترتيب .

وجميع هذه لغات ساميّة من المجموعة الحبشية . بيد ان الأمهريـة والتغرينية ـ تغرية لم تعد الواحدة منهما مفهومة عند الناطقين بالأخرى . ولا شك في أن الخليج الطبيعي القديم سبب من أسباب الخليج اللغوي الحديث ، فقد ظلت « تغري » و« بغمدار » منفصلتين احداهما عن الأخرى ، تجنباً لعدة أيام من السفر سيراً على الأقدام أو ركوباً على ظهور البغال ، قبل بناء الطريق الحديث للسيارات بين المنطقتين . واخيراً عُبدت الطريق .

وكان ذلك في حد ذاته عملاً جباراً من أعمال الهندسة المدنية الحديثة .

وتسير على هذه الطريق .. وبعد بضعة أميال إلى الشمال من « جندار » ، تنفتح أمامك فجوة في التلال التي تتسلق حولها الطريق ؛ ومن هذه الفجوة يلوح للنظر فجأة عالم خيالي غريب من الأعماق المدوّخة ، والمرتفعات ، والهُوّات ، والذرى . هنا ضارعت الطبيعة « بروسبيرو Prospero »[1] ونظرت بعينه حين شكّلت ما يشبه القلاع والقصور . ومثل تصوراته يبدو ما تراه الآن شيئاً غير حقيقي البتة ، وسرعان ما يتلاشى ، حين تطبق عليه التلال ثانية ، في لحظة ، كما كشفته .

هل كانت هذه الرؤى مجرد خداع بصري ؟ بالفعل .. فهي تبدو وكأنها قد ذابت في الهواء الرقيق حين تتابع الطريق مجراها من جديد – وتظل كذلك لساعتين أو ثلاث - فوق هضبة « بغمدار » غير الرشيقة . إذن آن لنا أن نستنجد بالخارطة . ونفتحها .. فإذا هي تشير إلى أن علينا ان نعبر وادي « تاكازي Takazze » إذا شئنا وصول « اكسوم » من « جندار » . لكن الهضبة تستمر وتستمر ! هنا بدأت تساورنا الشكوك حول موثوقية الخارطة إلى أن ظهر لنا عالم « بروسبيرو » الخيالي من جديد . وكان ظهوره هذه المرة عيانياً وعن قرب وجاهي .

بعد ذاك أخذت الطريق التي ظلت في مستوى واحد من الارتفاع تقريباً حتى هذه الساعة ، تتغير بصورة فجائية ، ودون أي تحذير لنا أو لعجلات السيارة . ان الهضبة تنتهي .. وها هي الطريق تتعرج هابطة في واد يظهر انه لا قاع له . يا لهذا الهبوط ! انه انحدار شديد إلى

---

(١) بطل رواية العاصفة « لشكسبير » والملك الذي طرده أخوه بالختل والغدر ، ووضعه في سفينة حطمتها الرياح وقذفت به وبطفلته الصغيرة في جزيرة غير مأهولة . وكان بروسبيرو ساحراً فسخر الارواح في خدمته ، وبفضلها اصطنع زوبعة أغرقت سفينة كان فيها ابن اخيه .

درجة ان اجزاء الطريق المنخفضة عنّا لا تُبين ابداً . إننا نهبط ، ونهبط ، ونهبط من جديد . وبعد هبوط بضعة منعطفات اخرى ترانا ندخل منطقة القرود والسعادين . ولقد رأينا هذه الحيوانات المسلّية عند اقترابنا من منطقتها تتواثب فوق الحاجز بصغارها على ظهورها ، ثم تندس مختفية في الاحراج ، وهو عمل أقل ازعاجاً ووحشة لها من الاقتراب من ابناء عمومتها[١] . ونواصل الهبوط .. ومـا هي الا بضعة تعرجات اخرى في طريقنا حتى نكون قد خلّفنا منطقة القرود وراءنا وفوقنا أيضاً .

ويبدو ان القرد أقل قدرة على التكيّف بالمناخات والأجواء المختلفة من نسيبه الانسان . فالهضبة أشد برداً مما تستطيع القردة تحمله ، أما قيعان الوديان فأشد حرارة كذلك . ان الانسان وحده هو الذي يستطيع التأقلم في كلا الجوّين وفي منطقة القرود أيضاً .

وإذا كانت القرود تستطيع الوثوب بنشاط من صخرة إلى اخرى ، فإن طريقنا لا تقل عنها كفاءة في ذلك : إنها تنِطّ بدورها من حافة صخرية إلى اخرى . ويبدو ان سلسلة الانحدارات التي نهبطها لن تنتهي ، شأنها شأن دركات الهبوط في « العـالم السفلي » عند دانتي[٢] في جحيم كوميدياه . لقد بلغنا المنطقة المدارية الآن ، فارتفعت درجة الحرارة إلى مثلها في السودان ، ومع ذلك فسنظل نهبط سفُلاً حتى نبلغ القـاع ، آخر الأمر ، عند جسرٍ يرتمي فوق نهير صغير فيه قليل من الماء . هل هذا الغدير الحقير هو التاكازي المشهور ؟ طبعاً ، ان هذا الوقت هو نهاية الفصل الجاف في اثيوبيا ، أي ان منسوب الماء في جميع أنهارهـا هو

---

(١) يقصد رفاقه في السيارة أو البشر قاطبة .

(٢) الشاعر الايطالي المعروف في مطلع عصر النهضة وصاحب « الكوميديا الالهية » ومنها « جحيم دانتي » الذي تصور فيه وجود عظماء الشعراء الكلاسيكيين من أغريق ولاتين . ويقال ان هناك علاقة نسب بين « رسالة الغفران » للمعري وبين هذه الكوميديا .

أدنى ما يكون .

ولأعـد إلى الذاكرة قليلاً .. حين رأيت نهر عطبرة يفرغ حمولته في النيل قبل بضعة أسابيع كانت مياهه غزيرة واكثر مما اراه الآن بكثير ، مع ان عطبرة هذا هو التاكازي . بيد ان الطريق أخذت ترقى بمجرد أن عبرنا ذلك الجسر الحقير ، وهي آخذة في الارتفاع للمرة الأولى بعـد هبوطها الشلاّلي منذ غادرنا هضبة « بغمدار » . انها الآن ترقى وترتفع . فهل يكون ذلك النهير هو التاكازي حقاً ؟ وهل سنجد أنفسنا عـلى هضبة « تغري » بمجرد ان تختفي الطريق في فجوة ضئيلة بين جبلين صغيرين في هيئة أسنان حوتين !؟

لقد وصلنا تلك الفجوة أخيراً ، وبدلاً من أن نجد هضبة ، انفتح أمامنا تِيهٌ من الوديان المتعاقبة والحفافي الصخرية ، واحدة تلو اخرى. أين التاكازي ؟ هاهو أحد المارّة ، وهو يقول ان النهير الذي خلّفناه وراءنا لم يكن التاكازي على الاطلاق ، فهو لا يزال على مسافة ٢٥ كيلومتراً أمامنا في الطريق . وأية كيلومترات هـذه الخمسة والعشرون ههنا ! فبدلاً من الهبوط ، ها نحن نرقى أولاً ثم نهبط ، ثم نرقى ثانية ثم نهبط من جديد .. على طريقة مفاتيح الكهرباء . ان الهـوّة التي هبطناها قبل قليل تقوم الآن خلفنا كجدار أزرق لا سبيل إليه ، ولو لم نكن نعلم أن أفق مقدمة سيارتنا هو طرف هضبةٍ لحسبناه طرف سلسلة جبال شاهقة .

ونظل نسير .. ونظل ننظر ، وقدّامنا جهـة اليمين تتمزق الهوّة إلى ذرى وأعمدة ، وفوق هذه الذرى تلوح الآن ، من خلال الهضاب ، تلك الكتلة الجبلية العملاقة ؛ أي جبال « سمين Semien » [1] أعلى جبال

---

(١) وأعلاها جبل رأس دهشان الذي يبلغ ارتفاعه ٤٦٢٠ متراً .

اثيوبيا ، والقمم التي كانت معقلا « للفلاشا Falasha » (وهم اليهود السود الذين شُهروا بتعبدهم للسبت كإلهةٍ لهم) في يوم من الأيام . وأخـــيراً وصلنا ضفة وادٍ ضئيل إذا ما قورن بتلك الوديان التي عبرناها من قبلُ ، غير أنه في قاع هذا الوادي الصغير كان يسيل التاكازي الحقيقي . يا له من متدفق جبار ! ان حجم مياهه ههنا يساوي حجمَه عنـــد النقطة التي يتسكع فيها ببلادة فوق الرمال ، قبيل اتصاله بالنيل .

وحدثتني نفسى قائلة :

« ها هو نهر آخر للعبور ، فما ان نعبر التاكازي ونتسلق الصفحة الشمالية من واديه ، حتى نجد أنفسنا فوق « تغري » أخيراً . » وهكذا كان . فبعد ساعات من الصعود والهبوط والانعطاف والدوران ، ها هي الطريق قد غدت مستوية مستقيمة كما كانت في بدايـة الرحلة . نعم ان هناك أخاديد على يمينها ، وأخاديد على يسارها ، والجميع يهدد بقرضها بين أنيابـــه .. لكنها تراوغ وتتجنبها جميعاً وتستمر ماضية في استواء : إلى الشرق أولاً ، ثم في اتجاه شمالي شرقي بعد ذلك . ها نحن على أرض هضبة مرة ثانية . ولكن ما أشد الفرق بين هـــذه الهضبة الحجرية القاسية وبـــين تلك الأرض الجيرية التي بدأنا رحلتنا منها ! ان هضبة « الأمهريين » هي « أفريقيا السعيدة Africa Felix » ، أمـــا هضبة « التغريين » فهي فلذة من « الصحراء العربية Arabia Deserta »[1] . ودخلنا « اكسوم » في الليل ، ولكننا حين نظرنا من النافذة في الصباح وجدنا أنفسنا في مكان ذي معالم ارضية شبيهة بتلك التي يراها المرء على حافة الصحراء في الأردن أو سوريا .

ليس مما يثير الدهشة ان نجد جمالاً في « أكسوم » ، فهذه الحيوانات

(١) لاحظ الاشارة الضمنية إلى Arabia Felix أي اليمن ، و Arabia Deserta أي باقي شبه الجزيرة العربية الصحراوي .

تناسب طبيعة الأرض ، دون النظر الى أن الجمل حيوان ذو اربع قوائم مرتبط بالمسلمين بينا هضبة « تغري » ارض مسيحية . وليس مما يثير الدهشة أيضاً - في مثل هذا الوسط الطبيعي - ان نجد بيوتاً مربعة الشكل مبنية من الحجر بدلاً من اكواخ الـ « مقول » المدوّرة المبنية من اللبن . ومثلُ ذلك أن نجد أعمدة حجرية مصرية ، ومسلاّت ، وسراديب تحتيّة مبنيّة من الحجارة الضخمة ، بحجارتها المنحوتة متداخلةً في بعضها على شكل فصالات ، تماماً كما نجد في الآثار والنصب المصرية القديمة .

هنا يوجد الرقيم الشهير الخاص بالملك « ازناي Aeznes » ، حاكم « اكسوم » الذي دمر « مرو Meroe » في شمال السودان وتحوّل إلى المسيحية . ورقيم هذا الملك مكتوب باللغة السبئية من جهة واحدة وباللغة الاغريقية منَ الجهة الأخرى . وليس هذا غريباً بدوره أيضاً ؛ ففي أيام الملك « ازناي » كانت هضبة « تغري » جزءاً مستقلا معترفاً به ضمن العالم المتحضر منذ أكثر من الف عام . وهكذا يمكن القول بأن ثقافة « تغري » ، شأن بقية شمال افريقيا ، يمكن الحاقها بثقافة غرب آسيا . والحقيقة ، أن وادي نهر التاكازي هو الذي يحدد التخم[1] بين أفريقيا وآسيا أكثر مما يفعل قنال السويس .

***

ليس الخليج الفاصل بين « اكسوم » و « جندار » فجوة تضاريسية ولغوية فحسب ، بل إنه فجوة في التاريخ والزمن ايضاً . فأقدم الآثار الموجودة في « جندار » لهي أبكر من رقيم « ازناي » في « اكسوم » بحوالي ثلاثة عشر قرناً . أما الآثار الموجودة في « جندار » هذه فهي

(١) اشارة إلى الخلع الجيولوجي الذي انشق منه فرع البحر الأحمر شرقاً ووادي النيل حتى بحيرة فكتوريا ، غرباً . هذا من حيث التضاريس . أما المؤلف فهو يجعل ذلك الوادي حداً بين ثقافتين : ثقافة جنوب غرب آسيا والثقافة الزنجية الافريقية .

عنقود من الحصون بناها مجموعة من الأباطرة الذين حكموا البـــلاد في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ويعود أقدم هذه الحصون إلى ما بعد طرد البرتغاليين من الحبشة في الثلاثينات من القرن السابع عشر . ويبدو للرجل الأوروبي أن طراز البناء المستعمل في ذلك الحصن لهـــو طراز غرب - اوروبي ، إلا أن بعض علماء الآثار قرنوا حصون « جندار » هذه إلى ناطحات السحاب[1] في حضرموت من جنوب الجزيرة العربية . ولا شك أنه كان هناك يوماً ما بنايات عالية مثلها في « اكسوم ». اما أعلى المسلات التي لا تزال قـــائمة هناك ، والمسلة الأطول التي ترقـد الآن محطمة ، فهي منحوتة لتمثل دوراً ذات عدة طوابق وتنسجم معها .

وملخص القول : ان « اكسوم » تخص الماضي ، والماضي البعيـــد على التخصيص . اما « جندار » التي تقابلها في الجانب الآخر فانها لا تخص الماضي وحده بل ترتبط بالوقت الحاضر بنفس القدر . انها مركز كلية للصحة العامة تشكل فرعاً من جامعة اديس ابابا . ويقوم أساتذة وطلاب هذه الكلية بعمل أساسي في تحسين الصحة في القرى الحبشية . ومن شأن عملهم هذا ان يغطي الفجوة التي تحجز بين الطبقة المثقفة الحديثة في بلد « متطور » وبين الفلاحين البطيئي التحول في ذلك البـلد . واراني لا اعدو الحقيقة حين أقول : بمقدور كلية الصحة العامة في « جنـدار » بالتعاون مع الكلية الزراعية في « العالمية » أن تبدّلا طريقة حياة الفلاحين الاثيوبيين ، هؤلاء الذين سيظلون يشكلون الأكثرية الساحقة من أهـل اثيوبيا إلى الأبد .

---

(١) بنايات متعددة الطوابق كان معظمها قصوراً للأقيال أو مراكز إدارية للمحافد . وهي في كل من حضرموت واليمن ، ويرى بعض المؤرخين ان بناءهـــا يرقى إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد .

الانحدار الى مصوّع

The Descent to Massawah

اثيوبيا زوج من الهضاب ، واحدتها تقابل الاخرى ، حافةً تنطح حافة ، بينما يشق واد سحيق طريقه بين الهضبتين . ولقد ارتقينا الهضبة الجنوبية الشرقية من « ديرا داوا Dire Dawa » إلى « هرر Harar » ، ومن شأن هذه الطريق أن تفتح عين المسافر على شدة انحـدار جروف هذه الهضبة ، وتسترعي انتباهه إلى فجأة التغير في طبيعة تكوينها : من حفافي جروف صخرية مشظاة إلى أرض متدرجة رخيّة في القمة . أما الهضبة الشمالية الغربية المعروفة باسم الحبشة Abyssinia منذ القِدم ، ففيها جروف منحدرة أيضاً ؛ وهي تنتهي سفْلاً في منخفض « دناكل Danakil » الذي يغوص تحت سطح البحر عند نهايته في الطرف الشمالي ؛ لكنك لا تحسّ شيئاً من هذا الجرف الحبشي حين تسافر من اديس ابابا جهة الشرق .

هنا تهبط اثناء سفرك من درجة حرارة مستوى ٨٫٠٠٠ قدم فوق سطح البحر إلى درجة شبه استوائية توجد على مستوى ٢٫٠٠٠ قدم ، لكن هبوطك يكون تدريجياً ناعماً ، إلى حد انك لا تـكاد تشعر الفارق الكبير لولا ما تلحظه من اختلاف في درجة الحرارة بين الموقعين . إن هذا الانتقال السهل من الهضبة الشمالية الغربية إلى المنخفضات الشرقية لهو واحد من ميزات « اديس ابابا » الجغرافية الحسنة . والمفروض أن

تكون هذه الميزة احد الاعتبارات التي جعلت الامبراطور « مانيليك » يقيم عاصمته الجديدة في موقعها الحالي . كيف لا وقطاع « اديس ابابا » من حافة هذه الهضبة الشرقية يشكّل قطاعاً مثالياً لاقامة المدن ، وبخاصة من حيث الانحدار التدريجي بين الهضبة الشمالية الغربية وبين الأراضي المنخفضة . هذا فيما يسير جرف شديد الانحدار على طول معظم ذلك القطاع من جهة الشرق ، ويكون الهبوط إلى الأراضي المنخفضة من تلك الطريق هبوطاً خطراً تعترضه هوّات كثيرة .

لقد حدّقت في الصور الفوتوغرافية المأخوذة لطريق اديس ابابا — اسمرة ، والتي تتسلق ذلك الجرف صعداً في مجموعة متعاقبة من الانشوطات والتعرجات في « ماي شو Mai chow » بين « ديزي Dessie » و « ادغرات Adigrat » . لكن « ماي شو » لم تكن ضمن برنامج زيارتي لأثيوبيا هذه المرة ، وبدلاً من السفر من « اديس ابابا » إلى « اسمرة » بالطريق المباشر بينهما ، والذي ينحدر مع الجرف الشرقي إلى « ديزي » ثم يصعد من هناك إلى الجرف الشرقي ثانية ، اخترت سلوك الطريق غير المباشر ، الذي يمر بـ « جندار » ثم « اكسوم » على درب تعبر الوديان الغربية .

تُرى سيجعلني هذا الاختيار اغادر اثيوبيا دون ان اخطو فوق الجرف الشرقي في أية نقطة منه ؟ كلا ، لحسن الحظ . لقد وصلنا « اسمرة » ولدينا يوم اضافي كامل نستمتع به قبل أن يكون علينا ان نركب الطائرة التي ستقلنا إلى القاهرة ، والتي نقلتنا إلى بيروت واثينا كما ألمحت . في ذلك اليوم بمقدورنا ان « نهوي » من اسمرة المحلقة على ارتفاع ٧,٨٠٠ قدم إلى عنقود جزر البحر الأحمر التي تقوم عليها مدينة « مصوّع » ، كما يمكننا بعد ذلك ان نرقى عائدين إلى « اسمرة » قبل حلول الظلام . هذه هي القطعة المتميزة من المعالم الاثيوبية التي قُدّر لها أن تكون المنظر الوداعي الذي نشهده من بلادها العجيبة الغريبة .

اثناء ما كنا ننطلق من « اكسوم » شرقاً على هضبة « تغري » القاحلة لاح لنا من بعدٍ بحر خاضب ذو رؤوس وذرى صخرية متدافعة كما تتدفع الأمواج . وبدت لنا محطّمات الموج الحجرية هذه ذات شفرات مثلّمة مثل تلك التي تقوم عند القدم الشمالي من سلسلة جبـــال « تامبيان Tembien » العملاقة .

وفي مكان ما بين « ادوا Adua » و « ادغرات Adigrat » ، يقع السهل العشبيّ الذي ظفر فيه « مانيليك » بانتصاره التاريخي على الجيش الايطالي الغازي . لكننا كنا قاصدين « اسمرة » فلن نزور ذلك المكان . وفي « ادي ابون Adi Abun » ابتعدت طريقنا عن تلك التلال الحادة الطرف كالسكاكين وظلّت في نطاق الهضبة المستوية الأرض نسبياً . هل تظل مستوية على هذه الصورة حتى آخر الطريق ؟ بالكاد فعلتْ ذلك . إذ ان جداراً من الصخور سرعان ما برز قبالتنا من الشمال . هــذه هضبة اريتريا ، وهي أعلى من هضبة تغري بحوالي ٢٠٠٠ قدم تقريباً . في حضيضها يسير نهر « مأرب Mareb » الذي ظل حتى ما قبل سبعين سنة مضت هو الحد الفاصل بين اريتريا والقسم المجاور لها من الحبشة . ويبدو نهر مأرب على الخريطة وكأنه في حجم التاكازي . فهل تراه يتبـّين لنا انه نديد له في عمق اخدوده ايضاً ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فان بضع ساعات ستنقضي قبل أن نصل حضيض صخور اريتريا في العدوة الأبعد من النهر .

في هذه المرة ، أثبتت تضاريس اثيوبيا انها اكثر رقة ودماثة ممـــا كنا نتوقع منهـــا . فحين وصولنا مأرب ، لم يكن هناك واد البتة ، ولا ماء أيضاً ؛ كان مجرد قاع صخري مشظى خِلو من أي ماءٍ يسيل فيه . إذن فإن نهر مأرب لهو تخم طبيعي فاشل . وفي لحظة كنا قد اجتزناه وطفقنا نتسلق صخور اريتريا .

وتلوّت طريقنا فيها مرة ، وتلوّت مرة ثانية ، أليست ترتفع هضبة « اريتريا » على سطحها الجنوبي في طابقين ؟! وأخيراً بلغنا القمة ، ووجدنا أنفسنا فوق أرض مستوية كانت أكثر صخرية وأكثر تنفيراً من منبسط « تغري » الأوطأ الذي خلـّفناه وراءنا . الآن أدركنا لمـــاذا لم يقنع السامّيون الأولون الوافدون من الجانب الغربي للبحر الأحمر بمجرد ارتقاء الجانب الأفريقي من ذلك البحر إلى ارتفـــاع يوازي موطنهم العربي الأصيل . لقــد اندفعوا قدُماً من « اريتريا » الصخرية إلى « تغري » الصخرية ، ومن « تغري » الصخرية انطلقوا من جديد إلى « شوا » الجيرية ؛ حتى أنهم في عهد « مانيليك » كانوا قد وصلوا من قبلُ إلى الجنة الارضية في الجنوب الأخضر .

كانت هضبة اريتريا صخرية وجافة ، وكانت النتف المفلوحة نادرة ، والسطح الصخري يمتد بعيداً أمامنا في اتجاه الشمال . وبدت لنا الطريق مملة لا نهاية لها ، حتى لاحت في الأفق الشمالي سحابة ليست أكبر من يد الرجل ، ثم طلعت ثانيةٌ ، وعقبتها ثالثة ، إلى ان تغطى وجه السماء الصافية من قبلُ بغيم كثيف . كنا الآن نقترب من الطرف الشمالي الشرقي لهضبة اريتريا الضيقة . وكانت هذه الغيوم قد غشّت صفحة الجرف على طول الطريق الصاعدة من ساحل البحر الأحمر .

ثم اننا سريعاً ما كنا نجتاز الضاحية الصناعية لمــــدينة اوروبية . هنا أصبح الهــــواء ساقعاً ورطباً . وحين لاحت الكاتدرائية الرومانية الكاثوليكية أمامنا بدأ سقوط رذاذ من المطر . كنا الآن وكأننا ندخل « شامبري Chambéry » أو « جنيف » أو مدينة ما أخرى على السفح الشمالي لجبال « الألب Alps » . وكان يمكن أن يأتي ذلك الرذاذ القارس من شمال المحيط الأطلسي لا من البحر الاحمر . ولففنا أنفسنا في أغطية

الصوف وذهبنا إلى الفراش ، آملين طقساً مثل طقس جبال « سيسلبيا Cisalpine »[1] في اليوم التالي .

ولقد تحققت آمالنا فعلاً . ففي الصباح ، كانت السماء صافية مشرقة ، وحين رقينا إلى القمة لم يكن هناك غيمة واحدة تعكّر المنظر البديع الذي طالعناه . ان الصخور « الاريترية » التي تنحدر إلى البحر الاحمر تقزم الصخور التي تهبط إلى هضبة « تغري » . والطريق إلى « مصوّع » تلفّ هابطة من حاشية صخرية إلى أخرى ، بينا تظل سكة الحديد مجابهة تلك الطريق على نحو اعجوبي يتم لها بغوصها في بطون الانفاق .

والمنطقة الأكثر علواً من الجرف منطقة صخرية مقفرة مثل ذروة الهضبة ؛ أما المنطقة العالية الأقرب إلى الذروة فهي خضراء ، لكن المنطقة العالية الثالثة سخية النبات ، والأزهار منتشرة فيها كما هي الحال في منطقة الألب السويسرية ، ذلك أنها هي المنطقة التي تسقط عليها أمطار البحر الأحمر . ودون هذا الحزام الشديد الخضرة تأتي سفوح التلال المنخفضة ، وهي جافة جرداء شأن الذروة نفسها . وفي حوالي ٤٠ كيلومتراً من طريق متلوية هبطنا حوالي ٧٥٠٠ قدم وكنا على مستوى سطح البحر تقريباً ، ثم اننا طوال الثلثين الأخيرين من المسافة بين « اسمرة » و « مصوع » كنا على مستوى سطح البحر ، عبر أرض شبه صحراوية مثيلة لتلك المنخفضة المحيطة بـ « ديرا داوا » .

ان هذه الأرض شبه الصحراوية على وتيرة واحدة ، وهي مملّة مثلها مثل قمة الهضبة ، غير أن الماء يبدو للعين بصورة فجائية ، وتعود معالم الأرض مثيرة من جديد . ها قد طفقنا نسير فوق معبر إلى جزيرة ؛ إلى يميننا يخترق اليابسة خليج عميق ، وما وراء الخليج يرتفع رأس جبلي

---

(١) سفوح جبال الألب المواجهة لفرنسا .

جريء . وإلى ما وراء ذلك الرأس كان يقوم موقع « ادولس Adulis » احدى المحطات الاثيوبية على ساحل البحر الأحمر . هنا كان ملوك البطالسة [1] الاغريق في مصر يفدون لمزاولة رياضتهم في قنص الفيلة . كانوا في حاجة الى فيَلة افريقيّة لتكون نداً للفيلة الهندية التي كان منافسوهم الاغريق السلوقيون [2]، ملوك جنوب غرب آسيا ، يحتفظون بها في المنطقة الدافئة والغنية بالنباتات الواقعة في الغور جنوب مدينة « أفاميا » السورية .

ثم نقلَتنا معبر مائي إلى جزيرة أخرى ، وعلى هـذه الجزيرة يقوم الجزء الأقدم مـــن مدينة « مصوّع » وهو محلة لا تخطىء العين أبـداً انها عربية السمة . هنا يشهد المرء بنايات طويلة من الحجر المصقول المزين بنقوش منحوتة تنم عن ذوق جميل . وفي هذه الجزيرة — المدينة يستشعر الزائر أنه بات في عوالم بعيدة عن افريقيا ذات الأكواخ الطينية المدورة (تُقول) المسقوفة بالحصُر . انه يجد نفسه في عالم زنزيبار الاوقيانوسي ومسقط والبحرين وسنغافورة .

الآن نحن في مصوع ، ومعنى ذلك اننا موغلون في البحر الأحمر ، ومع هذا فان الطقس ليس حاراً لافحاً . ورغم انه لا غيوم في الجو بيننا وبين الشمس ، فـان نسيماً منعشاً يهب فوق المـــاء من جهة الشرق ، يحفظ الهواء بارداً . وحين ننقلب ونباشـر العودة إلى سفح الجرف ، تأخذ درجة الحرارة في الارتفاع كلما تقدمنا في اليابسة . على

---

(١) حكم خلفاء الاسكندر وأحفاد قائده بطليموس الأول مصر من ٣٢١ ق . م حتى ٣١ ق . م ، وكان آخر من تولى الملك منهم كليوباترة التي قضى عليها اكتافيوس بعيد انتصاره في اكتيوم على حليفها وعشيقها انطونيوس .

(٢) السلوقيون : خلفاء قائد الاسكندر سلوقس ، وحكام بابل وسوريا وفلسطين وجنوب آسيا الصغري من ٣١٦ ق . م إلى ٧٠ ق . م .

انه يبدو ان الطقس يأتي عملاً خاصاً اكراماً لنا في الوقت الحاضر : ألا ترى ذلك النسيم « المهذب » يسوق غيوماً من وراء الأفق الشرقي ؟ بلى ، انه يفعل . إذن فإن هذه الغيوم الفجائية ستفرغ حمولتها حولنا على شكل زخات غزيرة من المطر اثناء إرتقائنا إلى المنطقة شبه الألبيّة من الجرف. وقتذاك يستطيع المرء ان يشهد كيف تشرب النباتات الكثيفة المطر . أما اثناء ارتقائنا إلى المنطقة العالية الثانية فإن سقوط المطر يتقطع ، حتى إذا بلغنا القمة ثانية ودخلنا اسمرة من جديد ، كان المطر قد تضاءل وانقلب رذاذاً كالذي رأيناه عشية الليلة الفائتة . أمدينة « ترانسألبية » اوروبية تطل مشرفة على البحر الأحمر ! ان هذا لعجيب ، بيد انه في الحبشة الكثيرة التناقض ربما كانت هذه قمة التناقضات جميعاً .

ارض قديمة تتطلع الى المستقبل

An Ancient Land Looks Forward

ما هي الأفكار الأولى التي تستدعيها في الأذهان الاوروبية كلمات « الجمهورية العربية المتحدة » ؟ انها قرن اسم هذه الدولة باسم رئيسها جمال عبد الناصر ؛ وهذا صحيح ، إذ انه يمثّل نهضة البلاد ويشخّصها . ومع ذلك ، فإن الصورة المألوفة لدى الغربيين عن الرئيس عبد الناصر لهي صورة ذات جانب واحد . فهو معروف في الغرب بصورة رئيسية كشخصية على مستوى دولي ، وهو يقوم طبعاً بدور بارز وهامّ في ذلك المجال ، لكن هناك جانباً آخر من نشاطه ربما كان الغرب اقل ادراكاً ومعرفة له من الجانب الأول . ان عبد الناصر هو الروح المحركة في ثورة سلمية في الجبهة الداخلية . انه يناضل في سبيل جعل الحياة افضل للناس العاديين في بلده . وهو يستطيع أن يتحسس قضاياهم لأنه واحد منهم . ولقد زرت قرية « بني مُرّة » القريبة من أسيوط في الصعيد ، من حيث جاءت عائلته .

ان عبارة « جعل الحياة أفضل » لا تعني رفع مستوى الحياة المادي ، مع شدة أهمية هذه الناحية . انها تعني ، قبل كل شيء ، الإيحاء لأفراد الشعب بالثقة في انهم يستطيعون تغيير حيواتهم إلى الأفضل بمساعدتهم أنفسَهم . والإيحاء يعني الضرب على الأوتار الخفيّة في روح المبادرة والابداع ، التي ربما دُفنت وكبتت لعصور طويلة ، لكنها مع ذلك تظل خامدة في التربة السفلية من الطبيعة البشرية . كما يعني قلبَ الركود والعَزْف

واللامبالاة إلى أمل .. وهذا ما أضمن انه العمل الذي ينطوي عليه قلب الرئيس عبد الناصر اكثر من أي شيء آخر . وأنا متأكد من ان التاريخ سوف يحكم له أو عليه من حيث انجازاته في هذا الميدان .

ان الثورة الداخلية التي استمرت الجمهورية العربية في القيام بها منذ سنة ١٩٥٢ هي جزء من الحركة العالمية المدى التي تنشد العدالة الاجتماعية في زمننا هذا . وهي مثيلة للثورة الاجتماعية السلمية التي استمرت تأخذ مجراها منذ بواكير القرن الحاضر في الأقطار الاسكندنافية وبريطانيا مثلاً . طوال الخمسة آلاف عام المنصرمة من عمر الحضارة — وفي وادي النيل الأدنى يرقى عمر الحضارة إلى هذا القدر — ظلت الجماهير تكدح لتنتج كاليات الحضارة للاقلية ذات الامتياز . هذا فيما مضى . أما اليوم فنحن نشهد هذه الجماهير في جميع أنحاء العالم تطلب نصيباً من الفوائد العائدة من كدحها لنفسها هي . وهذا مطلب حقٌ وعدل الآن وقد دخلنا عصر المكننة .

ان التكنولوجيا الحديثة المتنامية ترفع انتاجية الانسان إلى درجة تسمح بتطبيق العدالة الاجتماعية اخيراً ؛ ولهذا فان الثورة الاجتماعية التي حان وقتها منذ زمن طويل قد غدت حتمية في كل مكان . على ان هناك مسألة مفتوحة يتوجب على كل شعب من شعوب العالم ان يجيب عنها لنفسه ، وهي : هل ستكون تلك الثورة الاجتماعية تطوّعية وسلمية ؟ ام انها ستعُترَض ، ومن ثم ُتقْسَر على السير في مجالات عنيفة ؟ ان نظام الحكم الحاضر في الجمهورية العربية المتحدة يساند ثورة اجتماعية من النوع التطوعي والسلمي ، ولقد اختارت حكومة البلاد سلوك هذا السبيل .

وطبيعي انه حق الثورة السلمية تتضمن تضحيات مادية تقع على افراد الأقلية السابقة ذات الامتياز . بيد انه ، إذا ما اوقظ ضميرهم

الاجتماعي – وأجزم بانه قد اوقظ في مصر ، كما تم ذلك من قبل في بريطانيا – فان هؤلاء الأثرياء سيجدون في تضحيتهم ذاتها تعويضاً عن خسائرهم المادية . انهم عند ذاك يستطيعون التمتع بعلاقات أسعد مع جماهير مواطنيهم الآخرين . وأهم من كل شيء آخر أنهم يستطيعون القيام بشيء فعّال (ولذا فهو جدير بالتقدير) نحو مساعدة الأغلبية المهمَلة في السابق ، في السير قُدماً على درب حياة أفضل . ولهذا السبب فان هناك في مصر والأقطار الأخرى السائرة في ثورة مماثلة اليوم ، وقت اندفاع وحماس ، لا للفلاحين والعمال الصناعيين فحسب ، بل لأبناء الطبقة الوسطى اصحاب المهن الحديثة : المهندسين ، العلماء ، المعلمين ، ورجال الادارة .

والواقع أن مهمة رفع مستوى حياة الناس العاديين لهي مهمة صعبة في حال مصر . ذلك ان البلاد ، شأن اقطار افريقية وآسيوية أخرى ، تعاني من زيادة سريعة في السكان . وعلى النقيض من بعض شقيقاتها الأقطار العربية لم تعثر مصر حتى الآن على خامات زيت معدني لتمويل مشاريع التنمية الرئيسية الملحة . لذا تبرز الأهمية القصوى في نظر مصر للسد العالي الذي يكسِف السدّ الأصلي في اسوان . كيف لا وهو يروي مليون اكر اضافي من الأرض ، كما يوفر الريّ الدائم (مؤمّناً استنبات محصولين أو ثلاثة في العام) لِ ٧٠٠٫٠٠٠ اكر كانت تعتمد في الماضي على الفيضان السنوي ، مما يجعلها تنتج محصولاً سنوياً واحداً ؟

ان الزراعة الكثيفة للأراضي المسقية في مصر لهي الأجمل بين آثار مصر جميعاً ، كما انها اقدمها كلها كذلك . وهي تسبق الاهرام بعصور طويلة ، وما الاهرام سوى نتاج واحد عَرَضيّ لها ؛ وعلى النقيض من الزراعة المشابهة لها في العراق ، ظلت الزراعة الكثيفة في مصر تلقى اهتماماً دائماً منذ البداية . وانه لما يملأ القلب نشوة وغبطة أن ترى هذه

الخصوبة التي تم كسبها بدأب وعناء ، تتنامى رقعتها الآن عن طريق قهر الصحراء والاستحواذ على بعضها . والتركيب الكيماوي لتربة الصحراء جيد وصالح ، فليست في حاجة إلى اكثر من الماء كيما تجود بالعطاء . والمساحة المزروعة في مصر جارٍ توسيعها اليوم ، ترقّباً للفراغ من بناء السد العالي ، بحفر مجاري تحت – ارضية للماء ، لا في وادي النيل فحسب ، وانما في الصحراء الغربية والواحات الغربية كذلك . ومع هذا فحينما تعمل القدرة البشرية والخبرة كلّ جهدهما في زفّ الماء إلى عروسه التربة ، فإن مصر ، بسكانها المتزايدين ، لا تستطيع البقاء بلداً زراعياً محضاً . ان عليها أن تغدو بلداً صناعياً أيضاً . ولقد باشرت البلادُ تصنيع نفسها بالفعل ، وفي ميادين ستمكّنها من انقاص مستورداتها من الخارج . لقد تم لها من قبل أن تنتج ما تحتاجه من الأسمدة الكيماوية ، وتغزل قطنها في معاملها الخاصة كما تنسج غزلها فيها . وأخيراً ، سيكون عليها أن تصنع للتصدير كما تصنع لتزويد سوقها المحلية . وفي نهاية المطاف ، أراني اعتقد ، انها شأن اليابان وبقية العـالم ، سيكون عليها أن تنظم عدد المواليد كي تبقيهم على نسبة ما مع النقص الخيّر في معدل الوفيات الذي هو من حسنات تقدم الطب الوقائي .

في هذه الاثناء ، ينبغي أن تعطى الأسبقية للمشروعات الرئيسية التي ترفع من انتاجية البلاد ، وبالتالي ، توفر اطعام ذلك العدد المتزايد من الأفواه . ولكن ، مـاذا عن رفع مستوى حياة الناس العاديين ؟ ان التصنيع آخذ الآن في التمكين من احداث تغيير فوري وكاسح ، نحو الأحسن ، في طريقة عيش اولئك الذين تحولوا إلى عمال صناعيين من قبلُ . فالمصانع الجديدة على نطاق واسع ، التي يموها الرأسمال العام والخاص معاً ، قد سبق ونجحت في توفير المأوى لعمالهـا ، وكذلك العناية الطبية والتغذية الجيدة والتعليم .. وإلى مستوى راقٍ حديث .

اما الانجاز الهرقليّ المنتظَر فهو اتمام ثورة نديدة في حيـــاة الاكثرية الكبرى من السكان الذين سيستمرون في البقاء عمالاً زراعيين إلى أبد طويل في المستقبل .

وتجري خدمة الريف المصري في المقـــام الأول الآن ، عن طريق خلق شبكة من المراكز الاجتماعية الريفية . وسيكون هنالك مركـز اجتماعي واحد لكل ١٥,٠٠٠ شخص من سكان الريف حين يتم الفراغ من تلك الشبكة . وفي كل من هذه المراكز يتواجد طبيب ، وممرضة مستشفى أو اثنتان ، ومعلم ، ومرشد زراعي . وهذه كلها نوى[1] من الخبرة الحديثة والمعرفة ، تنفَّذ في هذا القطر القديم الذي لم يعد أرضاً ثابتة Static . ان معظم القرى لا تزال باقية على الحال التي شهدتها منذ القدم ، فالفلاحون المصريون ظلوا دائماً يمنحون الأسبقية لمحاصيلهم وحيواناتهم على الرفاهية لأنفسهم . والحق ان الريف المزروع في مصر يكسف معظم مثيله في اوروبا ، وهذا ما يزيد المفارقة في عيون الأوروبيين حين يقارنون بين تميّز الحقول المصرية على غيرها وبين عدم صلاحية البيوت التي يقطن فيها الفلاحون . إلا ان على اعـــادة بناء المساكن في ريف مصر أن تنتظر ريثما يتم الانتهاء من اصناف التجهيزات الرئيسية ذات الانتـــاج ، العاجلة ، في البلاد . والانتظار صعب . فكلنا يود ان يشهد النتيجة في غضون عمر واحد . بيد انه حق العـلم الحديث والتكنولوجيا تتطلب وقتاً . انها لا يستطيعان اجتراح معجزاتها في التو واللحظة في مصر أو أي بلد غيرها .

في هذه الأيام يجري تسخير العلم الحديث والتكنولوجيا في الاستفادة إلى أقصى حد ممكن من موارد مصـر الطبيعية الحالية ، بما في ذلك

---

(١) نوى : جمع نواة .

المياه المجاورة في البحر المتوسط والبحر الأحمر ، بالاضافـة إلى نباتاتها وحيواناتها . زُر مركز البحث الوطني في القاهرة أو مؤسسة الأبحاث النووية للأغراض الطبية والزراعية في أنشاص ؛ هناك سترى نشاطـاً ذاتياً مخطّطاً له بعقلانية وحكمة في عمل مندفع في عـــدة مجالات . ولادارة قناة السويس بدورها وحدة جديدة للابحاث خاصة بها . كذلك تمتلك الورشات الصناعية الكبيرة وحداتهـــا ؛ كما ان الجامعات توسّع الكليات العلمية والتكنولوجية فيها . ان العـلم الحديث يشتغل لإحراز نتائج طويلة المدى ، كما يسعى للحصول على نتائج عملية سريعة أيضاً . وستكون احدى هذه المنافع الطويلة الفترة ، المترتبة على مشروعات التعليم والبحث هذه ، خَلْقَ مجموعة كبيرة متماسكة من الرجال والنساء ذوي العقول العلمية والتقنية الذين سيشتغلون لمصلحة بلادهم بطريقة جديدة ، في مختلف مناحي الحيـــاة . ولا حاجة إلى القول بان احد مقاييس قوة بلد ما وحيويتها في هذا العصر العلمي هو عدد مواطنيهـــا الذين يمتلكون قدراً من المعرفة العلمية والمهارة التقنية . طبعاً ، ان الباحث في المختبر والتقني في المصنع لا يزالان منفصلين بفجوة واسعة عن القروي الذي يعيش ويعمل بطريقته التقليدية ، في الأرض . وتضييق هـــذه الفجوة هو الهدف ، لا للجمهورية العربيـة المتحدة فحسب ، وإنمـــا لجميع بلدان العـــالم التي تناضل الآن للـّحاق بالدول الطليعة في التقدم الحديث . ان الموضوع المطروح ليس مجرد تغيير مادي .. فالتغيير العسير هو تغيير النظرة ؛ وهذا مُلزَم ان يستغرق وقتاً ، لكن الروح الجديدة مُعدية بسرعة ، وقد يبطىء انتشارها لكنها ستعم وتنتشر على التأكيد ..

النوبة

Nubia Obnubilata

« سماء النوبة غـائمة » هذا تناقض ظاهر في التعبير ، ومن أحدث طراز . صحيح ان سماء النوبة الزرقاء الصافية ليست خالية من الغيوم طول الوقت ، فهناك سحب على هيئة ريش النعام تظهر في الجو بين فترة واخرى على ارتفاعات كبيرة في السماء ، وتكون شاهداً على قوة الرياح وسرعتها في الأجواء العالية (ويمكن أن تكون الرياح قوية وباردة على مستوى سطح الأرض أيضاً) ؛ لكن هذه السحب الرئيسية لا تجلب المطر إلى النوبة ، ويستحيل أن تفعل ذلك . ان السد العالي في أسوان هو الذي يُنتظر منه أن يحوّل مناخاً محليـــاً ظلّ عديم الأمطار منذ نهاية أحدث عصر ماطر Pluvial في شمال افريقيا . وهو يقابل نهاية العصر الجليدي الأخير في اوروبا ، ويمكن أن نؤرخه بالقول انه منـــذ عشرة آلاف أو اثني عشر الف سنة . فإذا كان للنوبة الآن أن تشهد عصراً رطباً ، فسيكون هذا من صنع الانسان هـــذه المرة ، بل سيكون في حقيقته واحداً من الثمرات المتعددة للسد العالي في اسوان .

لقد حوّل سدّ اسوان القديم مناطق النوبة القريبـــة منه إلى بحيرة آسرة تمتد صعد النهر : من أول الشلال الأول إلى حضيض الشلال الثاني في الجانب السوداني من حدود مصر الجنوبية . أما البحيرة الجديدة التي سيخلقها السد العالي الجديد فسيرتفع مستوى الماء فيها حوالي ١٨٠ قدماً فوق

مستوى سطح الماء في البحيرة الحالية . وستغمر الشلال الثاني وتكون اضخم بحيرة صناعية في العالم ، بل ستكون بحراً داخلياً مياهه عذبة . أما حجم الماء الذي سيُختزن فيهـا فسيكون هائلاً إلى درجة انه قد يغير مناخ النوبة المغمورة .. كما يمكنه أن يخلق غطاءً من السحب كافيـاً لجلب المطر .

في تلك الأيام ستكون النوبة التي زرتها في شهر ديسمبر ١٩٦١ قـد اختفت وغمرتها الامواه المتجمعة من طوفان صنعته يد الانسان .

وتغمر البحيرةُ التي تولدت من السدّ الحالي في اسوان معظم الأراضي الصالحة للفلاحة من النوبة طوال القسم الأكبر من السنة . وفي الشتاء يكون الشاهد الوحيد على وجود تلك الأراضي الفلاحية لا يعدو منظر نخلة هنا أو اخرى هنـاك ، ترفع رأسها وسط الماء عند طرف البحيرة الشرقي أو الغربي . ثم انه في موسم الفيضان فقط — حين يُسمح للامواه المتجمعة من السنة السابقة أن تنفذ عبر انفاق السد — تظهر الحقول المغمورة ثانية لفترة قصيرة ، لكنها تسمح للفلاحين النوبيين ان ينتشوا محصولاً واحداً على كل حال . اما خلال بقية السنة ، فكل ما يبقيه لهم الماء ليس إلا الصخور السوداء القاحلة التي تطمئن إليها قراهم اللطيفة المنظر فوق مستوى سطح الماء الحالي .

ويظل جزء كبير من سكان النوبة الذكور خارج ديارهم على الدوام ، يكسبون أقواتهم وأقوات عائلاتهم بعيداً في القاهرة شمال السدّ . ويحظى النوبيون في مصر بالحب والتقبّل ، لاستقامتهم في المسلك ، وأمانتهم في العمل . وينظر إليهم الناس بكل تقدير ، كخدمٍ في المنازل ، كما يكادون يحتكرون مهنة النُدُل في الأماكن العامـة . ويعشق النوبيون وطنهم الفقير ، ينمّ عن ذلك أنهم أبقوا ديارهم عامرة بالحياة عن طريق كسب أقواتهم في الخارج وجلْب ما يوفرونه إلى تلك الديار . لكنهم سيعجزون

حتماً عن مصارعة الارتفاع المقبل لـ ١٨٠ قدماً في مستوى سطح بحيرة السد الجديدة . ان المـاء سيغمر المرتفعات الصخرية التي تقـع عليها قراهم جميعاً ، اما حقولهم المغمورة فلن ينحسر عنها المـــاء حتى ولو من موسم إلى موسم .. وهـــذه بليّة لهم في الظاهر ، لكنها في الواقع خير وبركة .

وسيتم نقل جميـع سكان النوبة على الجانب المصري إلى مدينة نوبيـــة جديدة في « كوم امبو » إلى الشمال من سدّي اسوان . هنا سوف يُعطَـون أراضي مروية جديدة ليفلحوها ، كما تنفتح أمامهم فرص كثيرة للعمل في الصناعات الجديدة التي ستنشأ بقوة الطاقة الكهربائية المتولدة من السدّ . ومثل هـــذه الاجراءات يجري اتخاذها في السودان خدمة للسكان النوبيين الذين سيضطرون إلى النزوح عن أرضهم لنفس السبب . اذن : من ناحية مادية سيكون النوبيون أكثر ثراء منهم في أي موسم شهدته نوبتهم في يوم من الايام . ومع هذا فاني أشك في ان ذلك سوف يعزي الجيل الأول من النازحين النوبيين عن فقدان وطنهم العزيز على قلوبهم وان كان قاسياً .

والنوبيون شعب دمث ، وأنا أكنّ لهم وداً وعطفاً كبيراً ؛ لكني أجد من العسير عليّ ان أمد بساط هذا العطف حتى يشمل ذلك الرجل الأناني : رمسيس الثاني . فحين انتقى هذا الفرعون موقع« ابو سمبل » فيالنوبة كمقر لأربعة تماثيله العملاقية المنحوتة في الصخر ، وللهيكل المنحوت في الصخر أيضاً وراء تلك التماثيل – كانت تشغله المخاوف من عصابات لصوص الهياكل والأضرحة ، القديرة في مصر . لكن أنى له أن يحلم أن هذا الأثر التاريخي الأرفع لتخليد نفسه ، يمكن ان يكون ، في يوم من الأيام ، مهدداً بالغمر نتيجة جهود المهندسين المعماريين !! لو مرت هـــذه الفكرة بخلده لكانت أعمته من الغضب . ومع ذلك .. فهـــذه هي الخدعة

الكبيرة اللاحقة[1] التي سيتم لعبها على رمسيس الثاني على يدي التكنولوجيا الحديثة .. وما أظنه كان سيوافق راضياً على رؤية تمثاله الهائل يُنقَذ جزئياً لقاء ثمن يدفعه هو ، لا ينقص عن تقطيعه إلى شرائح يمكن حملها ونقلها من مكان إلى مكان .

***

هناك أثر تاريخي قديم إلى الشمال من تماثيل « ابو سمبل » على ضفة النيل الشرقية ، سيصون بقاءه دون حاجة إلى مساعدة المهندسين في ذلك . انه القلعة المسماة « قصر ابريم » في الوقت الحاضر ، و « ابريمس » عهدَ كان الرومان يحتلونها كأقصى موقع حربي صُعُد نهر النيل . وترتفع هذه الصخرة ٢٠٠ قدم تماماً فوق مستوى سطح الماء الحالي ، ولذا فانه حتى إذا ما ارتفع ذلك المستوى ١٨٠ قدماً أخرى ، فان تاج تلك القلعة سيظل رافعاً رأسه فوق الماء بـ ٢٠ قدماً . لا شك انها ستبيت مجردة من موقعها العالي المشرف آنذاك ، بيد أنها على كل حال ، ستبقى رافعة رأسها فوق الماء ، كجزيرة متفردة وواطئة في البحر الداخلي المحيط بها من كل جانب .

ولقصر ابريم هذه تاريخ طويل نجد جزءاً منه مسطوراً في معمار الأبنية المقامة على ذروتها . فهناك بناية من الطراز المصري القديم تحتل زاويتها الجنوبية الغربية . اما اعلى نقطة فيها ، والواقعة في الجانب الداخلي من الجزيرة ، فسطحها مغطى بحطام كنيسة قبطية متردمة . وحين فتح السلطان العثماني سليم الأول [2] امبراطورية المماليك واحتل

---

(١) في الأصل Posthumous ومعناها المولود بعد وفاة أبيه ، ولم أجد لها مرادفاً في العربية .

(٢) أو سليم العبوس ، ابتدأت سلطنته سنة ١٥١٢ ومات سنة ١٥٢٠ ، وقد قهر الشاه اسماعيل الصفوي ثم ابنه طهماسب وفتح الشام سنة ١٥١٧ بعد معركة مرج دابق ضد قانصوه الغوري سلطان مماليك مصر . ثم فتح مصر في نفس العام ، ونقل خلافة العباسيين إلى العثمانيين ، وهذا امر لا يزال مثار خلاف بين المؤرخين .

وادي النيل حتى قصر ابريم ، اقام فيها حامية من البشناق لابقائها في يده . وكان هؤلاء البوغسلافيون مخاصين في ولائهم للدولة العليا (عثمانلي) كما انهم مسلمون متحمسون . وكانوا من قبل « Bogomils » كما سبق ان اضطُهدوا على يدي جيرانهم المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك . وإذ ظهر « العثمانلي » في الأفق ، انضم البشناق تحت لوائهم ، واعتنقوا الاسلام .. وهكذا صاروا سادة في بلدهم . وفي « قصر ابريم » بالنوبة البعيدة ، صمد احفاد حامية بشانقة السلطان سليم طوال ثلاثة قرون تقريباً ، ثم إنهم انصهروا مع من تبقى من المماليك المتقهقرين صُعُد النيل كي ينجوا من مصير رفاقهم الذين ذُبحوا على يدي محمد علي[1]. وهذا الفصل البشناقي في التاريخ النوبي لهو فصل غير متوقّع أن يوجد هناك . لكن أغرب فصل في القصة سيكون الفصلَ القادم الأخير ، حين تختفي النوبة ذاتها تحت الماء ، بحيث لن تبرز إلى السطح ثانية طالما ظل السد العالي في محله .

---

(١) اشارة إلى مذبحة القلعة الشهيرة .

الثورة الصناعية في اسوان

The Industrial Revolution at Assuan

أسوان مدينة تاريخيـــة قديمة عند قدمي الشلال الأول في نهر النيل ، كانت تُعتبر الطرف الأقصى الأصلي لعالم المصريين القدماء . لقد كانوا في بادىء الأمر يعتقدون ان ذلك الشلال هو منابع مياه النيل ، غير انهم قبل انتهاء الثلاثة آلاف سنة من تاريخ مصر الفرعونية ، زحفوا صعداً في النهر إلى ما وراء الشلال السادس ، ثم إلى الحد الذي بلغه حفدتهم جنوباً في القرن التاسع عشر الميلادي بعد ذلك بزمن طويل . ومنذ عهد الدولة المتوسطة التي تم تأسيسها في القرن الحادي والعشرين ق. م. ظل الحد السياسي الجنوبي لمصر يسير عـلى مسافة معتبرة جنوبي اسوان ، كما هي الحال في الوقت الحاضر ؛ ومع ذلك بقيت أسوان تُعتبر طرف العالم الرمزي لمصر الحقيقية . كما عيّنت اسوان الحد الفعلي (السياسي) أحياناً أيضاً : اما كانت الحـــد الحقيقي لمصر حين كانت مصر ولاية فارسية ؟ وفي القرن الخامس قبل الميلاد كانت جزيرة الفانتين Elephantine الواقعة عند قدمي الشلال الأول خاضعة للفرس ، وفيها حامية من اليهود الناطقين بالأرمنية . وقد ألقت لُقية حديثة لبعض اوراق البردي ، في الجزيرة ، الضوء على الأخبار المفصلة لحياة هذه الحامية ، اليومية ، وعلى مدى استقامتها في مزاولة طقوس الدين اليهودي هناك .

ولقد ظلت مدينة اسوان على الدوام جذابة للغرباء الوافدين . فعند

أعلى الشلال الأول ، كانت جزيرة « بيلي Philae » الشهيرة مزدانة بالأبنية العامة التي اقامها ملوك مصر البطالسة الأغريق ، على الطراز المصري التقليدي ، ثم خلفاؤهم اباطرة الرومان . وفي ديسمبر ١٩٦١ (١) كانت قمتا الرواقين البطليموسيّين وقمة الكشك الرائع الذي بناه الامبراطور « تراجان » تُرى فوق مستوى سطح الماء تماماً ، في البحيرة التي خلقها سد اسوان الحالي . ولقد بدت هذه القمم كالرؤوس المسطحة لأفراس ماء عملاقة تغتسل في الماء . وفي موسم الفيضان ، حين يُسمح بتسرب المياه عبر السد ، يبرز عنقود البنايات الموجود في جزيرة « بيلي» لفترة من الوقت . لكنه سيتم غمره إلى الأبد بعد أن يتم الفراغ من بناء السد العالي فيرتفع مستوى سطح البحيرة النوبية ١٨٠ قدماً أعلى من مستواها الحالي .

لم يكن البطالسة هم الغرباء الوحيدين الذين جذبتهم « اسوان » وجمّلوها . فالأضرحة المقبَّبة (٢) التي بنتها الأسرة الفاطمية القروسطية (٣) القادمة من شمال غرب افريقيا لا تزال ظاهرة في مقبرة المدينة ؛ وهناك مرتفع يشرف على الضفة الغربية قبالة « الفانتين Elephantiné » يُرى مكللاً بضريح المرحوم آغا خان . على ان مستقبل « اسوان » بعد الآن لن يكون مستقبلاً للفن والعمارة ، ولا آخر حربياً ، وإنما سيكون مستقبلاً صناعياً على كل حال .

وبهذا المعنى ، فان « اسوان » قد ظلت مركزاً صناعياً منذ عصر

---

(١) زار المؤلف هذا الموقع في ذلك العام .

(٢) ذات القباب .

(٣) أي الأسرة الحاكمة في الدولة الفاطمية ، وقد تأسست هذه الدولة في شمال افريقية سنة ٩٠٩ وفتحت مصر أيام المعز سنة ٩٧٢ على يد جوهر الصقلي الذي بنى الجامع الأزهر، واستمرت تحكم مصر حتى أيام العاضد الذي انهى خلافته صلاح الدين الأيوبي حين خطب لخليفة بغداد العباسي في القاهرة في ١٣ سبتمبر سنة ١١٧١ م .

بناة الأهرام . لقد قطعوا الحجارة من مقالع « اسوان » الغرانيتية ، ثم نقلوها على الماء هبوطاً مع النهر ليحوّطوا بها اهرامهم ، التي ظلت تجرّد من تصويناتها على يدي الأجيال المتعاقبة من النهّابين « البلطجية » الذين يبحثون عن كتل حجرية مقصّبة ، لبناء أبنية أكثر تواضعاً .

***

يا له من أسف ان بناة الأهرام لم يخلّدوا أنفسهم بطريقة أكبر نفعاً ! آه لو طرق أفكارهم أن يفعلوا ذلك ، إذن لأمكنهم الاستفادة من جرانيت « اسوان » المتوفر في ذات المكان في استباق بناء السد العالي نفسه . ولقد كان معماريوهم ومهندسوهم أكفاء تماماً لهذه المهمة الجبارة . إذ ذاك كانت مصر الآن قد تمتعت ، طوال ٤٥٠٠ سنة ، بحسنات الأرض الزراعية الاضافية التي سيوفرها لها السد العالي الجديد . في تلك الأيام كان بمقدور فراعنة الأسرة الرابعة ان يبنوا السد العالي ثم يستفيدوا من مخزون مياهه في توسيع الرقعة الزراعية في بلادهم . أما الشيء الوحيد الذي ما كان بمقدورهم ان يفعلوه يومذاك فهو استخدامه في توليد الطاقة الكهربائية . وفي القرن العشرين تُبنى السدود لغرض مزدوج . ففي ختام سنة ١٩٦١ كانت محطة التوليد الملحقة بسد « اسوان » القديم منتهية تقريباً ، وكان بمقدور المرء أن يرى العمل ناشطاً في الأشغال التحضيرية للمنشآت الهيدرو - كهربائية ، الأضخم ، على السد العالي .

ان هذه الوفرة في الطاقة الهيدرو - كهربائية ستحوّل « اسوان » إلى مدينة صناعية عظيمة . ولقد انبثق عن هذه الطاقة الجديدة ، من قبلُ ، مصنع كيماوي ضخم لانتاج المخصّبات الصناعية « كيما » ، ويستطيع الرجل العادي الذي يعجز عن متابعة تعقيدات العملية الصناعية ان يلمس ويقدّر التحول في حياة العمال الذين أوصلهم حظهم السعيد إلى

العمل في المستعمرة السكنية هناك . وحين تغدو القـوة الكهربائية في حيز التشغيل ، فان عدد المصانع في اسوان سيرتفع . وبضربة من الحظ التي هي تعويض طفيف القدر عن اخفاق مصر حتى الآن في العثور على البترول في اراضيها [١] ، تم اكتشاف خامات الحديد على بضعة أميال من السدّين ومنشآت الطاقة الملحقة بها . وهكذا فان من المحتمل ان تنمّي اسوان صناعات ثقيلة فيهـــا ، كما تنشىء صناعات خفيفة كذلك .

ان التطور الصناعي في اسوان سيكون مهماً لمصر لأسباب اجتماعية وأخرى اقتصادية . فكقطب مغناطيسي مغاير معاكس للقاهرة ، ستخلق اسوان توزيعاً سكانياً أكثر تناسباً مما هو عليه الحـــال في مصر . ان السكان في مصر سيتكاثرون ، وفي نفس الوقت سيزداد تحولهم إلى سكان مدن ؛ لكنهم لن يكونوا في حاجة إلى إثقال الاستقطاب الحالي في القاهرة كما ظلوا يفعلون حتى وقت قريب . وسيكون من الاسلم عافية لمصر تخفيفُ الضغط على القاهرة بخلْق وتنمية مراكز مدينية أخرى كذلك ، وليست اسوانُ هي المركز الوحيد الجديد المأمول .

لا شك ان التسهيلات المتوفرة لصالح اسوان كي تغدو مركزاً صناعياً في مصر لهي فريدة في البلاد . فاسوان وحدها تتمتع بوجود الطاقــة الكهربائية اقرب اليها من كل مدينة غيرها . اما اسيوط ، العاصمـــة التاريخية لمصر العليا ، والواقعة في منتصف الطريق تقريباً بين اسوان والقاهرة ، فهي الآن آخذة في توليد نوع آخر من الطاقة . وإذا كانت اسوان تعد نفسها بالسدود وورشات توليد الطاقة الكهربائيـة ، فان

---

(١) ثبت الآن ان في منطقة السويس والصحراء الغربية بمصر خامات احتياطية من البترول تضارع ما تختزنه الطبقات الجوفية في كل من الكويت والجزيرة العربية .

اسيوط تعد نفسها بجامعة . ولما كان الانسان لا يحيا بالخبز وحده ، فان بمقدور الجامعة الجديدة في اسيوط ان تناطح سد اسوان وتنظره عيناً لعين . وقد باشرت هذه الجامعة حياتها بكليات العلوم والتكنولوجيا (اما كليات الآداب فعليها ان تنتظر) . ومن شأن الجامعة الجديدة والسد الجديد ان يكمل الواحـــد منهما الأخرى ، وبالتكامل بينهما سيجعلان مصر العليا نداً يناهد الدلتا في كونهــا قاعدة للحضارة الحديثة .

منازل جديدة عوضاً عن القديمة

New Homes for Old

ان تناول الاقتصاد من زاوية ايديولوجية صرفٍ والبحث فيه من تلك الوجهة لهو تناول غير سليم . فهناك بعض عمليات اقتصادية من الأفضل أن تقوم بها المشروعات الخاصة الساعية وراء الربح الشخصي . ويمكن أن تكون صناعة المنسوجات وصناعة التأمين مثلين على النشاطات التي من الأنسب تركُها للقطاع الخاص من الاقتصاد . ومن جهة اخرى ، هناك عمليات اقتصادية لا يمكن القيام بها الا عن طريق المشروعات العامة التي تموّلها الضرائب العامة . والتعليم الالزامي العام مثلٌ واضح على هــذه الفئة . وكذلك توفير المساكن على نطاق واسع لفقراء الناس من سكان هذه الأرض .

ولماذا يمكن إيراد هذا المثل ؟ السبب بسيط ، فالرأسمال الخاص لا يستطيع الحصول على ربح معقول من هذا الصنف من البناء . ذلك ان الحد الأعلى لنسبة الأجور التي يستطيع المستأجرون دفعها ، لا يعود على صاحب الأموال المستثمرة في مشروع المساكن الشعبية بنسبة من الربح تناظر النسبة التي يستطيع الحصول عليها فيما لو استثمر أمواله في أنواع اخرى من المشروعات الخاصة : بناء شقق فخمــة ، فنادق راقيــة ، وطوابق تصلح لأن تكون مكاتب ومراكز إدارات .

خلال فترة حوالي ١٢ سنة قبل ١٩٦٤ تغيرت معالم لندن من الجو

تغيراً كبيراً ، وأنا أعني بالمعالم هنا تلك الصورة التي ترسمها سطوح بناياتها مع الافق . وكان السبب في هذا التغير ذلك النشاط غير المحدد بقيودٍ ما في تشييد بنايات فخمة من الطراز السابق . ويجوز ان تعود هـــذه البنايات – كما يجوز ألاّ تعود – بنفع ما على الفئة القليلة من الأشخاص الذين يملكون رأسمالاً يستثمرونه في هذا المجال ، لكن هذا المسلك في استخدام طاقات « صناعة البناء » عاد بنفع ضئيل أو لم يعد البتة بنفع ما ، على المجتمع .

وفي المدة السابقة ذاتها كان بناء مساكن شعبية في بريطانيـــا شيئاً غير كافٍ بصورة مخجلة . وقد ترتب على هذا ان ظل عدد كبير من المواطنين يدفـــع اجوراً ابتزازية لمساكن سيئة ، بينا طُرد الكثيرون وقذفت أمتعتهم في الشوارع ، كيما يتسنى لأصحاب العمارات الاستحواذ على اجور أعلى يدفعها المتنافسون البؤساء على الإيواء إلى سقف مهما يكن. وكثيراً ما توزّع أفراد العائلة الواحدة ، وانفصلت الأسرة عن بعضها ، من جراء اضطرار افرادهـــا إلى الإيواء في دور تملكها البلديات ، حيث ينتظرون حصولهم على مساكن قد لا تتاح لهم الا بعد انقضاء سنوات كثيرة . ازاء هـــذا الواقع بدا في ابريل ١٩٦٤ ان سياسة البنـــاء ستكون إحدى القضايا الرئيسية التي ستتركز عليهـــا الانظار في الانتخابات البريطانية المقبلة .

كانت هـــذه الأفكار تمر برأسي في ١٣ ابريل ١٩٦٤ فيما أنا أتمشى حول « جامع محمد علي » في قلعة القاهرة لأرى ، للمرة الثانية ، ذلك المنظر المشهور لهذه المدينة العظيمة ، والذي سبق ان رأيته من نفس هـــذه البقعة قبـــل ثلاث سنوات . وفي هذه المرة ، وجدت ان معالم سطح القاهرة من الجو قد تغيرت أيضاً . كانت المعالم البارزة القديمة هي مآذن مساجد القاهرة ، التاريخية ، العتيقة . وكانت هذه بطبيعة الحال لا تزال

مندفعة في السماء . لكن عيني الآن جذبتْها كتل ضخمة من البنايات الجديــدة . كانت هـذه الكتل تنتصب في جميـع أنحـاء المدينة ، وكان الكثير منهـا لا يزال تحت العمّار . وان سطح القاهرة الجوي الآن مثل رفيقه في لندن ، لكن البنايات الفخمة الجديدة لم تكن من نفس الفئـــة في المدينتين . فهي في القاهرة ليست عمارات للشقق الفخمة ، بل كانت مساكن لابناء الشعب، ومساكن من ذلك النوع الذي تعاني لندن من فضيحة نقصه كل خزي .

ولا ينشط هذا الصنف من البناء النافع للشعب في القاهرة وحدهـا من مدن الجمهورية العربية المتحدة . لا ، فأنت تستطيع ان ترى شاهداً واضحاً عليه في مختلف مدن الدلتا وأنت في طريقك من القاهرة إلى الاسكندرية . بل إنك سترى شيئاً منه حتى في القرى . ان فندقاً فخماً واحداً قد بني في القاهرة برأسمال امريكي . ولقد شيد فندق هيلتون بالقاهرة ، وهيلتون بلندن ، وهيلتون اديس ابابا أيضاً في نفس الوقت . وتقوم الجمهورية العربية المتحدة الآن بتوفير فنادق أكثر لاجتذاب قسط أكبر من حركة السياحة العالمية ، إلا ان هـذه الفنادق في أغلبها عبارة عن قصور يتم تحويلها إلى فنادق ، وكانت في السابق تخص تلك الحفنة الضئيلة من ذوي الثراء الفاحش بين سكان مصر المتزايدين البائسين .

* * *

حين سألني الرئيس جمال عبد الناصر ما هو الفرق الذي لحظتُه هذه المرة عما رأيته في زيارتي السابقة للجمهورية العربية المتحدة ، كان هذا الاسكان على المستوى الرائع أولَ شيء ذكرته له . وكان تعليقه على ذلك ان قال : « من حيث استخدام طاقات البناء في البلاد أعطي برنامج الاسكان الأفضلية الثانية لا الأولى » . اما الأفضلية فكانت من نصيب

بناء المعامل ؛ كما ان الأسبقية من حيث الحصول على الاسمنت انما كانت من نصيب السد العالي لا الاسكان بطرفيه أيضاً ، (وفي ١٥ مايو ١٩٦٤ سيكون الجزء الأضخم من بناء السدّ قـد تم ، ولذا سيتسنّى تحويل الاسمنت إلى مناحي استخدام أخرى) . حين يُصاب الاقتصاد بلعنةٍ ايديولوجية ما كثيراً ما يسهُل تضليل الناس المستقيمين وطيّبي القلب نتيجة لحمى الانحياز . ولذا نجدهم يسارعون إلى اخذ مواقع ، لا بد وان يجدوها مفزعة لو فكروا بالأمر تفكيراً موضوعياً مجرداً . ان متعصّباً مهووساً للمشروعات الخاصة سيزعم ان حق الكسب والحصول على ربح لهو واحد من حقوق الفرد المقدسة ، دون النظر إلى أي وضع قد يترتب على ذلك . وقد يضيف قائلاً : إذا مـا انتج اطلاقُ اليد في القيام بمشروعات خاصة في ميدان البناء ان تجد الوف من العائلات ان عليها العيش في مدن حقـيرة ، وان ُتطرد حـتى من اكشاكها التاعسة إلى الشارع و ُتقذف إلى الرصيف ، دون مأوى – فان هذا شيء سيّء ، لكن قداسـة حق الكسب الخاص لا يجوز أن تدنّس مهما كانت النتائج المتولدة من مزاولتها .

لكن ما هي الحرية ؟

ان هذا سؤال خادع شأن رفيقه الآخر : ما هي الحقيقة ؟ الواقع ان حريةً من نوعٍ ما لشخص ما تعني حتماً تقييد حرية شخص مـا آخر . والحرية غير المقيدة للمشروعات الخاصة في الاقتصاد انما تعني ، قبل كل شيء ، حريةً في هذا المجال لأقلية صغيرة تسيطر على الوسائل الاقتصادية لاستغلال هذه الحرية في ذلك المجال . لكن ، مـاذا تعني تلك الحرية للناس العاديين الفقراء الذين ظلوا طوال العصور ، وفي مختلف الأمكنة حتى الآن – يؤلفون الغالبية العظمى من الجنس البشري ؟ هل يكون المرء رجلاً حراً أو امرأة حرة إذا كان يستأجر خشّة أو يمكن

طرده إلى الشارع !؟

لا يستطيع الانسان ان يكون حراً إذا لم يكن له بيت يمتلكه هو ويطمئن إلى ضمان بقائه لمدة معقولة . هذا حق وصدق . وصدقٌ مثله كذلك انه : لمّا كان بناء مساكن لجمهور الشعب لا يمكن القيام به إلا من اموال الخزينة العامة ، فان الأقلية ذات الثراء في البلدان شبه الاشتراكية ، مثل بريطانيا والجمهورية العربية المتحدة – لا يحق لها ان تتمتع بحرية استثمار الأموال التي تملكها اسمياً ، أو ان تنفقها كما تشاء . ان للدولة ، لا دافع الضرائب ، ان يقرر كيف يجب ان يُنفَق قدر كبير من أموال دافع الضرائب ذاك .

في مجتمع تكون فيه فروق هائلة في مداخيل الأفراد ، لا يمكن أن يكون هنـالك حرية كاملة لكل فرد في نفس الوقت . وللمجتمع أن يقرر قدْر الحرية ومجالات تطبيقها « لكل فئة ذات دخل » أن تتمتع . ان هذه قضية انسانية وعدالة اجتماعية لا يمكن الحكم فيها بداهة على أُسس نظرية دون التسبب في خلق اخطاء لا تُحتمل وابراز صعوبات كثيرة . وأقل ما يُرضي من الحلول في هذا الباب هو ذلك الذي تم التوصل اليه أخيراً .. وهو نظام مزيج من الاستثمار الخاص والاشتراكية ، على أن يجري تحديد نسبة المزيج لهذا الغرض بالذات ، وأن تكون على الدوام خاضعة للتعديل حسب التغير الدائم الذي هـــو روح جميع الشؤون الانسانية . وهذا ما اعتقد انه الاتجاه الذي سيسير فيه العالم بأجمعه.

غزة بعد سبع سنوات

Gaza after Seven Years

كانت زيارتي الأولى لشريط غزة الساحلي (القطاع) في يوليو ١٩٥٧ ، أي بعد بضعة شهور عقب إتمام انسحاب الجيش الاسرائيلي من القطاع بعد احتلاله [١] . كان الاسرائيليون قد أجبروا على الانسحاب بضغط من « ايزنهاور »، وهو واحد من اجرأ الأعمال التي قام بها في عمله السياسي . لقد اتخذ «الرئيس» هذا الموقف الحازم عشية انتخابات مقبلة في بلده دون الرضوخ ، كما يرضخ الكثير من رجال السياسة الأمريكيين ، خطباً لكسب أصوات اليهود في البلاد . لذا كوفىء على رفع رأسه بانتخابه ثانية بأغلبية كبيرة .

ولقد عادت السلطات في الجمهورية العربية المتحدة وتسلمت الادارة المدنية في هذا الجزء المحرر من ارض فلسطين العربية . وكان الاشراف على خط الهدنة على الجانب العربي لهذا القطاع قد عهد إلى قوة الطوارىء الدولية ، وهي قوة دولية نظمتها الأمم المتحدة وتسدّد نفقاتها نصف دزينة من الدول الأعضاء التي لا مصالح سياسية لهـــا في المنطقة غير هدف حفظ السلام .

---

(١) تم الاحتلال بالتآزر مع حكومة بريطانيا برئاسة ايدن من حزب المحافظين وحكومة الجمهورية الرابعة الفرنسية برئاسة جي موليه من الحزب الاشتراكي اليميني والتشجيع المبطن من جون فوستر دالس ناظر الخارجية الاميركي. وكان هذا ذروة العدوان الثلاثي المقيت سنة ١٩٥٦ إثر تأميم قناة السويس .

والآن .. في ابريل ١٩٦٤ ، وجدت نفسي في غزة مرة ثانية . إلى أي حد تغـير الوضع خلال فترة السنوات السبع المنقضية ؟ وإلى أي حد ظلّ على حاله كما كان ؟

كان على حاله ، طبعاً ، من حيث النقطة الرئيسية : فاللاجئون من الأرض الفلسطينية على الجانب الاسرائيلي من خط الهدنـة لا يزالون لاجئين . ان ارضهم ، وبيوتهم ، وبقية ممتلكاتهم التي على الجانب الآخر من الخـط ما تزال في يد الاسرائيليين . كانت قرارات الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة ، المتكررة ، والتي تعيد تأكيد حق اللاجئين في العودة إلى وطنهم واستعادة ممتلكاتهم – لما تزل ورقة ميتة ؛ بينا ، في نفس الوقت ، كان تصميم اللاجئين على الظفر بوطنهم المسلوب لا يزال ثابتاً لم يتزعزع . كل هذا كان الآن كما رأيته من قبل ؛ وهذا في حده وضع مأساوي ؛ إذ من المرعب المخيف أن يكون المرء لاجئاً ، واسوأ قدَراً من ذلك ان يولد لاجئاً . وأشد سـوءاً من كل ذلك ان يولد ويقضي حياته ثم يمـوت ، صارفاً أيامه من الطفولة حتى الشيخوخة ، في احد مخيمات اللاجئين ! فمخيم اللاجئين ليس إلا ليمبوساً [1] وزنزانة . انه ليس قطعة من عالم الناس العاديين الذي يكون لهم فيه بيوت وأشغال يقومون بها . ومن حسن الحظ فعلاً ، بخصوص هذه النقطة الأخيرة ، التي هي نقطة ذات اهتمام انساني واهمية – ان سبع السنوات المنصرمة قد جلبت تحسناً ملحوظاً في آمال النشء الطالع من اللاجئين الفلسطينيين في قطاع غزة .

في ١٩٥٧ كان يجري توفير التعليم الابتدائي لأطفال اللاجئين على يدي

---

(١) ليمبوس limbo موطن تهيم فيه الأرواح التي تحرم من دخول الجنة لغير ذنب اقترفته . وبذلك يكون رمزاً للضياع الظالم .

وكالة هيئة الأمم[1] التي تشرف على انفاق الأموال التي يساهم بها بعض الدول الأعضاء . وربما كانت نسبة الأميّة اكبر بين الصبيان — وهي اكبر حتماً بين البنات — مما كانت عليه وهم في قراهم الاصلية ، قبل أن يستولي عليها الاسرائيليون . لم يكن التعليم ينقصهم إذن ، وإنما الذي كان يعوزهم هو الأمل . يومذاك كان يبدو وكأن اطفال اللاجئين في قطاع غزة انما يُعلّمون لمستقبل لا أمل فيه ؛ ومن شأن فقدان الأمل أن يجعل الحياة غير جديرة بأن تُعاش . وفي ١٩٥٧ كان عدد ضئيل جداً من أبناء اللاجئين سينالون ، بعد دراستهم الابتدائية ، تدريباً فنيّاً يجعل من الممكن لهم أن يبارحوا المخيمات والقطاع ويجدوا لأنفسهم وظائف في اجزاء اخرى من العالم العربي .

أما الآن[2] ، فإن اللاجئين قد مُنحوا أملاً جديداً بصورة من الصور. ومع انه لا يمكن لهذا أن يكون بديلاً لاستعادة ديارهم وراء خط الهدنة ، فإن الأمل ، رغم ذلك ، يخلق تغيراً كبيراً في حياة الفرد . من أين ينبع هذا الأمل الجديد ؟ انه يتسرب من منافذ جديدة للأعمال الفردية ، تم خلقُها لأبناء اللاجئين الفلسطينيين في القطاع بفضل حكومة الجمهورية العربية المتحدة .

لقد قامت السلطات الادارية لتلك الجمهورية في القطاع بعدد من الأشياء البناءة . ففي شريط الأرض ذاك وسعت الادارة رقعة الأرض الزراعية ، كما انها ، بمساعدة من هيئة الامم ، انشأت مدارس ثانوية للطلاب . وفي جامعات الجمهورية المتحدة الآن تمنح الحكومة تعليماً مجانياً (دون أقساط دراسية ومع توفير الغذاء والسكن) ، لأربعة آلاف

---

(١) يقصد وكالة اغاثة وتشغيل اللاجئين الدولية UNRWA .

(٢) يعني وقت الزيارة الثانية في ١٩٦٤ .

طالب من أبناء اللاجئين ، بعد أن انهوا دراستهم الثانوية ونالوا الدرجات التي تسمح لهم بالالتحاق بالجامعات . واكثر من ذلك واكبر فضلاً ونبلا ، أن اولئك اللاجئين الجامعيين الذين يتفوقون في دراستهم الجامعية لهم مطلق الحرية ، إذا شاؤوا ، ان يُعيَّنوا في الجمهورية العربية المتحدة كأصحاب وصاحبات مهن أو خبراء . ومن حيث فرص الاشتغال بأعمال المهارة يقف اللاجئون الفلسطينيون على نفس المستوى والأساس الذي يعطى لمواطني الجمهورية نفسها .

والحق ان توسيع الرقعة الزراعية في قطاع غزة لهو واحد من الانجازات الجديرة بالتنويه ، ويعود الفضل فيه لموظفي الجمهوريه العربية الاداريين في القطاع . ولمبادرتهم ومغامرتهم فعلاً . ويحيط بمدينة غزة بعض الاراضي الخصيبة الواقعة بين خط الرمال الناعمة على الساحل ، وبين خط الهدنة الذي يسير موازياً لخط الساحل على ٨ كيلومترات إلى الداخل . لكن غزة واقعة في اقصى شمال القطاع ؛ وحين يسافر المرء جنوباً من غزة إلى رفح ، يزداد تحول الأرض التي يجتازها إلى منبسط رملي ، حتى يجد نفسه في أرض شبه صحراوية آخر الأمر . (ورفح هي المدينة الأخيرة على الجانب الفلسطيني من الحدود بين فلسطين والجمهورية العربية المتحدة . وفي هذا الموقع تذكر العصورُ انه في سنة ٢١٧ ق.م [١] التقت الفيلة الهندية والأخرى الافريقية في المعركة الأولى والأخيرة من مثلها في التاريخ) .

---

(١) ٢١٧ ق.م معركة رفح بين بطليموس الرابع (فيلوباتر) ملك مصر وانطيوخس الثالث السلوقي . وفي هذه المعركة ثبت المصريون من ابناء البلاد بعد انهزام سادتهم الاغريق ، على الرغم من حداثة عهدهم بالتدريب العسكري . وكان ملوك البطالسة لا يأتمنون المصريين على السلاح ولا يشركونهم في الحروب . وبعد هذه المعركة تحول مظهر السيادة الاغريقية في مصر وصار المصريون هم السادة في وطنهم .

كانت الحاجة إلى زيادة الانتاج الزراعي في ذلك الوسَط غير المبشّر حاجـــة ملحة للغاية ؛ فحين تدفق اللاجئون عـلى القطاع في سنة ١٩٤٨ ارتفع عدد سكانه بين عشية وضحاها من مائة وعشرين « ١٢٠ » ألفاً إلى اربعمائة « ٤٠٠ » الف نسمة . وكان المائة والعشرون ألفاً من السكان الأصليين قد استثمروا جميع الاراضي الصالحة للزراعة في ذلك الشريط بطبيعة الحال . فهل يمكن ايجاد ارض زراعية اضافية يفلحها اللاجئون ؟ كان على مصلحة الشؤون الاجتماعية من الادارة المصرية للقطاع ان تصارع هذه المشكلة .. وهكذا صارعتها ونجحت في ذلك .

لقد سوّت الاكوام الرملية بـ « بالبولدوزرات » ؛ وبذلك جلبت إلى وجه الأرض طبقة الصلصال البنيّ الخصيب الـــتي تكون مستورة بالرمال الصفراء ؛ كما دقّت مضخاتٍ مائية تشتغل بالبـترول كي تنتح الماء الجوفي لتوزيعه على التربة الحديثة الظهور .

وكنتيجة لذلك ، فان المساحة المنزرعة باشجار الحمضيات في القطاع ارتفعت من خمسة « ٥ » آلاف دونم [1] إلى خمسة وخمسين « ٥٥ » ألف دونم ، كما زادت مساحة الأراضي المنزرعة بالغلال قدراً كبيراً .

ويُسمح للاجئين والسكان الأصليين على السواء ان ينالوا قطعــاً من هذه الأرض الجديدة في حدود ثلاثين دونماً لكل منهم . اما صادرات الثمار الحمضية من القطاع إلى اوروبا فهي صادرات معتبرة الآن ؛ والدخل الذي يعود به هذا التصدير على زارعي الحمضيات شيء يُرحَّب به سكان غزة كثيراً وبخاصة اللاجئون منهـــم . وهو مقدَّر ومشكور بصورة خاصة لأن حصص المؤن التي تستطيـع وكالة هيئة الامم ان توفرها لهم ،

---

(١) الدونم هو مساحة الف متر مربع ، أي ربع فدان تقريباً .

من مواردها المالية الضئيلة ، ليست إلا مجرد حد ادنى قدره الف وخمسماية « ١٥٠٠ » كلوري[1] للشخص الواحد طوال اليوم . وهذا قدر كاف لابعاد الموت لكنه غير كاف لتوليد طاقة قادرة على ان تبذل يوم عمل نشيط . هذا علاوة على ان هنالك الآن اكثر من عشرين « ٢٠ » الف طفل يحق لهم تناول الاعاشة لكنهم محرومون من ذلك ، لمجرد ان الأموال الضرورية لتوفير اعاشاتهم غير موجودة . وهكذا فان الدخل النقدي من تصدير الثمار الحمضية قد هبط على اللاجئين كنعمة من السماء في احرج الأوقات . وهو لم يهبط عليهم جميعاً بطبيعة الحال ، كما أنه ليس كافياً حتى لو أضفناه إلى « إعاشة » وكالة الغوث ، ومع ذلك ، فانه يقدّم خدمة معتبرة .

***

حين سألني الرئيس جمال عبد الناصر عن انطباعاتي في زيارتي هذه ذكرت له ، بين اشياء أخرى ذكرتها ، ما تقوم به الجمهورية العربية المتحدة من جهود في خدمة اللاجئين الفلسطينيين في قطاع غزة . وكان تعليق الرئيس دبلوماسياً وانسانياً معاً . لقد قال : ان هدف الجمهورية العربية المتحدة هو مساعدة الأطفال في مخيمات اللاجئين في ان يكونوا مواطنين نشيطين ومفيدين لفلسطين العربية وللعالم العربي ككل ، أثناء ما هم ينتظرون العودة إلى وطنهم في الجانب الآخر من خط الهدنة الحالي . ما الفائدة منهم لأنفسهم أو لوطنهم إذا لم يُعطَوا الفرصة لأن يعيشوا حياة عادية ، ويقوموا بدورهم في ُشغل العالم ، ويكسبوا المهارة والخبرة التي يمكن كسبها فقط عن طريق القيام بعمل أو آخر ؟

بهذا كان الرئيس يقول ، بعبارة أخرى ، ما سمعته أذناي من

---

(١) وحدة حرارية .

« اختيارية »[1] مخيم « جبالية »[2] . لقد حدثوني عن تصميمهم على استعادة ديارهم ، ولكنهم أيضاً تكلموا عن التعليم الأعلى وفرص الحصول علـــى أشغال وخبرة وفرتها لهم الجمهورية العربية المتحدة . ولقد فطن هـؤلاء الاختيارية ايضاً الى نقطـــة ان ابناءهم كانوا يخدمون وطنهم وأنفسهم جهدهم حين ينالون تعليماً جيداً ويجدون لأنفسهم أعمالاً تُكسب خبرة وتدريباً .

---

(١) اختيارية : وجوه القرية والمتقدمون في السن والمركز من أهلهـــا . أما في المخيم فهم شيوخ الحمائل القاطنة فيه .

(٢) جبالية ضاحية كبيرة من غزة صب عليها الصهاينة الغاصبون نقمتهم في الآونة الأخيرة لشدة مقاومة أهلها .

مديرية التحرير

The Liberation Province

هناك طريقان بين القاهرة والاسكندرية ، إحداهما تخترق الدلتا ، والأخرى تسير في الصحراء الغربية . وطريـــق الدلتا ملأى بالأشياء المتنوعة ومثيرة للاهتمام الانساني . وهي تقطع فرعي نهر النيل « دمياط » و « رشيد » ، وتمر بحذاء مدن « بنها » و « طنطا » و « دمنهور » . إنها غاصة بالسيارات وعربات الشحن ، كما تقرقع قُطر ركابٍ كثيرة على سكة الحديد الموازية . وهناك فلاحون يشتغلون في « الغيطان » (وهي حقولهم الخاصة الآن) وطيور « أبو منجل » بيضاء واقفة منتصبة حول الفلاحين العاملين . وبالمقارنة مع ذلك فان الدرب الصحراوي خالٍ وشظِف ومملّ . وهو لا يسير في اتجـــاه مباشر ، فأنت تبدأ أولاً بالسير على طريق « الجيزة » وكأنك ذاهب لزيارة الأهرام . غير أنك قُبيل ان تصل المنصة الطبيعية الصخرية هناك — المطلّة على طرف الدلتا والتي عليها الأهرام — تستدير هذه الطريق مبتعدة باتجاه اليمين بصورة حادة ، وفي لحظـــة تكون قد خلّفت الدلتا والاهرام كليهما وراءك .

هذه هي الطريق التي سلكها « نابوليون » [1] ، لكن في الاتجاه المضاد ، في طريقه من الاسكندرية إلى ميدان القتال في « أمبابة » [2] ؛ وهي

(١) سنة ١٧٩٧ في حملته المشهورة على مصر ، حلماً منه بانشاء امبراطورية فرنسية في الشرق ولقطع شريان بريطانيا عن مستعمراتها في الشرق الأقصى .

(٢) « امبابة » . المعركة الشهيرة بين نابليون والمماليك . وقد تم في اثرها فتح القاهرة .

الطريق الواضح التي يسلكها أي جيش ينوي التقدم إلى القاهرة ، ففيها لا يعترض تقدُّمه أي نهر يكون على الجيش ان يعبره . ولو انتصر الالمان في موقعة « العَلمين[1] » ودخلوا الاسكندرية ، فلا شك ان دباباتهم كانت ستزحف مسرعة من الاسكندرية إلى القاهرة فوق هـذه الأرض المكشوفة الصلبة . إنها ريفٌ متاوج السطح خالٍ من الحياة ؛ ولا بد أنه كان كذلك منذ نهاية العصر الماطر ، زمنَ كان جميع شمال افريقيا جنوبي جبال « أطلس » قد غدا جافـاً تماماً ، كله ، ما عدا شريط من التربة السمراء الخصيبة التي نحتتها المياه من هضبة اثيوبيا ورسّبها النيل في مصر . وعلى كل من جانبي وادي النيل ، فوق مستوى النهر ، ظلت الأرض أرضاً صحراوية طوال العشرة آلاف سنة الأخـيرة ، إلا حيث يتعاون الفكر والجهـد الانسانيان فيرفعان مـاء النيل لريّ تربة الرمل والصلصال المتعطشة لذلك ، ويحوّلان تلك الأرض إلى أرض زراعية .

* * *

لخُواء الصحراء وكونها على وتيرة واحدة تأثير منوّم ، لذا كنت في شبه غفوة حين انعطفنا فجأة انعطافاً حاداً إلى اليمين ، واتجهنا ثانية إلى الدلتا . كنا الآن نجتاز حطام مـا يمكن انه كان معسكراً حربياً هائلاً أقيم هنا لتغطية التقدّم غرباً إلى القاهرة ، أيام الحرب العالميـة الثانية . هنـا ظهرت لنا طريـق سكة حديدية أخذت تمتد في اتجاه الشرق ، بحذاء الطريق المعبد الذي نسير عليه . وعند الكيلومتر العشرين من طريقنا شرقاً ، تقريباً ، بدت لنا زرقة داكنـة عند منخفض في نجود الصحراء المدبوغة . كان يمكن ان تكون البحرَ الذي هو في سمرة الخمر ؛ لكنها في الواقع كانت لمحة من بساتين نخيل الدلتا وحقول القطن فيها . ثم مررنا تحت قوس فاذا نحن في مديرية التحرير .

---

(١) بدأت في ٢٣ تشرين الأول ١٩٤٢ واستمرت ١٢ يوماً ، وتعتبر بداية نهاية الحرب الثانية .

ما هي مديرية التحرير ؟

انها رقعة من أرض صحراوية سابقاً ، تمتد على طول طرف الدلتـــا الغربي وأعلى من مستواه . ومساحتها الاجمالية هي ستماية « ٦٠٠ » الف فدان (والفدان يعادل اكراً واحداً تقريباً) . من هذه المساحـة تم استصلاح ماية وستين « ١٦٠ » الف فدان منذ بُديء مشروع مديرية التحرير قبل عشر سنوات . امـا الاربعماية والاربعون « ٤٤٠ » الف فدان الباقية فسيتم استصلاحهـــا بشكل مطّرد بعد أن يكون السدّ العالي في اسوان قد بدأ في العمل

ان جميع أرض مديرية التحرير أعلى من مستوى النيل ، ولو لم تكن كذلك ، لكانت قد ُفلحت منذ خمسة آلاف سنة . إلا أنه : لما كان معدل ارتفاعها هو ٣٠ متراً فوق مستوى ماء النهر عند طرف الدلتا ، ثم يرتفع إلى علو ٧٠ متراً في اتجاه وادي النطرون — فقد كان عـلى مديرية التحرير ان تنتظر حتى يتم اختراع المضخة الـتي تعمل بالبترول كيما َتجترح اعجوبة نفخ الروح في الصحراء . وتقوم المضخات برفع الماء من احدى ترع الدلتا وتصبّه في قناة تسير موازية لطرفهـا . . لكن على ارتفاع سطح الصحراء . وهناك مضخات اخرى تقـــوم باستخراج المياه التحت — ارضية في جوف الصحراء نفسها . ومصدر هذه الميـاه الجوفية لا يزال لغزاً محـيّراً .

هل هو ماء متسرّب خلال افريز الصحراء المحاذي للدلتا ؟

او ان هناك نيلاً جوفياً يناظر النيل السطحيّ ويرافقه في مسيره الطويل من اثيوبيا والمنطقة الاستوائية إلى البحر المتوسط ؟

لا أحد يدري . ولم ُيتوصّل بعدُ إلى قرار ما يرجّح واحدة من هاتين النظريتين المتغايرتين . اما ما تم التوصل إلى تأكيده فهو ان هذه المياه الجوفية غزيرة وافرة . وفي المواطن التي انقضى على النتح منهـــا

عشر سنوات لم يبدُ حتى الآن اية إمارة تمّ على انكماش في منسوبها .

انظر الى صَبّاب هذه المضخة المتدفق من « بيت البابور [1] » في « عَمّالٍ [2] » من الخرسانة ، وأدر طرْفك إلى مجموعـــة « بطـّات بكين » هذه التي تتراشق الماء . أي غبطة للبطة في الصحراء انهـــا تستطيـع تحميم نفسها بسخاء وكأنها في مستنقع ! ان هـــذه الصحراء المرويّة لهي فردوس للبط ! وإناثه ترد هـــذا الجميل فعلاً ، إذ تعطي الواحدة منها ٢٠٠ بيضة في العام كمعدل ثابت . وهي كذلك فردوس لفصائل الماشية المهجّنة ، والمتولدة من تهجين الابقار المحلية على فصيلة ابقار « هيرفورد Hereford » و « هولشتين Holstein » . ان الأبقار لا تستطيـع الحياة على الرمـــل ، لكنها تسمُن على البرسيم والفِصّة Alfalfa اللذين تسخو بها الصحراء حين يُمزج رملها بطمي النيل ثم تُروى التربـــة الحاصلة بالماء .

***

مع ان الدلتا تقع على بضعة كيلومترات إلى الشرق من مديرية التحرير ، واوطأ منها بعدد يسير مـــن الامتار ، فإن محاصيل مديرية التحرير غيرُ محاصيل أرض جارتها . وقد عبّر عن ذلك المهندس المشرف بأن قال : « ان المديرية أرض ضد الأرز ، وضد القطن » . وتفسير ذلك أن كلاً من هذين المحصولين ، الأرز والقطن ، يتطلـّب ماءً كثيراً يشربه بنهم ، فإذا كان على زراعتها ان تعود بربح ما ، فانه يتوجب أن يتم سقيها

---

(١) بيت البابور : غرفة أو كشك يقام فوق البئر الارتوازية لصيانة المحرك وحفرة البئر من الامتلاء بالرمال .

(٢) العمال القناة الرئيسية في أرض مسقية ، ومنها تتفرع القنوات الأضيق ، والواحدة من هذه « شبر » كما يسميها المزارعون .

بماءٍ تدفعه الجاذبية الأرضية ، وهي هنا قوة اتجاه الماء إلى أسفل . أما الماء الذي يتم الحصول عليه عن طريق الضخّ الذي يكلّف بترولاً فهو أبهظ نفقةً مما يسمح باستعماله لزراعة مثل هذه المحاصيل .

اذن ما هي مزروعات مديرية التحرير ؟

يمكن القول ان محاصيل هذه الأرض مكمّلة لمحاصيل الدلتا لا مثيلة لها . انها محاصيل مناخ البحر المتوسط التقليدية على وجه التخصيص . فاشجار الحمضيات واللوزيات هي السائدة ، لكن هناك أيضاً أشجار المانجو ، ربما لتذكير المرء ان ههنا منطقة دون مدارية أيضاً ، رغم ان المديرية فوق مستوى النيل .

* * *

اثناء ما كنا نجتاز حد مديرية التحرير الجنوبي ، كان بوسعنا أن نتتبع تقدُّمَ الاستصلاح عن طريق لحظ اختلاف ظلال الوان التربة . كانت الحقول الأحدث استصلاحاً تكاد لا تتميز في لونها عن تربة الصحراء العذراء ، لكن كل سنة من الفِلاحة كانت تزيد في لون التربة شخطة من السواد . وفي آخر الأمر ستغدو هذه الحقول التي جَلب اليها الانسان الماء في سمرة تلك الحقول التي يرويها النيل بحكم مستواها ، دون تدخل الانسان في الطبيعة .

لقد طالما أُطلقت عبارة « مصر هبة النيل[1] » على السنة الناس . هكذا سُميت مصر من قديم الزمان . بيد ان النيل لم يمنح الانسان أية محاصيل الا بعد أن منحه الانسان عمله . ولو ان الانسان لم يوجّه مياه النيل في ترعٍ للسقي واخرى للصرف ، لكان وادي النيل الأدنى الذي انقلب « مصراً » خصيبة قد ظلّ منطقة مستنقعات للبرديّ ، كما

(١) تعزى هذه العبارة إلى هيرودوتوس ، ابي التاريخ ، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد .

كانت مصر قديماً ، وكما لا يزال جنوب السودان في قطاع مجرى « النيل الأبيض » ما بين « جوبا » و « ملكال » . حتى الوقت الحاضر ان ما يصدق على مصر والصعيد ، لهو صدق بصورة أكثر جلاءً في حال مديرية التحرير . هنا لا شك ان الانسان هو الطرف الخلاّق في تلك الشراكة المثمرة بينه وبين النهر .

في مديرية التحرير يجني الانسان جزاءه ، فليست المديرية فردوساً للبط والماشية فحسب ، بل للفلاّحين ايضاً . ان هذه الأرض الزراعية المستصلحة حديثاً تجذب الآن بعض أكثر الفلاحين سعياً وراء المغامرة ، من الدلتا . والأمل أمامهم هنا مبشّر حقاً . ولا تقدّم الحكومة الأرضَ والماء فحسب بل تضيف إلى ذلك المساكن ، والمدارس ، والعيادات الصحية والنوادي ومساجد العبادة . والقرى في هذه الـ « مصر » الحديثة نماذج لما تعتزم الحكومة أن تجعل القرى القديمة على منواله ، بالتدريج . هنا تجد الشوارع نظيفة ، وترى البيوت مرتبة وواسعة . وهي مبنية من « الطابوق » الأجوف ، الذي يجعلها باردة في الصيف دافئة في الشتاء . وفيها يتوفر التيار الكهربائي وحنفيات ماء الشرب . والحقّ أن هذه بيوت جديرة بفلاحين طيبين ، في حين انه في الـ « مصر » القديمة – حيث لا زالت معظم المساكن غير مهيأة – يشعر المرء بالألم ويدرك المفارقة الموجودة بين الفِلاحة الممتازة الفريدة من نوعها لتلك الحقول الشبيهة بالجنان ، وبين بؤس الأحوال التي يعيشها الفلاحون وعوائلهم .

إذا استطاعت حكومة الجمهورية العربية المتحدة ان تنجز هدفها في رفع مستوى جميع قرى مصر حتى تبلغ مستوى مديرية التحرير ، حينذاك تكون قد فعلت للشعب المصري أكثر مما تمّ له على يدي أي حكم سابق في الخمسة آلاف سنة من تاريخ البلاد حتى الآن .

جبل برقة الاخضر

Cyrenaïcàs Green Mountain

من الضروري لجزيرة ما أن تكون منفصلة عن غيرها تماماً حتى يمكن اعتبارها جزيرة حقاً . وقد حوّل الردم الذي قام به الاسكندر الكبير اثناء حصاره « صور »[1] جزيرتها إلى شبه جزيرة . لكن الوسط الفاصل ، أو الشقة العازلة إذا شئتَ ، لا يتحتم أن يكون هو الماء ، فالصحراء القاحلة تصلح بديلا من ذلك ؛ والواقع ان كل واحة لهي جزيرة ، لكنّ الماء في داخلها عوضاً عن كونه حولها . كذلك يمكن أن تكون الجزيرة مفصولة بالماء من جانب وبالصحراء من جانب آخر ؛ وهذه طبيعة جزيرتين اثنتين يحوطها ماء البحر الابيض المتوسط وحجارة ورمال الصحراء الليبية والصحراء الكبرى . وليست الاكثر بُعداً إلى الشرق من هاتين الجزيرتين – جبل برقة الأخضر – إلا نسخة طبق الأصل ، **لكنها أقصر** ، من جارتها الشمالية جزيرة كريت . أما تلك الاكثر بعداً إلى الغرب من الاثنتين – والمعروفة في اللغة العربية باسم المغرب ، أي غرب العالم العربي – فهي نسخة طبق الأصل ، **لكنها اطول** ، من جارتها الشرقية « صقلّية » .

ان الانفصال أو العزل اصطلاح نسبي . فلبلوغ أي من هاتين الجزيرتين من جهة الشمال ، يجب أن تركب البحر ؛ ولوصول احداهما من الجنوب

(١) حصار صور سنة ٣٣٢ ق.م بعد انتصار الاسكندر على داريوس في معركة ايسوس .

يتوجب عليك ان تصطنع الجمل ركوبة لك . لكن الصحراء ، مثلها مثل البحر ، تغدو سبيلا ميسّراً لأيما إنسان يحسن استعمال الوسيلة المحلية المناسبة للاتصال ؛ فعلى مساق التاريخ تمّ غزو كل من الجزيرتين بنجاح ، كما تسنى احتلالها عن كلا الطريقين . ُخذ الألف الاول قبل الميلاد مثلاً ؛ اثناءه استُعمر جبل برقة الأخضر من البحر على يدي الاغريق الوافدين من بحر إيجه ، بينا استُعمرت سواحل المغرب البحرية ، في نفس الوقت تقريباً ، من قِبل الكنعانيين الوافدين من الموانىء الفينيقية على طول ما هو معروف الآن باسم الجمهورية اللبنانية . وفيما تلا ذلك استحوذ الرومان على كل من « الجزيرة الخضراء » و « الجزيرة الكنعانية » ضمن امبراطوريتهم التي احاطت بالبحر المتوسط من جميع اطرافه .ومن بعد اولئك ، فتح العرب المسلمون في القرن السابع من الفترة المسيحية تينك الجزيرتين الرومانيتين آنئذ ، عن طريق البر .

ولقد جاءت الموجة الأولى من العرب الفاتحين على ظهور الجمال لا سطوح المراكب ؛ غير ان قادتهم لم يكونوا من أهل البادية ، بل مدنيّين من أهل الحواضر التجّار في الدولتين المدينيّتين العربيتين : مكة والمدينة . لذا قدّروا حسنات عيش الاستقرار والحياة المدنية ، فصانوا الحقول والضِياع والمدن التي خلّفها لهم سابقوهم الاغريق والكنعانيون والرومان وزادوا في ازدهارها .

وكانت الموجة الثانية من الفاتحين العرب هي التي صفّت انجازات ستة عشر قرناً من الحضارة في كلتا الجزيرتين الافريقيتين غرب مصر . وكان الغزاة هذه المرة مسلمين من حيث الاسم أيضاً ، لكنهم في الحقيقة وثنيون ، وفي الواقع برابرة لا قادة حضريون لهم كي يكبحوا جماح نزعاتهم التخريبية . لقد خرّب « بنو هلال » المغرب ، وخرّب « بنو ُسليم » جبل برقة الأخضر ؛ وقلبوا حقوله وبساتينه إلى المراعي

الصيفية التي كان « الليبيّون » البدو قد حوّلوا الجبل الأخضر اليها قبل وصول الاغريق . ومنذ القرن الحادي عشر من الفترة المسيحية عانت كل من برقة والمغرب خسوفاً ثقافياً كاملاً . امـــا بداية عهد يقظتهما الحديثة فتبزغ في القرن التـاسع عشر . وفي برقة في الوقت الحاضر ، يَرى المرء احفاد « بني سُليم » هؤلاء ينتقلون من طور الرعايـة إلى عصر البترول ، مباشرة .

***

لمّا كنا نطير من القاهرة إلى بنغازي نهاراً ، فقد أُملت ان أحرز نظرة عاجلة من السماء ألقيها على الجبل الأخضر في طريقنا إليه . لكنه كما يحدث كثيراً في السفر بالطائرة ، فان روح الفضول تندحر أمام الغيوم . ومن خلال تقطّع في السحب ، لمحت ، لثانيتين لا أكثر ، ميناء « طبرق » ، وهي واحدة من المدن التي استحرّ القتال فيها في الحرب العالمية الثانية وتبادلتها الأيدي ، كل ذلك لاعتبارها غنيمة استراتيجية هامة . ثم ان السحب حجبت الجبل الأخضر ، ولم يكفها هـــذا الشر ، بل عاكستنا إلى درجة أنها جعلت هبوطنا في مطار « بنغازي » متعذراً آنذاك .

و « بنغازي » — « برنيقة Berencie » — « يوهسبيريدس Euhesperides » هي آخر المستعمرات الاغريقية الى الغرب التي شكّلت عنقود ما يسمى « المدن الخمس في برقة » . ومثلها مثل « توكرة Tokra » — « توشيريا Taucheria » وهي جارتها الأقرب من جهة الشرق ، فان « بنغازي » تقوم على الساحل ، وفي ارض منبسطة شبه صحراوية . ولربما تم انشاء « يوهسبيريدس » و « توشيريا » لشراء الحيوانات الحيـــة والجلود والصوف المتوفرة لدى الليبيين الرعويين في السهب ثم شحنهـــا . وفي كلتا هاتين المدينتين الاغريقيتين ، كان الاغريق متخلّين عن طبيعتهم المحلية في ديارهم. وكذلك ايضاً كانوا في « طلميثة Ptolemais » منفذ « برقة » البحري ،

وفي « أبولونيا Apollonia » ، مع أن كلاً من « طلميثة » و « ابولونيا » لا تقع خلفها الصحراء الـــتي على مستوى البحر ، وإنما النجود المواجهة شمالاً ، أي الجبل الأخضر . وكانت « شحات » و « برقة » — وهما المدينتان الكبريان بين « مدن برقــة الخمس » قــد جُعلتا في الداخــل لا على الشاطىء ، وعلى المرتفعات لا على مستوى البحر ، كما لم تُقاما في نقاط تناسب التجارة بصورة خاصة ، وإنما في مواقع توفـّر لسكـّانها التمتع بوجود اراض فلاحية خصبــة ومراعي ممرعة قريبة .

وفي بنغازي يغدو منظر البحر مبهجاً ، فالبحر المتوســط المشهور بزرقة مياهه ليس أشد منه زرقة في هذا المكان . وبالمقابلة يكون منظر البرّ متشابهاً وكئيباً . فالأرض الأفضل من شبه صحراوية ، تنتشر فيها مع الأسف بحيرات مالحة قرب الشاطىء . انها ارض مستوية من الرسوبات الجيرية التي لم تُستبدل ، حتى الآن ، بأية بديلات من قشرة الأرض . والغطاء الطبيعي للسهب الجاف نثار من الاجمات اليابسة التي تتربى عليها أغنام تغدو سمينة بصورة مدهشة ،وتكون أصوافها جيدة . ولا يتقبّل هذا السهب غير المعشب زراعةَ الأشجار ، وان كان يمكن زراعة اشجار اليوكالبتس والزيتون فيه . ويمتد البصر عبر السهب البراح إلى الداخــل حتى يصطدم بافقٍ شمالي شرقي يحــدّه خط ازرق باهت ، وهذا الخط خادع وجذاب : انه حافة الجبل الأخضر ؛ وكلما طال بقاء المرء في « بنغازي » تزايدت رغبته في أن ينهض ويذهب اليه .

ها نحن ذاهبون اليوم . لقد اجتزنا « توكرة » ، حيث تم اكتشاف مجموعة أثرية من الخزف الاغريقي ترجع إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد فأثبتت أن المستعمرات الاغريقية كانت قبل قرن واحد من الزمان على الأقل مما كان يُظن في السابق . وهنا من عند « توكرة » تبدأ الأرض في التغير بصورة فجائية ، فتنقلب من منبسط جيري إلى حفــافي وعرة

لمنحدر . ان طريقنا التي ظلت حتى « توكرة » مستقيمة في الارض المستوية ، تتلوى وتنعطف الآن فيما هي تتسلق المرتفع . وفي القمة نغدو فوق أرض مستوية ، من جديد . هنا ، على حوالي الف قدم او أكثر فوق سطح البحر ، يكون السطح الصخري المكسو بالشجيرات مقطّعاً برُقَع من الأرض العميقة الغنية فيها محاصيل كثيفة خضراء من الشعير والقمح ، ويستمر كذلك حتى نجد أنفسنا أخيراً في مروج شاسعة الامتداد من القمح .

هذا هو « المرج Al - Mraj » .. صاحب السعادة ، وهو جدير بهذا الاسم ، إذ ان المنطقة لهي اكبر رقعة متصلة من الارض الخصيبة في اقليم برقة ، وربما في ليبيا بكاملها . وكانت « برقة » ، ثانيةُ أم مدينة من « الخمّس الاغريقي » تقوم وسط هذا السخاء . في هذا السهل المرتفع كان المستوطنون الاغريق يشعرون أنهم في وطنهم ، فأراضيه المفلوحة تشبه حقول « بيوتيا Boeotia » تمام الشبه ، وينابيعه تجعل من غير الضروري للمقيمين فيه أن يبنوا أية آبار واسعة مماثلة لتلك الواقعة تحت أرضية « فورم » ميناء « برقة » ، أي « طلميثة » .

ان « المرج » لهو أخصب رقعة زراعية واسعة في « الجبل الأخضر » ، لكن هذا ليس الا الطابق الأول من الجبل . فإلى الشرق من « المرج » هناك طابق ثانٍ فوق جبل في ارتفاع ذلك الجبل الذي رقيناه من مستوى سطح البحر ووعورته . وفي الحافة الشمالية لهذا الطابق الثاني تقف – أو بالأحرى تتعلق – أم مدينة من المدن الخمس – شحات .

حين تقف على الساحل ، في كل من « أبولونيا » أو « طلميثة » ، وتحدّق النظر إلى الجبل المرهِب الذي يبدو عائقاً لأي نفوذ إلى الداخل عند ذاك تُعجب بروح المغامَرة البطلة عند الاغريق ، وصلابتهم ،

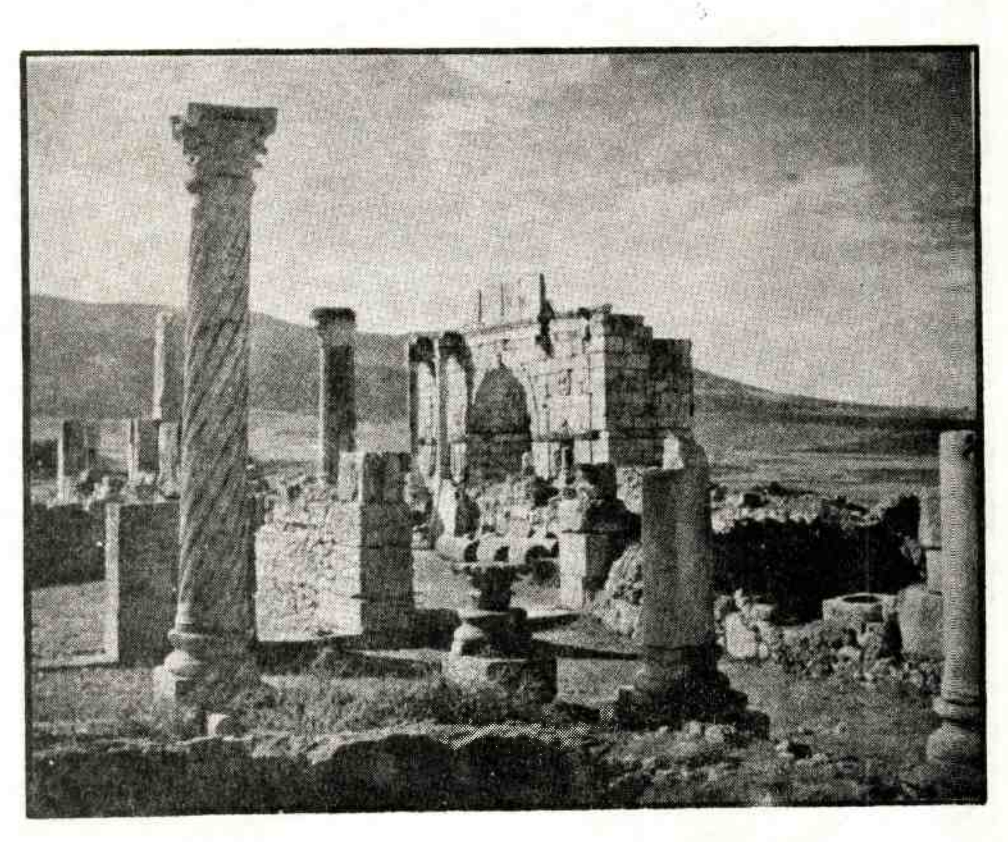
وتغدو ميّالاً إلى القول بأنهم يمتلكون تلك الحاسة السادسة التي قادت « بريجهام يونغ Brighàm Young » فوق « السهول العظمى Great Plains » وفوق جبال « روكي الشرقية Rocky » إلى أراضي حوض « اوتاه Utah » القابلة للسقي . ومن موقع « طلميثة » كان على الاغريق أن يتسلقوا جبلاً واحداً كي يكتشفوا « المرج » ، ويعثروا على الغنى . لكنه كان عليهم أن يرتقوا جبلاً آخر ، بعد الأول ، ليكتشفوا ويستثمروا حقول ومراعي داخل البلاد .

***

لقد تلاشت من عالم الحقيقة التاريخية الآن تلك القصة التقليدية التي يرويها « هيرودوتوس Herodotus » ، عن تقدم الاستعمار « لبرقة المخمّسة » من جزيرة « ثيرا » الإيجية الصغيرة . إن القسم الاكبر منها قد حطمته المكتشفات الاثرية الحديثة ، فلم تبق تلك الحكاية « تشدّ الماء » . أما إذا كان هناك أي جزء صادق في القصة — عن ان المستعمرين الاولين المثبّطي العزيمة قبالة شاطىء جزيرة « بلاتيا Platea » قد طلبوا مشورة « موحى دلفي » — فإن لنا أن نعتقد أن الموحى قد نصحهم أن يضعوا قلوبهم وعقولهم على الصوف . ولا بد ان كانت تربية الاغنام في « الجبل الاخضر » اهتماماً موجوداً لدى الليبين الرعويين قبل قدوم الاغريق على الماء . أما المستوطنون الاغريق فقد قوّوا نشاط هذه الصناعة بفلاحتهم الأرضَ الصالحة للزراعة ، كما فعل المهاجرون الايطاليون تماماً في الثلاثينات من هذا القرن . لقد جعلت الأغنام والحبوب « شحات » و « برقة » اثنتين من أكثر الدول المدينية كثافة سكان ، وثروةً ، وقوة في العالم الهليني قاطبة ؛ وكانت « شحات » بارزة في ميادين الشعر والفلسفة والعلوم أيضاً . فالشاعر « كليماخوس Callimachus » ، والجغرافي « اراتوسثينيس Eratosthenes » ، والفيلسوف

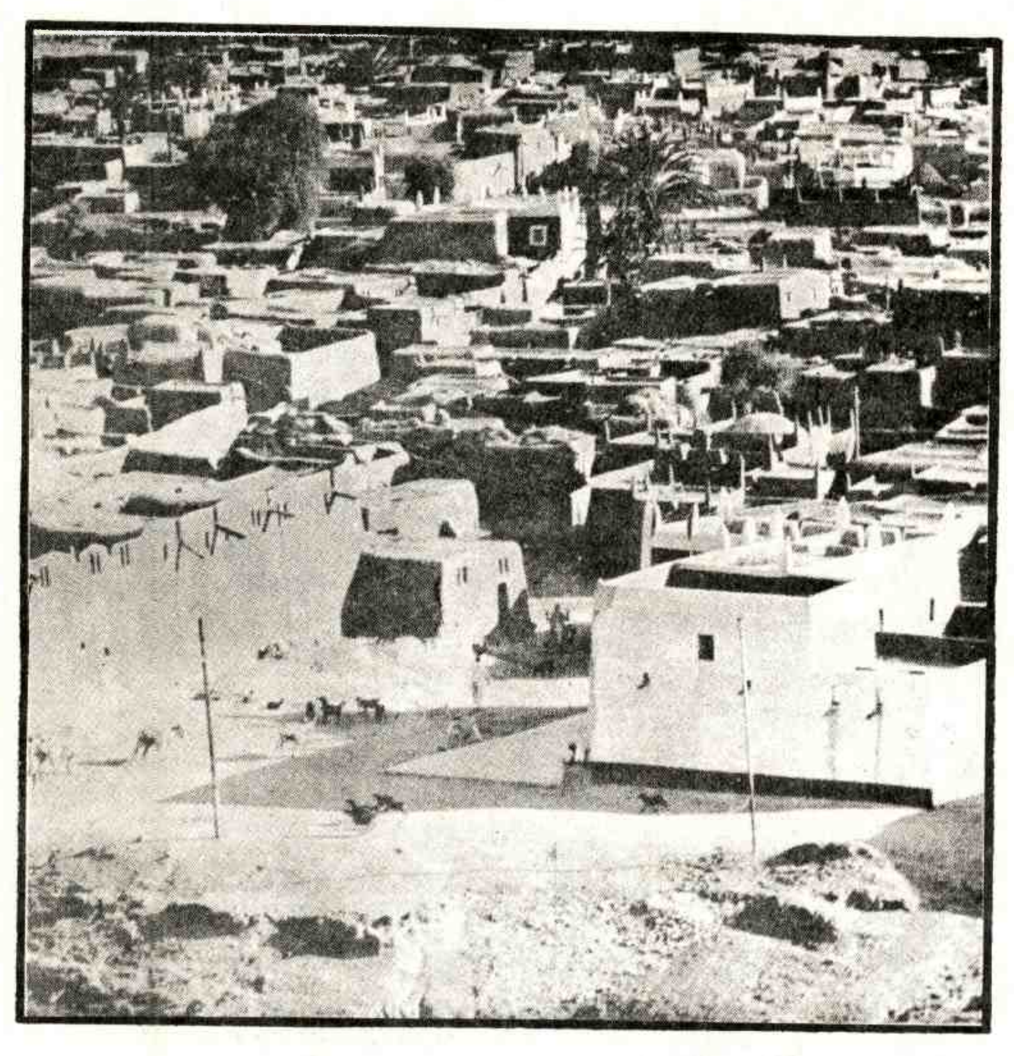
« كارنيديس Carneades » كلهم كانوا من « شحات » ، كما كانت الطبقة المثقفة في تلك المدينة كادرَ مدرسة الاسكندرية أيام البطالسة .

ان الغدير في « شحات » منعش مثل الغدير في « اريحا Jericho » ، ومن الممكن التكهّنُ بعالم جديد كامل ثم دفعُه إلى الوجود بفضل سلسال من الماء العذب . والحق ان ذلك الغدير الجاري دون حافـة أعلى الجبل الأخضر ، في مدى النظر من شاطىء البحر ، كان الأمّ الحانية والمصدر الثرّ لانجازات المدينة ، الرائعة ، والتي شملت كل ميدان .



فوليوبوليس

مدينة رومانية كانت على مقربة من مدينة « فاس » الحالية في مراكش



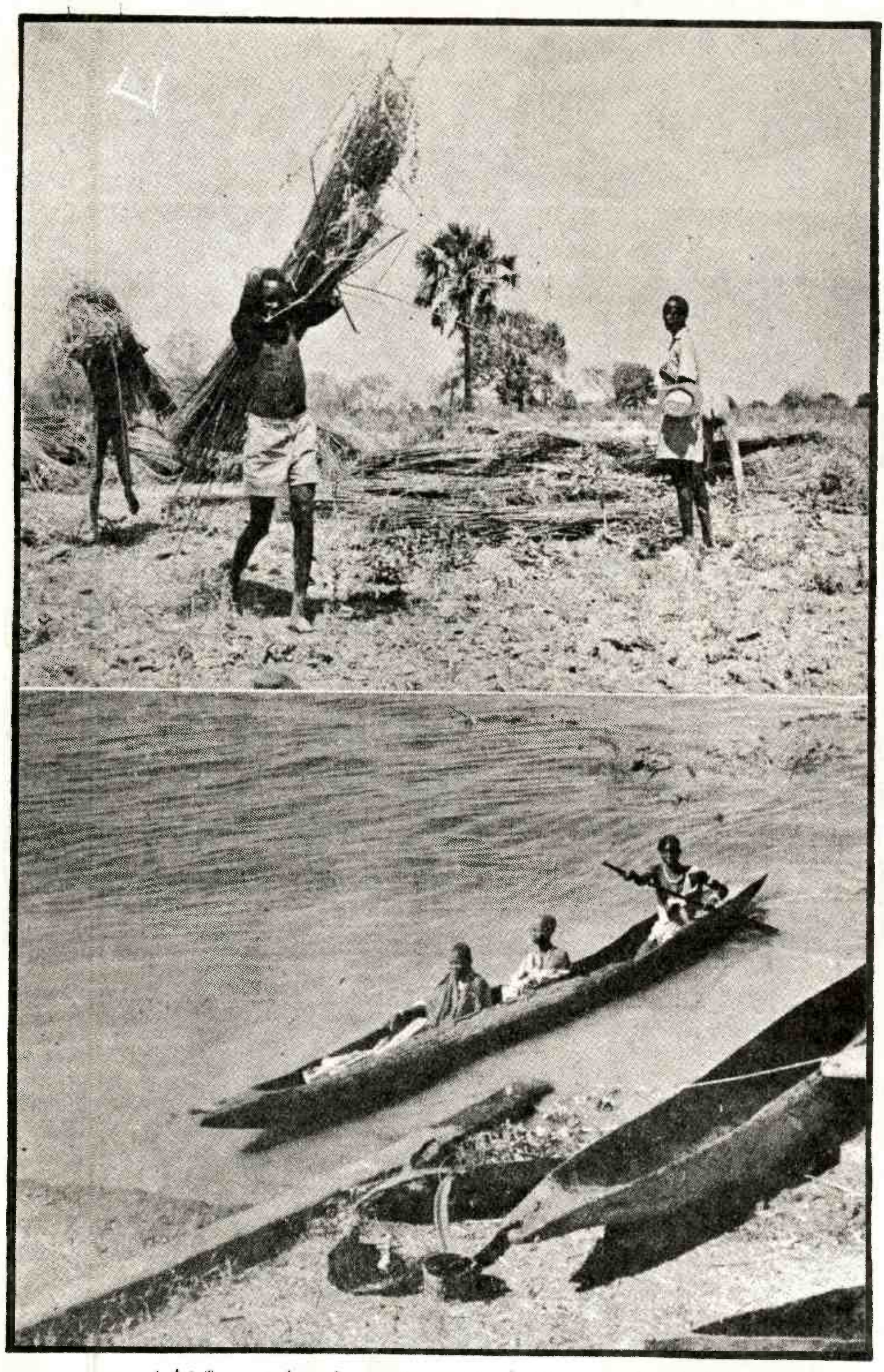
كانو – نيجريا

المدينة التي ذكّرتني بمدينة « الرياض » في جزيرة العرب والتي هي دلالة على نفوذ الثقافة الاسلامية في جميع اراضي السودان القديم .

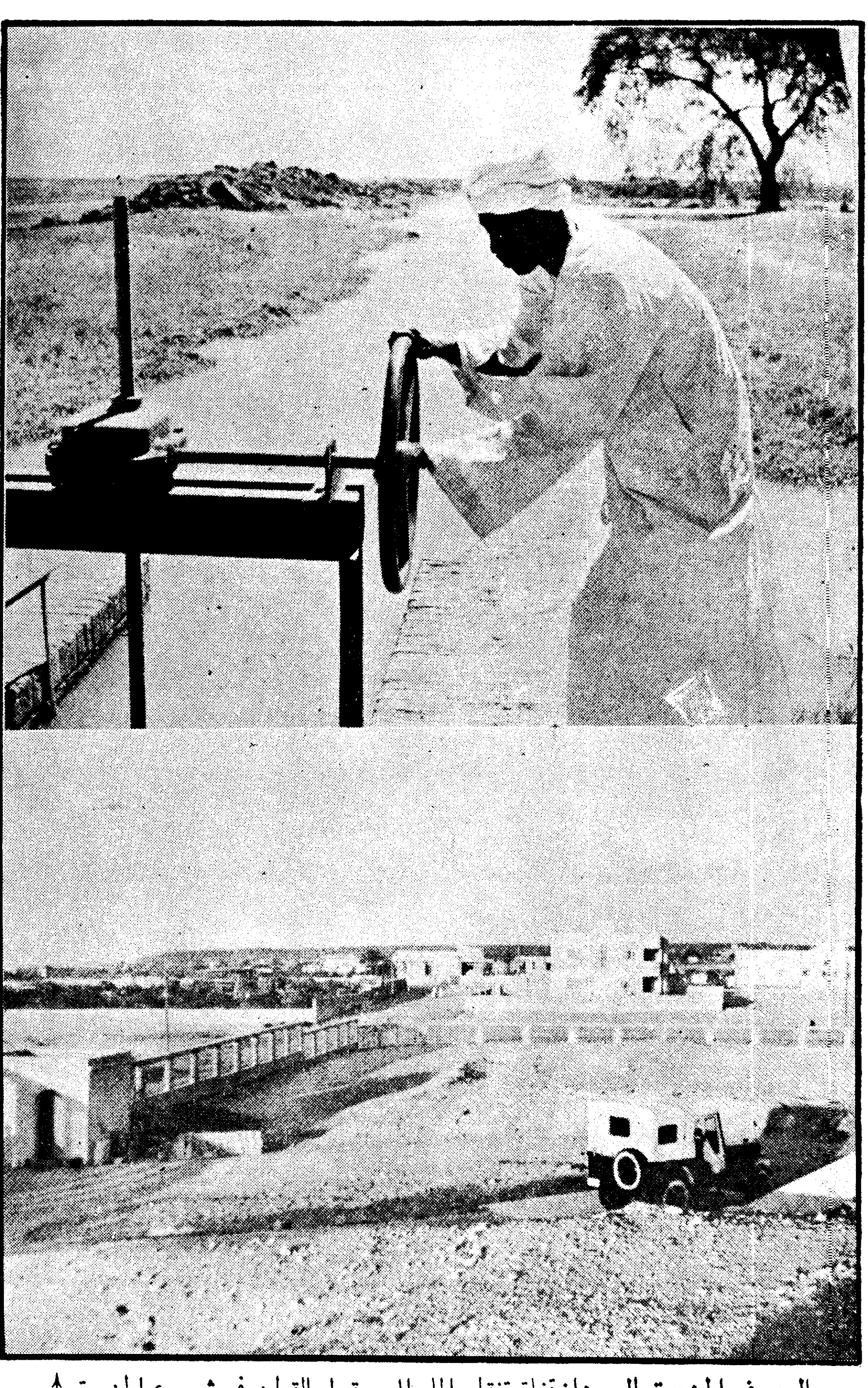


لاغوس – عاصمة نيجريا سكانها ثلاثة ارباع مليون نسمة

منظر على الشاطىء



الدنكا والشلوك زنجي من قبائل الدنكا يجمع القصب في منطقة «سدّ الجبل» بجنوب السودان وأفراد من «الشلوك» يركبون قارباً، هو شجرة مجوّفة يعبرون بها النيل.



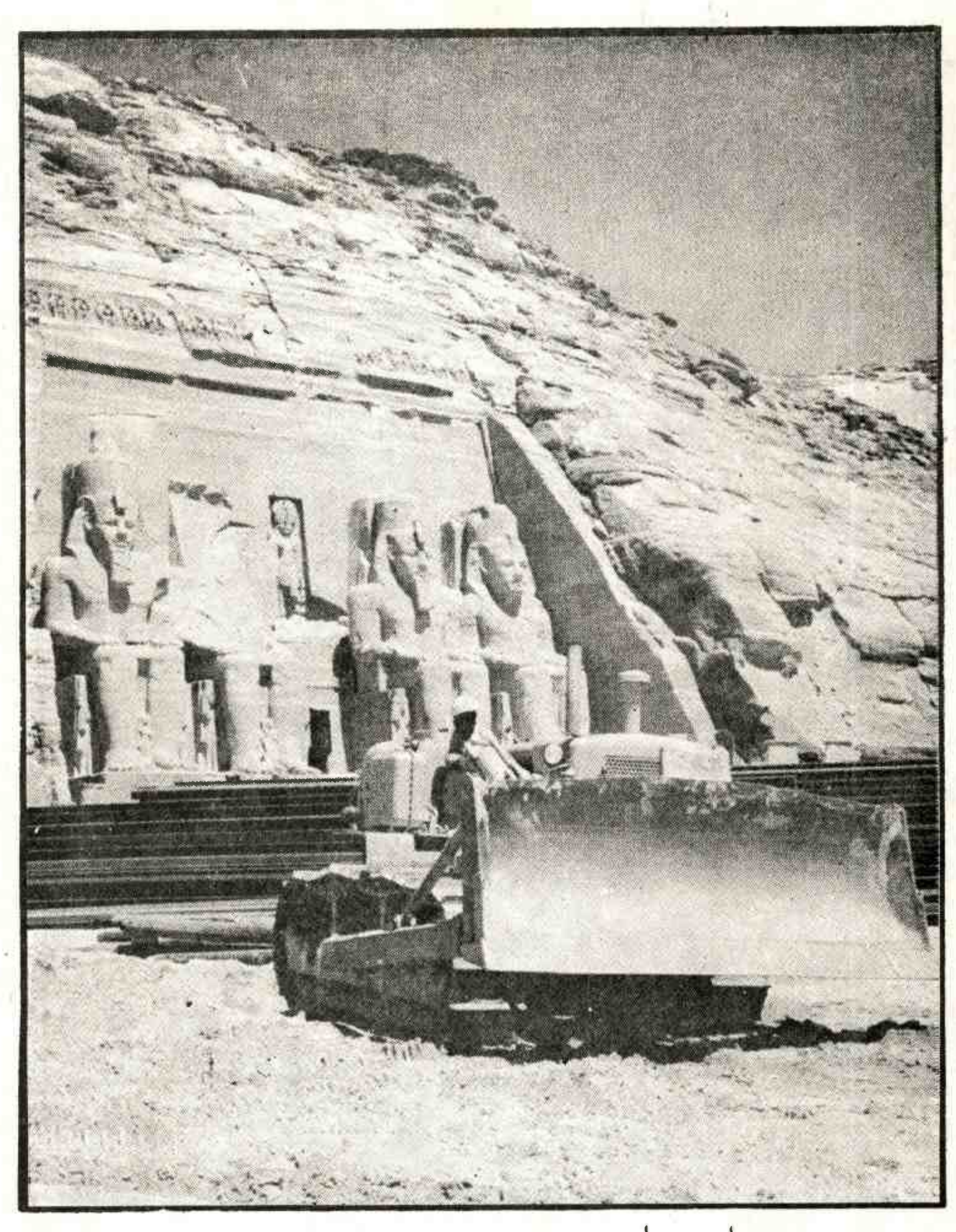
الري في الجزيرة بالسودان قناة تنقل الماء إلى حقول القطن في مشروع الجزيرة. ↑

↓ منظر قطاع من « غزة » ، وفيه بعض منازل بنتها القوات المصرية هناك .



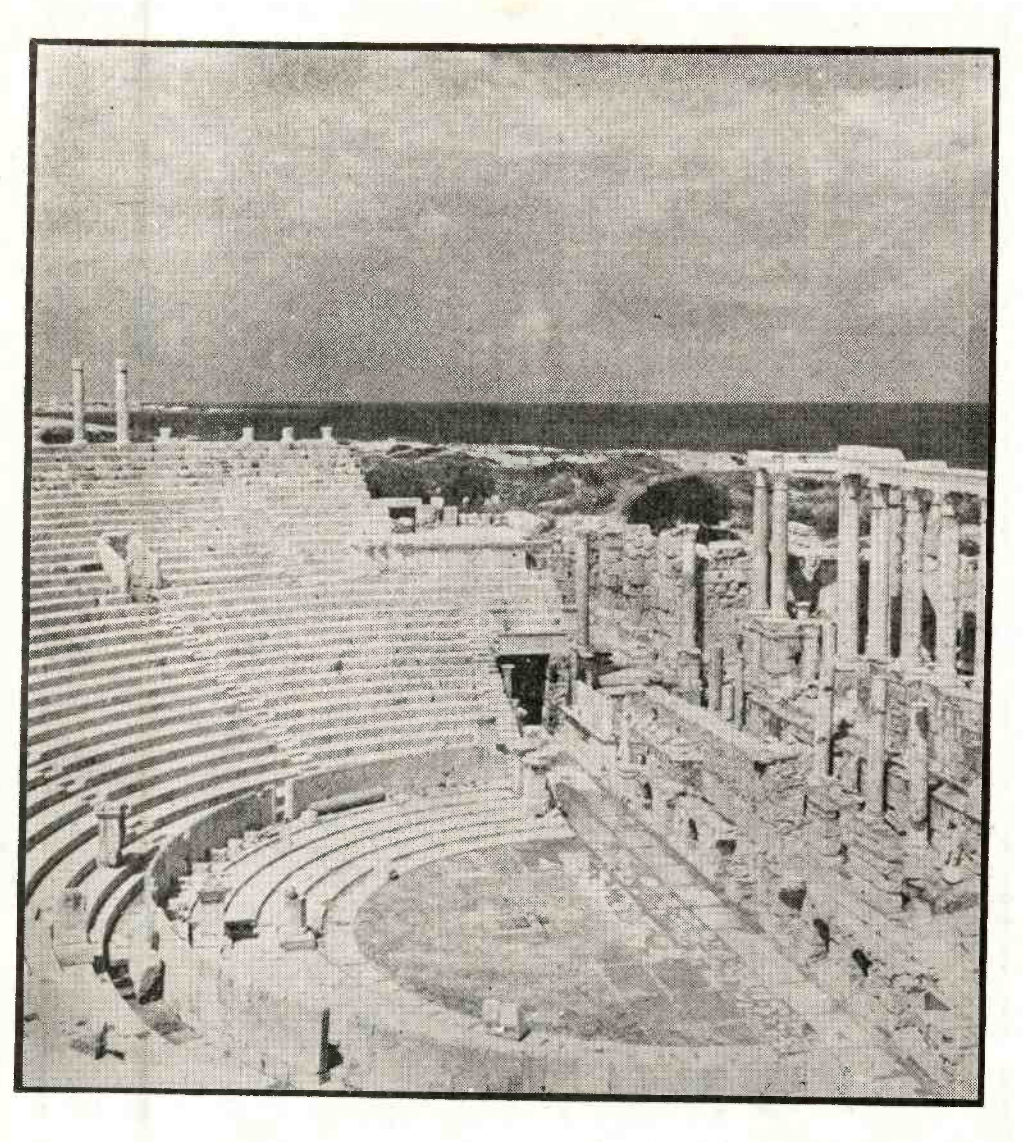
ُقنة آرادان - اثيوبيا

لاحظ انها جبل لكن قمته مستوية كالمنضدة .



« ابو سمبل »

تماثيل رعمسيس الثاني الاربعة . وهي منحوتة في الصخر ، وسيجري تقطيعها إلى أجزاء كي يتم نقلها إلى مكان آخر ، لأن البحيرة التي سيخلقها السد" ستغمرها هي والهيكل إذا لم تنقل ، وبذلك يضيع هذا الأثر التاريخي الفريد .



لبتس(لبدة) – ليبيا

المدرج الروماني وساحة التمثيل ..

المراكز التجارية

The Emporia

« الامبوريا Emporia » أي المراكز التجارية ، هو الاسم الذي أطلقه الاغريق على المدن الكنعانية [١] التي أنشأها المستوطنون على الساحل ما بين برقة والمغرب ، حيث ينفَذ البحر المتوسط حتى يلامس الصحراء الكبرى لمساً مباشراً ، دون أية جزيرة بينهما . ولما كان هنالك ثلاثة مراكز تجارية كنعانية على طول هذه الرقعة من ساحل شمال افريقيا ، فقد أطلق عليها الاغريق مجتمعاتٍ اسمَ « Tripolis » ، أي « المدن الثلاث » . وذلك لتمييزها عن « Pentapolis » أي « المدن الخمس » في برقة ، وبخاصة ان « المدن الخمس » كانت جارةَ « المدن الثلاث » إلى الشرق . وكانت الأسماء الاغريقية ثم الرومانية لهذه المدن هي على الترتيب « لبسس [٢] Lepcis » ، و « اويا Oea » و « صبراتة Sabratha » . والواقع ان المدينة الوسطى من الثلاث لم تنقرض ، بل ظلت حتى الوقت الحاضر ، وفي موقعها قامت مدينة « طرابلس » الحالية ، وظلّ اسمها شاهداً على أختي « أويا » المندثرتين . ونحن نعلم انه حيث تستمر الحياة ناشطةً لأجيال وعصور طويلة ، فإن ركام السابقين يتغطى بطبقات نشاط الأهلين اللاحقين . ولذا تكون مثلُ هذه المدينة عديمة الجدوى وقليلة

---

(١) الكنعانية : ارجاعاً لمن يعرفون بالفينيقيين إلى حقيقتهم ، إذ شاع اسم « الفينيقيين » حتى كاد البعض يعتبرهم غير الكنعانيين .

(٢) لبسس : هي لبدة في الوقت الحاضر ،

الغَناء في نظر المنقّبين وعلماء الآثار . ومن حسن حظهم ، على كل حال ، ان المدينة الوسطى هي التي كُتب لها البقاء من بين الثلاثة المراكز الكنعانية .

لقد اندثرت الحياة في كلتا الاخريين ، حتى ان أحداً من الاجيال التالية لم يفكر حتى في أن يستفيد من حجارتها في بناء جديد . ومن هنا كانت صبراتة و « لبدة » نعمةً وجنّة موعودة لعلماء الآثار ، كما كانت المدن الاغريقية – الرومانية التي نشأت واندثرت على طول ساحل تركيا الجنوبي . إن قدراً كافياً منها لا يزال قائماً ، أو انه أعيد ترميمه فقام ، وهو كاف لتمكين الزائر من تصوّر ما كانتا عليه ، بعين خياله ، فيما مضى من الأيام .

***

يبدو ان هذه المراكز الثلاثة قد أنشئت في القرن السادس قبل الميلاد ، وان « قرطاجة » ، المدينة الكنعانية الرئيسية في المغرب [1] ، هي التي أنشأتها . ومن الواضح ان قرطاجة قد فعلت ذلك بهدف منع الاغريق من احراز موطىء قدم لهم في تلك المنطقة .. ولقد حاول الاغريق ، دون جدوى ، ان ينشئوا مستعمرة لهم على ضفة نهر « سينوبس Cinyps » وهو « وادي كام Wadi Cam » الحالي . ويقال انه كان هناك ارض خصيبة من الدرجة الاولى (مع ان منظر الوادي من الجو لا يوحي بشيء من ذلك الآن) ، وكانت الأرض الزراعية منشودَ الاغريق في تلك الأيام . وفي ظل الكنعانيين ، ثم

(١) المغرب : كانت قرطاجة في تونس . والمغرب هنا تعني كل ما هو إلى الغرب من ليبيا الحاضرة .

الرومان من بعدهم ، كانت زراعة الحبوب وغرس أشجار الزيتون زراعة مزدهرة وعميقة الجذور في أراضي « الامبوريا » ؛ إلا أنه ، وكما يوحي الاسم الاغريقي ، ما كانت هـذه المدن الساحلية تغتني بفضل الزراعة وإنما بفضل النشاط التجاري الذي تبذله بجد .

لا ينبعج البحر المتوسط بين برقة والمغرب حتى يلامس الصحراء الكبرى فحسب، بل إنه يقضم قضمتين من الصحراء نفسها - خليج سدرة ، وخليج قابس ، اللذين يحدّان « الأمبوريا » من الشرق والغرب على الترتيب . هذا هو القطاع الساحلي من شمال افريقيا الذي تكون فيـه الطريق التي تعبر الصحراء ، بين البحر المتوسط وافريقيا المدارية – أقصر ما يكون . وهي الطريق التي كانت تُنقل عليها محاصيل السودان الغربي إلى اوروبا ، قبل ربط داخل افريقيا الاستوائية الغربية بساحل القارة – على المحيط الأطلسي – بالسكة الحديدية في مطلع القرن الحاضر . ان الطرق الحديدية الحالية ، لا شك ، ستستمر في العمل . غير أنه لا بدّ ان تعود تجارة داخل افريقيا المقفل إلى الاتجاه شمالاً عبر ليبيا قبل نهاية القرن الحالي ، وبخاصة إذا ما أنشئت طريق سيارات حديثة على طول طريق القوافل التاريخي هناك .

لم يكن العصر الذهبي « للأمبوريا » هو العصر الذي كانت فيه موطىء قدم لتجارة الامبراطورية الكنعانية ، وإنما كان في أول عهد الامبراطورية الرومانية – وبخاصة الدور الأخير من ذلك العهد ، قبل فترة الخمسين سنة الفوضوية النكباء في العقود المتوسطة من القرن الثالث للفترة المسيحية . في هذا الوقت ، كان يتسنى لأي مواطن في الامبراطورية الرومانية أن يظفر بصولجان الامبراطورية ، وينتزع عرش روما . وكان في مقدور أي امبراطور لم يفقد حماسته لوطنه الأصلي أن يسخّر موارد الامبراطورية الضخمة لخدمة المدينة التي قدِم منها وتجميلها . وكان من شأن هـذا

التجميل والازدهار المصطنَع ان يكون مؤقتاً فلا يتعدى عمره حكم ذلك الامبراطور . بل قد لا تتم إقامه البناية العامة الفخمة في زمنه ، فتظل هذه ناقصة أو غير مهيأة (حتى بعد اكمال بنائها) من ذلك اليوم حتى الوقت الحاضر .

خذ الامبراطور « فيليب العربي [١] Philip the Arabian » مثلاً على ذلك . لقد حكم هذا الامبراطور في بواكير نصف القرن الفوضى ، وترك لنا كامل المدينة الرومانية التي أقامها في موطنه الأصلي . وكان ذاك الموطن مدينة مغمورة [٢] على السفح الجنوبي الغربي لجبل الدروز ، في الجمهورية العربية السورية الحاليّة . ولم يكن فيليب هو الذي بدأ بتقليد بناء المدن. على العكس لقد كان مقلّدا في ذلك ، ألم يسبقه الامبراطور « لوشيوس سبتيموس سفيروس Lucius eptimus Severus » حين زيّن مسقط رأسه « لبدة Lepcis » في المملكة الليبية الحاضرة ؟

ولقد كان ظفر [٣] « لوشيوس سفيروس » بعرش روما الامبراطوري نوعاً من رد الاعتبار ، بل الثأر الذي قامت به مدن شمال غرب افريقيا الكنعانية جزاء تدمير روما لقرطاجنة في العصور السابقة ، قبل ثلاثة قرون ونصف من الزمان [٤] . يومذاك تصرفت روما في افريقيا بقساوة وعنف ، وهاهو « لوشيوس سفيروس » الافريقي يشق طريقه إلى العرش الامبراطوري من خلال حرب أهليـة مزقت الامبراطورية من اقصاها إلى أقصاها . أوَليس ذلك انتقاماً كفؤاً ؟!

---

(١) فيليب العربي ، هو فيليب ماركوس جوليوس حكم من ٢٤٤ - ٢٤٩ م.

(٢) يقصد بصرى أسكي شام .

(٣) حكم روما من ١٩٣ - ٢١١ م.

(٤) دمرت روما قرطاجة سنة ١٤٦ ق . م وقصة السناتور « كاتو » مشهورة بهـذا الخصوص . وقد دمرها شيبيو افريقانوس الابن .

كان ذلك « الروماني – الكنعاني – المستوطن » قاسي القلب وعديم الشفقة كأي روماني أصيل في عهد « كاتو »[1] ، لكن عنفه لم يكن يملك عليه نفسَه ، وما كان يسخّره للفوز بمطامحه الشخصية وحدها . ان ما قام به هــذا الامبراطور من تعمير وتجميل في مسقط رأسه ، مما لا يزال الآثاريون يكشفون روائعه كل يوم ، لشاهدٌ قاطع على نشاطاته في ميدان الخدمة العامة بصورة ناجحة . كان « سفيروس » يستشعر نزعة خاصة نحو الخدمة العامة ، وكان لديه قدر من متانة الخلق والنشاط كافٍ لأن يجعل نزعته العامة قوةً فعّالة ذات أثر كبير .

وهكذا استطاع اعادة النظام إلى صفوف الجيش الامبراطوري ؛ ووسّع حدود الامبراطورية في الشرق بأن جعلها أعالي نهر « دجلة Tigris » بعد أن كانت منطقة « الفرات الأعلى Upper Euphrates » . ولقد مات في مدينــة « يورك York » البريطانية ، وكان وجوده فيهـا يقتضيه رحلةً ربمـا استغرقت شهرين أو ثلاثة في ذلك الزمن . ألم يزحف من « لبدة » ؟ بلى ، وهــذا في حده عمل عظيم ، وان كان الانتقال في ايامنا الحاضرة لا يستغرق يوماً واحداً من ايام الصيف .

كانت كلمة المرور[2] التي عيّنها « سفيروس » عشيّة آخر يوم من حياته هي « عامل Laboremus » ، وكان اختياره لهذه الكلمة بالذات خير ما يصوّر مثله الأعلى وما زاوله في حياته على السواء . لقد ظـل « سفيروس » حتى آخر نفس من عمره « يعمل » كجندي في الجيش العامل ؛ ومهما نفَرنا الآن من قساوته ، فإن اخلاصه وتكريسه نفسَه للواجب سيظلان

---

(١) كاتو أي السناتور كاتو الذي اعتاد ان يصيح في مجلس السناتو الروماني وفي كل جلسة له : « دمروا قرطاجة » .

(٢) كلمة المرور : الكلمة السرية التي تعطى لأفراد معسكر ما كي يتعارفوا بهـا ، ويجري تغييرها كل ليلة .

ينتزعان له احترامنا على الدوام .

***

وتترك البنايات العامة التي تم تشييدها في عصر الامبراطورية في روما لدى المشاهد ، نفسَ الانطباع الذي تتركه مخلّفات الامبراطور (الفرعون) رمسيس الثاني : تماثيله العملاقية في « ابو سمبل » مثلاً . كلتا الفئتين تتميزان بالضخامة الهائلة ، لا الروعة المتقنة ؛ أما من حيث الجمال فأين همــا من مخلّفات « اخناتون Akhnatoun » [1] أو حُق ابيض من « اتيكا Attica » !!

كان أعظم ما أبهجني وظللت أذكره في « لبدة » هو الميناء . هنا ميناء تاريخي قديم كامل غير منقوص ، لكنه جافّ الآن ، وفيه حَلْقات ربط السفن ، والعنابر والمستودعات القائمة خلف الرصيف ، وكذلك الفنارات التي ترشد السفن ، على جانبي مدخل الميناء . أما في « صبراتة » فان المدرج الروماني الذي رمّمه علماء الآثار الإيطاليون بمهارة فائقة نظيرٌ حقٌ للمدرج الروماني السليم في « اسبندوس Aspendos » من « بامفيليا Pamphylia » .

يوم زرنا « لبدة » كان ما أنشاني إلى درجة أكثر من آثار العهـد الروماني هو طبيعة الأرض التي شاهدناها في طريق عودتنا من « لبدة » إلى طرابلس . لقد سلكنا الطريق الساحليـة ، وهي أقصر الطرق ، وخاصة ذلك الجزء منها الذي يكاد يكون نقطة التقاء البحر بالصحراء . أما في عودتنا فقد سلكنا الطريق الداخلية ، فَرَقِينا « جبل نفّوسـة Jabal Nafusa » ، ومررنا بـ « القصبة Kasabat » و « خضراء Khadra » و « ترهونة Tarhuna » قبل أن نهبط من الجبل إلى السهل الساحلي .

---

(١) اخناتون : اول من أبدع فكرة « التوحيد » وتلقفها وحورها اليهود فيما بعد .

وحالما رقينا حاشية الجبل ، تغيّرت طبيعة الأرض بصورة فجائية دراماتيكية كأنما تم ذلك بحركة من عصا ساحر غير منظور .

على طول حاشية الجبل من جهة الداخل اجتزنا بمجموعة من الوديان « البسّامة » إذا جاز للأودية ان تبتسم . هناك كانت مروج .. وهناك رأينا حقول قمح .. وهناك تملّينا بجمال بساتين الزيتون ؛ ولا أنسى شارعاً طويلاً جداً تزينه أشجار اليوكالبتس على الجانبين ، وبين هذه الأشجار كانت فجوات خالية ، تطل منها صفوف من أشجار السّرو التي لا بدّ أنها زُرعت لغرضٍ لم يوافق عليه الأهلون البائسون ؛ ألا وهو زيادة جمال الريف . لقد كان ذلك تجسيداً لما وصفه « لوكريتيوس Lucretius » عن جمال الطبيعة الذي وهبته زراعة المحصول النقدي لأرض ايطاليا بعد حرب هانيبال [1] وكان هذا الجمال في هذه الديار أيضاً نتاج اليد الايطالية الصناع .

***

كان جمالاً ساحراً ، لكنه كان حزيناً أيضاً . هذه البيوت البيضاء الرشيقة ، وهذه المجمّعات السكنية المحبّبة ، وكل منها مزوّدة بكنيستها الخاصة ، وعيادتها ، وناديها ؛ لقد رأيناها من قبل في « المرج » على الجبل الأخضر .. وهنا كما هناك ، كان الايطاليون الذين بُنيت لهم هذه البيوت ، وعُمّرت لرفاهيتهم هذه الحقول والبساتين – هم الآن في مطاوي التاريخ ، شأن معاصري « سفيروس » في مدينته « لبدة » .

كان إقصاء الايطاليين من ليبيا عملاً « عادلاً » لأن قدومهم اليها كان عملاً « لا ـ عادلاً » بصورة فظة . ففي ١٩١١ هاجمت ايطاليا الدولةَ

---

(١) هانيبال : بطل قرطاجة الذي زحف إلى روما وسقط عليها بعد اجتيازه جبال الألب وانتصر في معركتي « تراسيميني » و « كني » سنة ٢١٦ ق. م.

العثمانية بدم بارد (وكنت آنذاك تلميذاً في المدرسة البريطانية في روما).
ولقد أخضعت ايطاليا ولاية ليبيا العثمانيةَ مستعملة في ذلك أنكرَ الأساليب البربرية ، ثم إنها جرّدت الليبيين من أفضل أراضيهم كيما يستقر فيها المستوطنون الايطاليون .

وليست ايطاليا وحدها هي التي اقترفت مثل هذا الاثم ، فما جرى في ليبيا يشبه ما جرى في الجزائر ، وكينيا ، وروديسيا الجنوبية ، وأخيراً في اسرائيل . في جميع هذه الحالات تم تطوير بلدٍ متخلّفٍ تطويراً اقتصادياً عبر انزال شرور فظيعة بسكان ذلك البلد المقيمين وأصحابه الشرعيين . وها هي « طواحين الله »[1] العادلة قد طحنت بحتميّتها المعهودة . لقد طُرد المستوطنون الاوروبيون بدوْرهم . ومع ان التحسينات الاقتصادية التي أدخلوها قد ظلت بعد مغادرتهم البلاد فليس من الأكيد ان أصحابها الجدد ، وهم المواطنون الأصيلون ، سيكونون قادرين على الاستفادة من مكتسباتهم الموروثة على الوجه الأكمل .

***

ما أقل الحكمة التي تسيّر هذا العالم ! ما كاد الايطاليون يكسبون حريتهم ووحدتهم حتى شرعوا يُخضعون الشعوب الافريقية في « اثيوبيا » و « ليبيا » ويجرّدونها من حريتها ! ومن أجل أن تفوز إيطاليا بامبراطورية استعمارية تكون نظيرة لما تمتلكه كل من فرنسا وبريطانيا ، صبّت « روما » دم شبابها وأموال مواطنيها فيما وراء البحار ؛ وذلك في نفس الوقت الذي كان فيها شمال ايطاليا نفسه يشكو الفقر ، وجنوبها يكاد يكون معدَماً . وحين يجوب المرء في « أثيوبيا » أو « ليبيا »

(١) طواحين الله : السنين .

الحاضرة ،لا مناص أن يأخذه العجب وتشدهه الدهشة ساعةَ يخمّن ضخامة الأموال التي « اغرقتها » إيطاليا في هذين القطرين الافريقيّين . آه لو استثمِرت هذه الأموال في صناعة شمال إيطاليا وزراعة جنوبها ،إذن لأمكن تحويل ايطاليا كلها إلى َضربٍ من الفردوس الأرضي منذ وقت طويل !
انه لمن المبهج ، ان ايطاليا قد ارتدّت إلى صوابها منذ نهـاية الحرب العالمية الثانية فأخذت تعمُر جنوبها الذي كان شبه مهجور في السابق . لكن .. ما اكثر الوقت الذي ُهدِر وضاع قبل هذا ! وما أعظم الجهود والثروة التي أُنفقت في غير سبيلها السويّ ! لقد كان هذا مأساة لإيطاليا ومأساة « لليبيا » و « اثيوبيا » أيضاً ..

نعم .. ما أقلّ الحكمة التي تسيّر هذا العالم !!

وداعاً يا افريقيا

Au Revoir Africa

وداعاً يا افريقيا !

وداعاً . لقد ظللت اسافر فوق أرضك طوال تسعة أسابيع متواليات؛ ومع هذ لم أزُرْ الا خمسة من اقطارك الكثيرة ، وحتى في هذه الخمسة لم أوشك في أيّ قطر أن أزور معالمه جميعاً . ان الرحّالة يظلّ يذكر متلهفاً أسماءَ تلك المناطق التي عجز عن زيارتها . وفي هذه الجولة عجزتُ عن زيارة بعض المناطق الجديرة بالزيارة لأنها ستتردد كثيراً على الألسنة في المستقبل . ففي السودان لم أزر « دارفور » وهي شِقٌ مناظرٌ لمرتفعات « اثيوبيا » ، وفيها نفس المناطق المناخية المتعاقبة ، من الاستوائية الى المعتدلة . وفي ليبيا لم أزر منخفض « فزّان » ، حيث الماء العذب قريب من سطح الأرض إلى درجة تسمح باخراجه واستعماله في زراعة الأرز . وحين يتضاعف سكان العالم ويغدون ثلاثة أمثالهم (وذلك في أيام هذا الجيل الحاضر) ، سوف ينشَر الكثير عن « فزّان » و « دارفور » . ألن تكون محصولاتها مطلوبة لاطعام الملايين من الأفواه الجائعة ! ان هاتين المنطقتين اللتين هما أرض الميعاد في المستقبل لهما جديرتان بالزيارة .. ولكن ، وداعاً يا افريقيا ، وآمل ألاّ تكون زيارتي هذه هي الإطلالةَ الأخيرة في حياتي عليك .

***

ان طائرتنا الآن تنفض عنها غبار « طرابلس Tripolitania » فيما هي ترتفع فوق مدرجها من مطار « ادريس » . واثناء ما هي ترتفع متجهة صوب الجنوب الغربي ، يتكشف لنا حشد من أشجار الزيتون على هيئة أشكال مربعة وكأنها مواقع معسكرات الكتائب الرومانية القديمة في الهواء الطلق . وتمتد هـــذه الأشجار الحسنة التنسيق بعيداً بعيداً جهة الشمال صوب « جبل نفوسة » الذي لا نكاد نلمحه الا قليلاً ، والذي تقع وراءه حقول ارزّ « فزّان » الموعودة .

الآن تدور طائرتنا دورة كاملة . هاهي القلعة الاسبانية في مدينة «طرابلس» تظهر لنا فيما نحن نعبر الساحل الافريقي ونتجه إلى اوروبا فوق عرض البحر المتوسط . أنا أنظر إلى الخارج جهة اليمين على أمل أن ألمح جزيرتي « مالطة » و « جوزو Gozo » . لقد خاب فألنا في ان نهبط في مطار « فالتا Valetta » في سفر الذهاب ، فهل يواكبنا الحظ هذه المرة ! يا للأسف ، لقد انحرفنا عن الجزيرتين فضيّعنا الفرصة : لقد خاب أملنا مرة ثانية . انها محتجبتان بسُجُف الضباب . أما « سنت بول St. Paul » فحظهـــا أوفر . ابتهجْ يا ارنولد ، ها هي « بورتو امبدوكل Porto Empedocle » وفيها « اغرغنتو Agrigento » الحديثة تظهر كلطخة بيضاء ، ثم صفُّ الهياكل الاغريقية الذي يظهـر دونها وهو لا يكاد يَبين . الوقت كاف لتسجيل ذلك . ثم نكون فوق « بالرمو Palermo ». ها إلى جنوبها منظر بركان « إتنا Etna » الذي تلفّه سحب من الزغب بينا ترتفع قمته من فوقها نافذة في السماء .

***

وفيما نحن نندفع فوق « اوستيكا Ustica » يلمع تحتنا ساحل « لوقانيا Lucania » . انظر ، هنا سفينة حربية يرافقها طرّاد ، وهما تتجهان صوبنا بادية عليهما ملامح الشر :

لقد ظننت انني ارى سفينة حربية
خارجة من خليج نابلي ،
ونظرت ثانيةً فرأيت ان السفينة ،
هي جزيرة « ايشيا »
أيتها الجزيرة التاعسة ، الجزيرة الحمقاء .
انها لا تستطيع المرور من تحت الأرض .

على هذه الصورة كان يمكن للشاعر « لويس كارول Lewis Caroll » ان يقول لو أنه رأى جزيرة « ايشيا Ischia » و « بروكيدا Procida » من طائرتنا أثناء ما كان ينظم قصيدته « سيلفيا وبرونو Sylvie and Bruno ». نعم ، لقد كانتا جزيرتين لا سفينتين . وأثناء مرورنا فوق جزيرة « فنتوتين Ventotene » الصغيرة ، بصخورها التّيْزكيّة ، تلمع لنا « غايتا Gaeta » – القلعة التي وقفت فيها السفينةُ « الملك بمبا King Bomba » وقفتها الأخيرة قبالة الأسطول الفرنسي .

« ثبّتوا أحزمة مقاعدكم » ، لأننا سنمر بعد قليل فوق جبل « سرسيللو Circello » وقلعة « تراسينا Terracina » (وقد وقفتُ على قمة كل منهما) : وهذا يعني اننا الآن نباشر الهبوط في مطار روما ! ونسمع : « سنهبط في غضون خمس دقائق » . ماذا ! خمس دقائق من « تراسينا » إلى « روما » ! لا بدّ أن هذه المسافة قد استغرقت القدّيس « بولس » يومين أو ثلاثة ، يومَ سيق من « بوتيليا Putoeli » إلى « روما » على « طريق الأبيا Via Appia » . اذن ها نحن الآن في « فيوميسينو Fiumicino » الكئيب – يا له من بديل مؤسٍ لمطار « كيامبينو Ciampino » البديع واطلاله على « كوادكنولو Guadagnolo »

والحصون الرومانية الرائعة ! الوقت كاف لتعبئة الأوراق المطلوبة .. ثم نطير من جديد .

***

نحن نعبر الساحل ، متجهين شمالاً غرباً . وقريباً ما نخلّف وراءنا ذلك الحساءَ الداكن الذي يعصره شقُّ نهر « التيبر Tiber » ونكون فوق الماء الأزرق من جديد . هنا تلوح مزرعة الكونت « كارانديني » النموذجية (وهذا الصديق رئيس شركة اليطاليا للخطوط الجوية ، وكان اول سفير ايطالي في بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية) . وهنا تلوح « سفيتا فشينا Civita Veechina » حيث هبط في سنة ١٨٤٩ جيش فرنسي بقصد احتلال روما ، وحيث رأيتُ المجنّدين الايطاليين في سنة ١٩١١ يصعدون بجهالةٍ إلى السفن ليشاركوا في حرب طرابلس .

الطائرة منطلقة . . هنا تلوح « كوسا Cosa » المستعمرةُ اللاتينية المطلة على بحيرتي « اوربيتلو Orbetello » التوأمين ، ثم ألمح جبل « ارجنتارو Argentaro » الذي كان جزيرةً في السابق لكن الرمال وصلت ما بينه وبين اليابسة . (ولا َتبين جزيرة « البا Elba » لأنها في الجهة الأخرى) . وأخيراً هنا يظهر أمامي البحر الأزرق الواسع فوقه غِلالة رقيقة من الضباب ، لا تنزاح حتى تكون الطائرة قد تخطت البحر المتوسط إلى حوض نهر « بو Poe » .

هناك نهران يتجهان في رحلتهما صوب الشمال .. انهما لا بد « بورميدا Bormida » و « اوربا Orba » . وتلك المجموعة من التلال لهي « مونتفرات Montferrat » . نعم ، انها هي ، فها هو « بو » الكبير نفسُه ينحر أسفل التلال بينا ينحدر اليه نهر « دورا بلتيا Dora Baltea » ليلتقي به في الكوع . لقد دخلنا الآن أرض الـ « سلاسي

Salassi » ، وفيما تنهد الينا الجبال المكللة بالثلوج ، ننظر نحن سفلاً إلى وادي « أوستا Aosta » .

ليس ارتفاعنا شاهقاً الآن .. وذلك لأن جبال « الألب » ليست شاهقة بدورها ، وبخاصة إذا قورنت بجبال « الانديز Andes » أو « الهملايا Himalaya » . وأنت حين تطير فوق جبال هملايا ، ولو على ارتفاع عظيم ، تحسّ البرد ينفذ من أرضية الطائرة فيلسع قدميك وكأنه صدمة كهربائية مفاجئة .

***

لقد ظللنا من طرابلس الى جبال الألب فوق ميدان « صراع الحياة » ، أمَا كنّا نجتاز « ساحة التاريخ » ؟ أمّا وها هي جبال الالب وراءنا ، فبامكاننا ان نتمدد بارتخاء ، فنحن الآن في القلب المتبربر للعالم المتحضر . ان فرنسا ، بريطانيا ، نيوفوندلاند ، والاسكا : كل هذه أقطار بلا تاريخ — أو على الأقل — بلا تاريخ يسوى ان يكون موضوع حديث . ولكن قبل ان نتمدد بارتخاء ، ها هي بحيرة « ليمان Lemann » ومدينة « جنيف Geneva » وهما جديرتان بالنظر إليهما .

جنيف ! ان الذكرى تعاودني إلى يوم من سنة ١٩١٦ ، كنت فيه واقفاً أمام قوس تذكاري أقيمَ للاحتفال بمناسبة مرور ثلاثماية وثمانين سنة على وصول « كلفن Calvin » إلى جنيف للمرة الاولى . واني لأتذكر ما قاله المسيو « نافيل » يومذاك : « منذ وفد ذاك الرجل إلى هذا المكان ، لم تبق المدينة على ما كانت عليه من قبل أبداً . » ثم تابع كلامه وكأنه يود ان يعزّي نفسه : « وعلى كل حال ، فان ذلك الضوء الكهربائي المبتذَل على طول شاطىء البحيرة قد انقطع .. فشكراً لهذه الحرب » .

كانت « هـذه » الحرب .. هي الحرب العالمية الاولى ، أمـا عند المسيو « نافيل » فـ « هذه » كانت ، ولا تزال ، تعني حرب جنوب افريقيا ، التي كان فيها المسيو « نافيل » مؤيداً متحمساً لبريطانيا العظمى . في تلك الأيام كانت الجريدة الوحيدة التي استطاع ان يرتاح المسيو « نافيل » إلى قراءتها هي جريدة « مورننغ بوست Morning Post » ، أما جريدة الـ « تايمز Times » فكانت « يعقوبية jacobin » متعصبة في نظره ، ولا يتحملها .

لكن من هو المسيو « نافيل » ؟

إنه ارستقراطي من أهل جنيف ، أي أنه محافظ إلى درجة مضاعفة . وهو عالم « مِصريّات Egyptologist » أيضاً ، وهـذا ما يمنحه تشوّفاً تاريخياً حقاً . مجيء « كلفن » ، مجيء التيار الكهربائي .. كان هذان مَثَلين من ابتذال مدينة جنيف في نظر مواطنهـا المسيو « نافيل » ؛ فهو لم يكن يعتبر وصول « كلفن » من حيث مضي الزمن أقدمَ بكثير من وصول التيار الكهربائي . أليس تاريخ وصوله سنة ١٥٣٦ ؟ ما هذا إلا هجرة قريبة العهد ، بل حديثة تماماً ، إذا قورنت بأيام بُنـــاة الاهرام ، أو بأيام ذلك الفرعون المصريّ القديم ، سلفِ كلفن ، اخناتون !؟ ان وصول كلفن ليس حادثة تاريخية ، لأنه حديث طازج لا يزال أقرب الى الحديث اليومي . إذن لنتمدّدْ بارتخـاء فيما نحن نسرع شمالاً صوب « جرينلند Greenland » ؛ ألا يجوز لنا استعادة منطق مسيو « نافيل » برهة من الزمن ؟!

غير أنه لا راحة للمسافرين في طائرة « جت » ، فـَ « ثبّتـــوا أحزمة مقاعدكم » تنطلق من بين شفتي قائد الطائرة مرة ثانية . ها نحن فوق « بوفيه Beauvais » . ثم نسمع : « بضع دقائق ونكون في

مطار لندن » ، وفعلاً كان ذلك . لقد هبطنا إلى الأرض من جديد .

***

وداعاً يا أفريقيا ! إذا كان المرء يقدر أن ينقذف من طرابلس إلى لندن في ثلاث ساعات ونصف لا أكثر ، فانه يستطيع أيضاً أن يعود إلى هناك بسرعة لا تنقص عن ذلك ؛ وفزّانُ ودارفور لن تنتقلا من موقعهما ، فهما راسختان مثل جزيرتي « ايشيا وبروكيدا » ، وكلّي أمل ان اراك يا افريقيا فيما بعد ..

الجامعات الافريقية

African Universities

في مساق جولتي في افريقيا أتيحت لي فرصـــةُ ان ارى شيئاً من الجامعات الافريقية التي زرتها ، فصار عليّ أن اقول فيها كلمة ما . في نيجريا والجمهورية العربية المتحدة ، استطعت أن ألقي نظرة على جميع الجامعات ما عدا واحدة في كل قطر . وفي ليبيا كنتُ ضيف الجامعة الليبيّة في بنغازي وطرابلس على السواء (وقد أبقيت كليات العـــلوم والتكنولوجيا في طرابلس بينا نُقلت كليـات الآداب إلى بنغازي) . وكذلك في اثيوبيا حيث اعتُبرتُ ضيفاً على جامعة اديس ابابا ، وزرت كلّيتين ملحقتين بها هما : كلية الصحة العامة في « جندار » ، والـكلية الزراعية في « العالمية » بين « دير داوا » و « هرر » . وهكذا فان نصيب الجامعات من صورة افريقيا في ذهني لهذه الجولة لهو نصيب كبير من الصورة ككل .

هل تُبدي جامعات افريقيا ، في درجة تطورهـا الحاضرة ، قدراً من المعالم المشتركة فيا بينها ؟

لا أستطيع اعطاء اجابة عامة عن هذا السؤال . ان ما رأيته من نشاطاتها قليل لا يسمح لي بالحكم ، وأنا أكره المغامرة في اصدار الاحكام . فمثلاً ، أنا لم أر أية واحدة من الجامعات الافريقية الـتي تصطنع اللغة الفرنسية لغـةً للتدريس ، أي واسطةً لنقل الثقافة المرتجاة . ان جميع

الجامعات التي زرتها تستعمل اللغة الانكليزية كلغة رئيسية أو لغة ثانية ، بعد العربية ، في التدريس ، مع أن هذه الجامعات ليست موجودة في أي قطر فيه أقلية اوروبية تتكلم الانكليزية ، بل جميعها في أقطار تضمّ عدداً قليلاً من الاوروبيين الذين طال استيطانهم في البلاد فساروا في بوتقة الانصهار المحلّي حتى صاروا من أهل البلاد .

خذ الجمهورية العربية المتحدة مثلاً : ان الجالية اليونانية التي ازدهرت في وقت ما ، وتكشّفت عن نشاط ثقافي طموح في الاسكندرية ، قد تضاءلت الآن وغادر معظم أفرادها البلاد . أما في الحبشة ، فان الجالية الايطالية لم تتناقص . لكنّ تقبّل أهل البلاد لوجودها يستند إلى ما يلمحونه في أفرادها من التسامح العرقيّ الكبير . (ولقد كان الامبراطور هو الذي وجّه بلاده هذه الوجهة منذ يوم انتصاره وتحرّر البلاد) . والحق ، ان الايطاليين في اثيوبيا يقدّمون للبلاد خدمات اجتماعية واقتصادية نافعة ، كما ان عدم تعصّبهم العرقـّي يرفع مقامهم في أعين الاثيوبيين . انهم يتزاوجون مع الأحباش .. ولن يطول الزمن حتى يتمثّلهم الأهلون وينقلبون أحباشاً طيّبين ، وعند ذاك سيخلّفون لمسة من « ايطاليتهم » في طريقة الحياة الاثيوبية ، بصورة أو أخرى .

***

من حيث النقاط الآنفة ، يبدو أن هناك شيئاً موحّداً في الحياة الجامعية في الأقطار الافريقية التي زرتها ؛ كما انها جميعاً ، إلا واحدة ، تمتلك سِمَتين مشتركتين . ان جامعات تلك الأقطار جامعاتٌ حديثة النشوء (وفي معظمها تكون الجامعة أحدث من الاستقلال السياسي للقطر) ، ولذا فان معظم الاساتذة من الأجانب الذين يتعاونون جنباً إلى جنب مع الأساتذة الوطنيين . والقطر الوحيد الذي لا ينطبق عليه هذا القول

هو ، بطبيعة الحال ، الجمهورية العربية المتحدة ، الا في حال جامعة اسيوط في الصعيد ؛ حيث انشئت هذه الجامعة قبل ثلاث سنوات [1]. أما الجامعات المصرية الأخرى فهي أقدم عهداً من أخواتها في افريقيا ؛ وفي حال الجامعة الأزهرية يكون المرء أمام احدى أقدم الجامعات في النصف الغربي من العالم القديم [2] .

ويضارع الأزهر أقدم الجامعات الاوروبية : جامعة بولونيا في ايطاليا ؛ وجامعة السوربون في باريس ، كما ان الجامعة الأزهرية الحاضرة تشبه جامعات اوروبا في القرون الوسيطة إلى حد كبير : من حيث كونها جميعا جامعات كوزموبوليتية .

لقد كانت جامعة باريس (السوربون الحالية) في ذلك الوقت ، تجتذب طلاب العلم من مختلف ديار المسيحية في الغرب ؛ وكذلك الجامعة الأزهرية تجتذب اليوم طلابها من مختلف ديار المسلمين السنّيين في العالم .

وحين تتجول في اروقة الأزهر تجد الطريقة التقليدية في دراسة القرآن والفقه والقضاء لا تزال ناشطة تمارَس في بناءٍ يعود تاريخ نواته إلى العصر الفاطمي . وقد تركت حكومة الجمهورية العربية نظام التعليم الديني القديم على حاله . وحتى البناء الذي يتم فيه ذلك النظام صانت له جلال قدمه . غير أن هذا لا يجب أن يعني أن الجامعة الأزهرية الآن هي حلقات الدرس في الجامع الأزهر القديم . كلا . لقد جرى توسيع الجامع فغدا جامعة . ولم يتم ذلك عن طريق « عصرنة » الجامع ، بل عن طريق الاضافة اليه : سواء من حيث رقعة البناء أو من حيث نظم التعليم التي أُدخلت على براجه . لقد اقيمت مساكن جديدة ، زهيدة الأجور نسبياً ، وأُلحقت بمساكن الطلاب القديمة . وقد روعي

(١) أي سنة ١٩٦١ .
(٢) أي آسيا واوروبا وافريقيا ، وهو العالم القديم جغرافياً .

في هذه أن تكون صالحة لاستقبال الطلاب الأجانب على الخصوص . هذا في قلب القاهرة حيث المنطقة مزدحمة بالعمائر ، أما في ضواحي المدينة فقد انشئت بنايات الكلّيات الحديثة الملحقة بالأزهر .

ان طالب الأزهر اليومَ ، مصرياً كان أو اجنبياً ، لهو حرّ في الاختيار ، إذا شاء قصَر دراسته على العلوم الدينية ، وان شاء أضاف إلى ذلك تخصصاً في العلوم الطبيعية أو السياسية . وقد لا يجد في نفسه رغبة لدراسة العلوم الدينية أصلاً ، وحتى في تلك الحال فانه يجد في صدر الجامعة الازهرية رحابة عظيمة : ان له أن يقصر دراسته على واحد من العلوم الحديثة . وكان ينبغي أن لا أقول « طالب الازهر » أيضاً . ذلك أن الوجه الجديد للأزهر لهو حقاً وصدقاً « جامعة حديثة » ، فالأزهر يقبل طلاّبه شباناً وشابات على السواء . ولقد حظيت بمقابلة مع عميدة الطالبات الأزهريات .

كان يمكن لمجرد وجود مثل هذا المركز الأكاديمي الذي تشغله سيدة ، ان يُدهش ذلك المؤرخ المصري البارز ، أعني الجَبَرْتي ، الذي كان والده أحد مشايخ الأزهر . لقد عاش ذلك المؤرخ حتى شهد واقعتين ثوريّتين أكثر مما كان يتصوّر ، أولاهما احتلال جيوش نابليون لمصر سنة ١٧٩٨ ، وثانيتهما « تغريب » محمد عليّ الحياةَ المصرية بعد ١٨٠٥ . بيد أنه حتى هاتان الخبرتان المذهلتان كانتا مجرد حدث تمهيدي لتهيئة ذهن « الجبرتي » لتقبُّل صدمة أعنف : صدمة رؤية النساء يقتحمن عرين مملكة الأزهر المصونة .

وهكذا يمكن القول : ان الحياة الجامعية في الجمهورية العربية المتحدة اليوم ، ناضجة كما هي في اوروبا الغربية ، علاوةً على أنها تقدمية متفائلة النظرة . ومن شأن هذا النضج أن يميّزها عن الحياة الجامعية في الأقطار الافريقية الأخرى التي هي موضوع البحث .

***

هناك تمايز آخر أشد أثراً ، من حيث تركيب الهيئة التدريسية .

فالجمهورية العربية المتحـــدة البعيدة حتى الآن عن الحاجة إلى استيراد المدرّسين ، تصدّر مدرّسين إلى شقيقاتها الأقطار العربية الأخرى . وهي تزوّد تلك الأقطار بأساتذة مختلف المستويات ، حتى المستوى الجامعي ، مروراً بالمرحلة الثانوية ، واساتذة المرحلة الابتدائية ؛ وباعداد كبيرة جداً ، وهناك فرع من جامعة القاهرة في الخرطوم بالسودان ، كما انه مـا كان بمقدور الجامعة الليبيّة ان تنشط ويصلب عودها بسرعة ، فتبلغ مستواها الحاضر ، لولا ان توفّر لها الأساتذة الجامعيون المصريون الذين وفوا بحاجتها في هذه المرحلة المبكرة من عمرها المديد . وأود ان انوّه هنا إلى أن عـــدداً كبيراً من الاساتذة المصريين كانوا يتأهبون للسفر إلى الجزائر اثناء زيارتي الحاليّة للبلاد . وكانت الطرفة الدائرة على الألسنة في القاهرة هذه الأيام أن هؤلاء الاساتذة ذاهبون إلى الجزائر كي يعيدوا إلى أهلها تعلّم لغتهم الأصيلة ، أعني اللغة العربية .

والحقيقة ان حركة المقاومة الجزائرية ـ تلك المقاومة التي بدأت يوم هبط الفرنسيون الفاتحون على التراب الجزائري واستمرت ، عنيفة حيناً ، هادئة حيناً آخر ـ قد وجدت من الصعب عليها أن تصدّ اللسان الفرنسي أكثر من طرْد الجيش الفاتح . لقد قهرتها اللغةُ الفرنسية ، ولم تجـد العربية مناصاً من ذلك . ومن ثم سارت محاولة التحرر السياسي في البلاد مع التحرر من التمثّل الثقافي الفرنسي في الوقت نفسه . لذا كان من مهمة بعثة المعلمين المصريين إلى الجزائر ، ومن وجهة نظر المصريين ، أن يساعدوا الجزائريين في اعادة امتلاك ثقافتهم العربية . ومن المحتمل جداً أن ينجح الأساتذة القادمون في هذه الناحية . غير انه ليس من المحتمل ، أن يجربوا ـ وسيخفقون لا شك إذا فعلوا ـ ان يفطِموا الجزائريين عن ارتضاع الثقافة الفرنسية ، التي هي احـــدى أثمن المخلّفات الفرنسية في الجزائر ، من نظام الحكم البائد . ان على كل فرد من عالمَ المستقبل ، رجلاً أو امرأة ، أن يكون عميق الاطلاع على ثقافتين على الأقلّ ، حتى يكون

فرداً متحضراً حقاً ؛ وبين الثقافات المتعددة الآن تُعتبر الثقافة الفرنسية واحدة من أشدها اجتذاباً .

ويتحقق أهل غرب افريقيا اليومَ انه سيكون على الطبقة الجامعية المثقفة لديهم ألا تقنع بثقافة مزدوجة بل تكون مثلثة الثقافة . فبالاضافة إلى معرفتهم ثقافة لسانهم الوطني ، ينبغي أن يطلعوا على كل من الثقافتين : الفرنسية والانكليزية . لماذا ؟ لأن : المستعمرات الفرنسية السابقة في غرب افريقيا ترتبط بالمستعمرات الانكليزية السابقة هناك ارتباطاً جغرافياً متشابكاً . إن حدود تلك الاقطار ـ التي جرى تخطيطها قبل ستين أو سبعين سنة حسب هوى ومصالح الفرنسيين والبريطانيين آنذاك ، لا مصالح الافريقيين أنفسهم ـ تتجاهل الاعتبارات القومية والعرقية في الخارطة الافريقية . لذا فإن التعاون الوثيق بين فئتي المستعمرات السابقة هذه سيكون أمراً لا غنى عنه ، بل لا مناص منه ، في فترة ما بعد الاستقلال الحديثة . لكن هذا التعاون سيظل صعباً إلى أن يستطيع السياسيون والموظفون الاداريون والمربُّون في جميع أقطار غرب افريقيا هذه ان يتكلموا الفرنسية والانكليزية بطلاقة . هذا واحد من الممهّدات التعليمية الضرورية للوحدة الافريقية العزيزة على قلوب سياسيي الأقطار الأفريقية المستقلة في الوقت الحاضر .

وهكذا فان تعلُّم لغه اجنبية سوف يلعب دوراً بارزاً في التعليم الافريقي في المستقبل ، كما يفعل مثل ذلك في كل من هولندا واسكندينافيا في الوقت الحاضر ، وكما لا يفعل إلى حد كبير ، لسوء الحظ ، في كل من بريطانيا وفرنسا وامريكا . ومن شأن هذا ان يطرح أمامنا قضية ذات أهمية رئيسية هي :

هل على الجامعات الافريقية الطرية العود ان تقنع باعتناق الأساليب والتقاليد الجامعية التي رسخت قدمها في جامعات غرب اوروبا ؟

أم أن عليها ان تسلك نهجاً جديداً ـ تراه عينٌ غير متغرِّضة ـ إلى

كامل موضوع أهداف ومطامح التعليم الجامعي ؟

الأكيد ان الاتجاه الثاني هو الأصوب والأسلم بالنسبة اليها . إن بروزها إلى الحياة متأخرة من حيث الزمن (عـدا جامعات الجمهورية العربية المتحدة) يمنحها فرصة طيبة للاستفادة من الخبرة الغربية ، دون ان تجمّدها تلك الخبرة ، أو تشلّها عن الحركة . إن لديهـا الفرصة الحقيقية لأن تكتشف طريقاً جديداً يلائم حاجات افريقيا ؛ وإذا ما استطاعت الابداع بخيال وحكمة ، فسيكون ذلك الطريق غير صالح لافريقيا فحسب ، بل للعالم قاطبة . ان بامكانها ، مثلاً ، وضع طريق وسيط بين الاختصاص المغرق الذي صار وصمةَ التعليم البريطاني ، وبين التعليم السطحي الذي كثيراً ما يكون الثمنَ الذي يَدفعه التعليم العام في كليات الآداب الأمريكية الليبرالية .

***

ومن الطبيعي ألا يكون للجامعات الخيار المطلق في هذا الأمـر . ذلك أن الأساتذة وبقية الهيئة التدريسية التي تستخدمها تلك الجامعات في هذه المرحلة المبكرة من عمرها — لا مناص من ان يجلبوا معهـم تقاليدهم وأحقادهم التي نشأوا عليهـا في الجامعات التي تخرّجوا منها . وانه لمن المرغوب فيه — في هذه المرحلة المبكرة على الأقل — أن ترتبط الجامعات الافريقية ارتباطاً وثيقـاً بالجامعات الغربية الأقدم — ولو عرّضت نفسها للاصابة بعدوى بعض سيئات تلك الجامعات ، وبعض حسناتها أيضاً . وسيكون الافريقيون حكماء حقاً ، إذا لم يحاولوا ، حتى منذ البداية ، ان يقنعوا بامتحانات جامعاتهم ، المحلية . بـل اظهروا رغبتهم في هذه المرحـلة المبكرة من عمر جامعاتهم ، في أن يُعدوا طلابهم للجلوس لفحوص خارجية ، أعدّتهـا جامعات بارزة ذات خبرات مشهودة .. إنهم بذلك يضمنون لأنفسهم مستوى أكاديميـاً رفيعاً من أول الطريق .

***

كانت جامعة « هايل سلاسي » في اديس ابابا واحدة من أحدث الجامعات الافريقية التي زرتها في هذه الجولة .. ويعود الفضل في تأسيس هـذه الجامعة إلى مبادهة الامبراطور نفسه ، وهو يهتم اهتماماً شخصياً نشيطاً بتقدمها وازدهارها . والاثيوبيون أكفاء لأن يستفيدوا تماماً من الدراسة الجامعية ، فهم ذوو استقلال عقلي ؛ وما روح الدراسة الجامعية إلا أن يتعلم المرء كيف يفكر لنفسه وان يجعل عقله هو موجّهه الخـاص في دراسته . ان عمل الأستاذ الأساسيّ في الجامعـة لهو حفز الطالب أن يقوم بعمله ، ولا ينبغي له ان يهتم بان يقوم هو بعمل ذلك الطالب . ويميل الطلاب ، في المستوى الأدنى من المستوى الجامعي ، على الدوام إلى ان يتلقّوا جرعة ثقافية بالملعقة ، أمـا في المستوى الجامعي ، فان تلك الجرعات التلقينية لا تنتج تعليماً ، البتة ، كما انها خطرة جداً .

لا عجب في ان صاحب الجلالة الامبراطور متلهف عـلى أن يرى جامعة هايل‌سلاسي تقف على قدميها . أليست هذه هي المرة الثانية التي جرب فيها القيام بتلك المهمة المثمرة ، لكنها محفوفة بالخوف : مهمة توفير التعليم العالي لمثقفي الجيل الطالع ؟ لقد درب الامبراطور عُصبة من الشباب الذين كانوا سيجعلون اثيوبيا عصرية ، تحت قيادته ، قبل الهجوم الايطالي عـلى البلاد سنة ١٩٣٥ . لكن فاتحي اثيوبيا الايطاليين الفاشست استأصلوا تلك العصبة من الأحباش الحديثي الثقافة اثناء سيطرة جُندهم القصيرة على البلاد . ولقد قتلوهم بمهارة وخبث . إذ ذاك بات عـلى الامبراطور أن يبدأ من جديد . وهو في هذه المرّة يضع أساسات عريضة وعميقة لمحاولته الجديدة ؛ فبدلاً من مجرد ابتعاث حفنة من الشباب إلى الخارج نراه ينشىء جامعة حديثة ، ويفتح فيها ابواب الكليات للنساء كما للرجال . والحقّ يقال: ان جامعة هايل‌سلاسي لهي الأمل الأكبر لخدمة مستقبل اثيوبيا ، من بين جميع المشروعات البناءة التي بوشر بها في البلاد منذ تحررها من الحكم الايطالي القصير العمر .

الوحدة العربية آتية

التكافل الافريقي والوحدة العربية

African Solidarity and Arab Unity

الوحدة العربية ؟ تبدو هذه الوحدة محيّرة أكثر من التكافل الافريقي في الوقت الحاضر . وهي تلوح في الواقع ، بعيدة قدر ما بدت الوحدة الالمانية والوحدة الايطالية بعيدتين عقب تلاشي الثورة الاوروبية في سنة ١٨٤٨ . والمقارنة هنا ذات دلالة ؛ فمطامح اوروبا القرن التاسع عشر ، وان بدت ميئوساً منها في سنة ١٨٤٩ ، قد تم تحقيقها بصورة ناجزة في سنة ١٨٧١ . لذا غدا توحيد المانيا وتوحيد ايطاليا السريع الحدثين البارزين في تاريخ اوروبا القرن التاسع عشر المليء بالأحداث . وإذا شئنا بدء التأريخ لهما بنهاية الحروب النابليونية ، فان عملية التوحيد هنا تكون قد استغرقت ستاً وخمسين (٥٦) سنة . وليس عجيباً انها استطالت حتى هذا القدر ، إذا أخذنا بعين الاعتبار تلك العقبات الكأداء آنذاك . انتظرْ فترة ٥٦ عاماً من نهاية الحرب العالمية الأولى كي تترك للعرب فترة مساوية من الوقت ليقوموا بنفس الانجاز السياسي الصعب . **على هذا الأساس يكون للعرب من الوقت حتى سنة ١٩٧٤ كيما ينجزوا وحدتهم بنفس سرعة الألمان والايطاليين . ولا يمكن حتى لألد أعداء العرب أن يضمن ان وحدتهم لن تكون قد أنجزت في ذلك التاريخ .**

أية عقبات هناك أعظم من العقبات التي قهرتها ايطاليا القرن التاسع عشر حقيقة ؟ كانت تسوية سنة ١٨١٥ السلمية مجرد انكارٍ حاذق وخبيث

لشخصية ايطاليا السياسية ، وكان « مترنخ » يعبر عن ذلك بكلماته المشهورة : « ان ايطاليا مجرد كلمة جغرافية » . يومذاك ، كان الاقليمان الرئيسيان في ايطاليا ، وهما لومباردي وفينسيا ، تحت سيطرة دولة أجنبية ، هي النمسا . أما باقي البلاد فكان موزعاً في صورة زعامات محلية ضيّقة كان حكامها المتعاقبون ذوي مصلحة أكيدة في إبقاء تفكك البلاد السياسي إلى الأبد . وليست نكبة العالم العربي الحاضرة ، إذا أمكنت المقارنة ، على قدر من السوء يوازي نكبة ايطاليا القرن التاسع عشر في بداية الأمر . فالعالم العربي اليوم على وشك ان يتخلص تماماً من آخر آثار السيطرة الأجنبية على ارجائه . لقد انتهت المرحلة الأخيرة السيئة من حكم فرنسا للجزائر الآن ؛ ومن غير المحتمل ان يبقى الحكم البريطاني أو « النفوذ البريطاني » في سواحل جنوب جزيرة العرب وشرقها بعد تصفية الاستعمار من بقية سواحل المحيط الهندي .

لكن . . ماذا عن اسرائيل ؟

هل كانت ايطاليا القرن التاسع عشر تعاني شوكة في جسدها من هذا القبيل ؟

حسناً ، نعم ، لقد كانت . هناك كانت الولايات البابوية . وكانت الكاثوليكية تسند الاحتفاظ بقوة البابوية الزمنية . والكاثوليكية قوة كبيرة مثلها مثل اليهودية العالمية . ومع هذا ففي سنة ١٨٧٠ تم توحيد ايطاليا بدمج روما فيها .

صحيح ان « العصر الذري » يختلف عن « العصر - قبل - الذري » في نقطة حيوية واحدة ذات علاقة بقضية الوحدة العربية ، فنحن نعلم ان توحيد ايطاليا وتوحيد المانيا قد تم انجازهما جزئياً بالقوة الحربية . وفي العصر الذري لا يمكن اتخاذ الحرب كوسيلة حتى في أغراض سياسية

مشروعة . ففي الظروف والاحوال الجديدة ، تشكل أي حرب في أي مكان ، خطراً يهدد بقاء الجنس البشري . زد إلى ذلك ان العرب لا يودون اكراه بعضهم بعضاً في ذلك . ان ذات معنى اخوّتهم التي تدفعهم إلى نشدان الوحدة السياسية يجعلهم أيضاً يتمنّعون عن محاولة انجاز تلك الوحدة عن طريق القوة . ولقد عبّر الرئيس جمال عبدالناصر عن هذا الشعور العربي المشترك ، وسار وفقاً له حين رفض استعمال القوة لمنع سوريا من الخروج من الجمهورية العربية المتحدة . وكان قراره قرارَ رجل دولة ، حصيفاً ، علاوة على أنه قرار انساني . وقد تُثبت اطالة النظر في قبوله تَرْكَ سوريا تخرج بسلام أنه قد فعل الكثير لجعل التوحيد العربي أقرب تحقيقاً .

ويمتلك العالم العربي الحاضر حافزاً خاصاً واحداً يدفعه إلى الاتحاد . إنه يعاني من الضغط الاجنبي ، ومع ان الضغط الفرنسي والانكليزي آخذان في التراخي ، فان الضغط الاسرائيلي ليس كذلك . وهنالك أيضاً دافع عام لا يحسّه العالم العربي وحده بل جميع أنحاء العالم . ففي كل أرجاء المعمورة في الوقت الحاضر هناك زيادة عظيمة وسريعة في مدى العمليات الانسانية الهامة . ان مداها آخذ في الصيرورة على نطاق العالم . أما دول الماضي الصغيرة فهي آخذة في الانضمام إلى بعضها ، والتناقص كوحدات منفصلة . ويتجه هذا التغير في المدى نحو التكتل . فها هي الدول « المحلية » في اوربا سائرة الآن في طريق الاتحاد الطوعي لأول مرة في القرون الأحد عشر الاخيرة . ويبدو أن من غير المحتمل أن يمرّ هذا المد العالمي في الشؤون الانسانية بالدول العربية ويخلّفها غير متأثرة به .

***

ان كل دولة من الدول العربية تمتلك موارد من شأنها ان تفيدها

جميعاً فيما إذا كُدِّست في كومة واحـدة . فالعراق وسوريا وليبيا والسودان تمتلك أراضي زراعيـة غفلاً ، وصالحة لأن تُسكن وتفلح . بينما هناك في مصر والجزائر فائض سكاني يمكنه أن يجعل هذه الاراضي مأهولة ومنتجة . وتلك الأقطار التي تحتوي خامات الزيت المعدني تمتلك المصادر الكامنة لتمويل خطة تشمل العالم العربي ككل . وفي الوقت الحاضر ، يحاول كل قطر عربي أن يحرز تقدمه الخاص ، معتمداً على نفسه ، لذا فانه يعمل مغلول اليـد . ان خطة اقتصادية شاملة للجميع ، تسندها مصادر العالم العربي المجمّعة ، سوف تسارع نجاح كل قطر عربي مشارِك فيها . وتاريخ المانيا الغربية بعد الحرب شاهد قوي على ان القطر المزدهر يستطيع أن يجعل صوته مسموعاً .

ولا حاجة إلى القول ان الاقتصاد في العالم الحديث يرتبط بالسياسة اكثر مما كان يفعل من قبل . وتُظهر تجربة السوق الاوروبية المشتركة ان التوحيد الاقتصادي لا يمكن المضي فيه بعيداً هذه الأيام دون قدر ما من التوحيد الاقتصادي ليمسكه ويثبّته من الوقوع . وفي حال العرب ، بدورهم ، من المحتوم ان تبرز قضية الوحدة السياسية ، وان تبرز معهـا المشاكل التي تخلقهـا المصالح الثابتة القائمة في التفكك السياسي الحالي . وليست هذه المصالح الثابتة كلها مصالح أُسَر . هنـاك أيضاً منافسات متبادلة وشكوك قائمة بين الشعوب العربية نفسها . وهذا أمر طبيعي ، إذا اعتبرنا الفروق ما بينها من حيث السكان ، والثروة ، ودرجة الرقي . وعقبات التوحيد هذه عقبات خطيرة ، لكنها ليست غير مألوفـة ولا مستحيلة القهر . والواقع أنه تم قهرهـا مرة تلو مرة منذ وُضعت خطة رائدة لذلك في دستور الولايات المتحدة الاميركية في ثمانينات القرن الثامن عشر .

والعبرة التي ينطوي عليها تاريخ الولايات المتحدة اللاحق هي أن

مخاوف الولايات الأصغر والأضعف – تلك المخاوف التي أعاقت هذه الولايات في الانضمام الى الاتحاد – قد تكشّفت فيما بعد عن أنها كانت على غير أساس . فالاتحاد بعد انجازه لم يؤدّ الى سيطرة الولايات الأقوى على بقية الولايات . وليس من الضروري أن يقع شيء من ذلك في حال انجاز وحدة العالم العربي . فباللباقة والصبر والتعفّف المحاذِر لاستعمال القوة ، يمكن إحراز هذه الوحدة في أيام هذا الجيل الحاضر .

*

إنطلاقاً من ان طموح الشعوب العربية للوحدة العربية يبشر بأمل التحقق ، ما هو الأثر الذي يتضمنه ذلك الأمل على مستقبل مطامح الشعوب الأفريقية إلى التكافل الأفريقي ؟ ان أفريقيا والعالم العربي متداخلان ومترابطان . فأكثرية الناطقين بالعربية موجودة في أفريقيا الآن . اذن فان هذين المطمحين المتعاصرين يظهران وكأنه مقدّر لهما ان يكونا ذوَي آثار متبادلة مهمة الواحد منهما على الآخر ..

أمن المحتمل ان يعملا معاً نحو هدف أفرو – عربي مشترك ؟

أو انه من المحتمل ان يتصادما ويتنافرا ؟

ان مصلحة الجنس البشري العامة راغبة بوضوح في أن تتقدم هاتان الحركتان العظيمتان صوب ترابطٍ اوثق على نطاق اقليمي ، وان تتقدما معاً في توافق وانسجام . إذا أمكن احراز ذلك ، فسيكون خطوة مهمة نحو الوصول إلى وحدة عالمية النطاق فيما بعد ؛ وهي ، في عصرنا الذري ، النقيض الوحيد أمام الجنس البشري إذا أراد أن لا يصفّي وجوده . ومن سوء الحظ ان امارات الوقت الحاضر تشير إلى التوتر بين الهدف العربي والهدف الأفريقي ، لا إلى التوافق والانسجام . ويبدو ان هذا التوتر آخذ في الازدياد والحدة ، فيما وكلما اقتربت أي من هاتين الحركتين من وصول هدفها . فمثلاً : في مقدور المرء أن يتصور عالماً

عربياً موحّداً يسند محـاولة عرب شمال السودان في فرض التعريب على مواطنيهم السودانيين الجنوبيين ، كما أن في مقـــدوره أن يتصور عالمـاً أفريقياً زنجياً يسند حركة المقاومة في جنوب السودان وأن يرى جنوب السودان « أرضا أفريقية زنجية مسلوخة Negro African terra irredenta ».

وإلى درجة أقلّ يمكن تصوُّر نفس هذا التوتر المتزايد في نيجريا ؛ إذ أن نيجريا الجنوبية ذات مشاعر ملتهبة لأفريقيا الزنجية ، بينا نيجريا الشمالية ذات مشاعر اسلامية قوية ، تشدها إلى العـالم العربي . صحيح ان نيجريا الشمالية ليست بلاداً تتكلم اللغة العربية ، وان القومية العربية لا تقوم على الاسلام . (انها تقوم على اللغة والثقافة ، لا على الدين ، وللمسيحيين العرب دور قيّم فيهـــا) . لكنه صحيح أيضاً في نفس الوقت ان أكثرية العالم الناطق باللغة العربية هم مسلمون ، وهذا ما يجعل مسلمي نيجريا الشمالية يشعرون برباط بينهم وبين العرب أنفسهم .

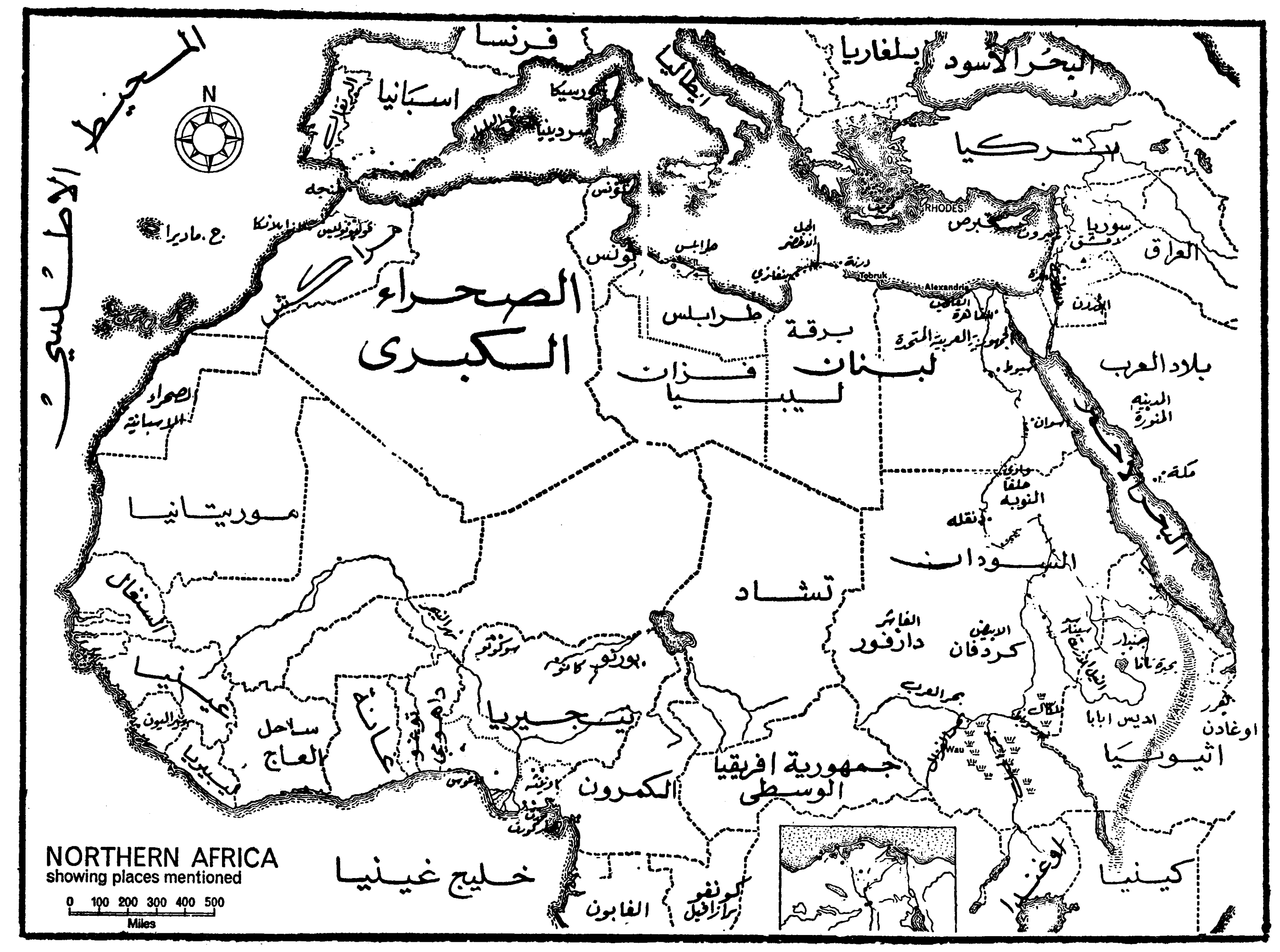
طبعاً ان الحد الفاصل بين افريقيا العربية وافريقيا الزنجية ليس حداً واضح المعالم . فمن حيث العِرق نجد أن مسلمي شمالي نيجريا يسود فيهم العرق الزنجي . ومثلهم سكان قلب شمال السودان في ام درمان والخرطوم و « الجزيرة » السودانية . هذا من حيث العرق . أمـــا من حيث المشاعر ، فان هؤلاء السودانيين الشماليين الزنوج الناطقين بالعربية هم عرب ، واولئك النيجريون الشماليون الزنوج المسلمون هم مسلمون أولاً وقبل كل شيء . وهكذا فان هناك ، آخر الأمر ، حداً جغرافياً فاصلاً معيناً ، بـين الافريقيين الذين يمحضون ولاءهم الأسمى للزنجية ، والافريقيين الذين يمحضون ولاءهم الأسمى للعروبة أو الاسلام .

ان التمايز بين الافريقتين الاثنتين ، ومعارضتهما لبعضهما ، لهما حقيقتان واقعتان ؛ وإذا ما أخذنا ضخامة كل من افريقيا والعالم العربي بعـــين

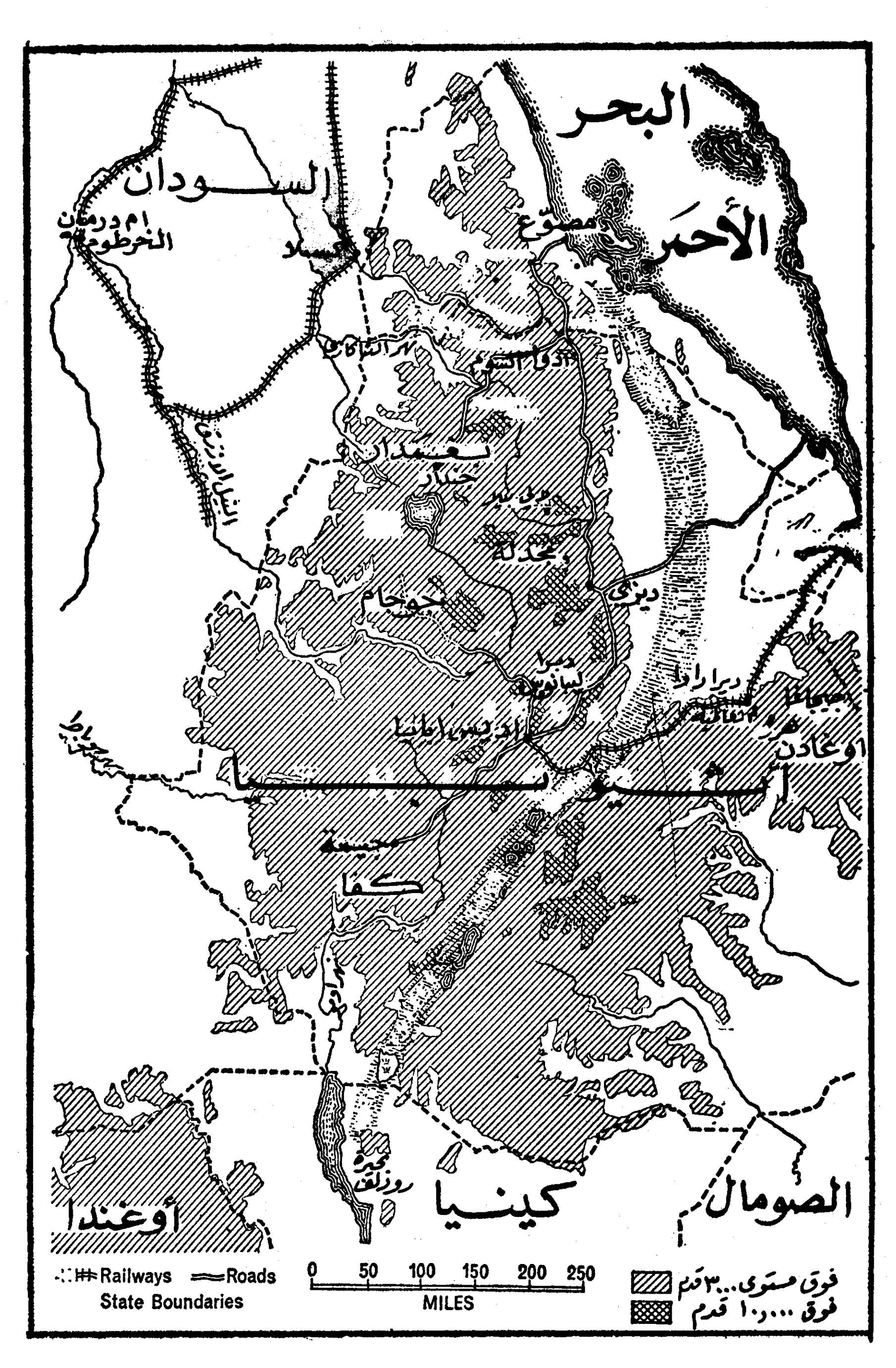
الاعتبار ، فان هذه الحقائق الافريقية قد تنقلب عوامل مهمة في شؤون العـــالم .

والقطر الافريقي الوحيد الذي قد ينجح في الاحتفاظ بمركزه الرفيـع « فوق المعركة » هو اثيوبيا « الاولمبيّة » ؛ ذلك لأن اثيوبيا تخصّ كلاً من العالمين الافريقيّين ، كما ان هناك سمةً في انها لا تخص أياً منهما . نعم ان اثيوبيا مسيحية مثل ثلثي افريقيا الجنوبيّتين ، لكن مسيحيّتها الـ « ما قبل خلقدونية » في عمر القرون ، في حين ان مسيحية الكاثوليك والبروتستنت في بقيـــة افريقيا المسيحية ، بالمقارنة مع سابقتها ، مجرد « موضة » حديثة – Parvenu . ان دين اثيوبيا ومسيحيتها حاجزان بينها وبين ثلث افريقيا الشمالي العربي المسلم . الا ان اللغات الاثيوبيـة تشبه العربية في أن الجميع لغات سامية ، وفي انهـا جميعاً وفدت على افريقيا من آسيا ؛ كما ان اتيوبيا تشبه شمال افريقيا في أن كليهما ذو تاريخ متميز قديم .

فإذا قدّر لذلك الصدام الكامن بين العرب وافريقيا الزنجية ان يرفع رأسه يوماً ما ، وإذا كانت اثيوبيا والصومال قد استطاعت التقرب من بعضها في تلك الاثنـــاء ، فانه قد يكون على اثيوبيا ان تلعب دور الوسيط غير المتحيز . وإذا لعبت هذا الدور بحكمة ، فانهـا قد تصير القطرَ المفتاح لكامل القارة – وبخاصة إذا كانت ، آنذاك ، قد استطاعت النجاح في الوصول إلى نوع مرضٍ من الارتباط المتبادل بينها وبـــين الصومال .



خريطة افريقيا (العربية والاسلامية الثقافية)


البحر
الأحمر
السودان
ام درمان
الخرطوم
مصوع
دينة
اديس ابابا
اثيوبيا
كفا
اوغادن
الصومال
كينيا
أوغندا
Railways
Roads
State Boundaries
0 50 100 150 200 250
MILES
فوق مستوى ٣٠٠٠ قدم
فوق ١٠٠٠٠ قدم

اثيوبيا

هذا الكتاب

عُرف المؤرّخ البريطاني الشهير ارنولد توينبي بتعاطفه مع العرب وتأييده لقضاياهم . وإن مواقفه من اسرئيل وعدوانيتها وعنصريتها لا تزال في الاذهان .

وفي هذا الكتاب يتنبّأ توينبي بأن الوحدة العربية لن تستغرق من الزمن حتى تتحقق ما استغرقته الوحدة الألمانية والوحدة الايطالية ، ولن تنحرف مثلهما ، بل إن سنة ١٩٧٤ هي الحدّ الاقصى (كما يقول توينبي) لإشراق نور هذه الوحدة .

ويتحدث المؤرخ البريطاني عن العقبات ، التي تعترض الوحدة العربية ، ولكنه يؤكد أن هذه العقبات ، ومنها مصالح بعض الأفراد والأسر المستفيدة من التجزئة ، ستزول تدريجياً ، وان الوحدة العربية قادمة وقادمة قريباً ، وويل لمن تعميه مصلحته المؤقتة من أبنائها عن الحق ، وويل اكثر لمن يقف في طريقها ، معاداة للخير ، من غير أبنائها . . .

وفي هذا الكتاب الممتع تأملات تاريخية طافت بذهن توينبي اثناء رحلاته الثلاث الى بلدان افريقية ، شمالي وجنوبي الصحراء الكبرى ، وعرض دقيق لمشكلة السودان ونيجيريا ، وائتلاف الاسلام والمسيحية في الحبشة وتاريخ نهر النيل ، ووصف شيّق لمنطقة « سد الجبل » في أعالي النيل وورشة « اسوان » و « الجزيرة » في السودان ، مع زيارة الى غزة ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين واشادة بالخدمات التي قدمتها مصر لتلك المنطقة .

كل ذلك في اسلوب شيّق ونفَس انساني رفيع وروح دعم وتأييد للنضال العربي .

الثمن ١٠ ل.ل او ما يعادلها .